ان مواد العدد ترتب لاعتبارات فنية
لا علاقة لمكانة الكاتب أو أهمية البحث بها

الأقلام
مجلة فكرية عامة
تصدرها شهريا
وزارة الثقافة والارشاد
بغداد - العراق

هيئة التحرير
السيد وزير الثقافة والارشاد   الدكتور جميل سعيد   الدكتور احمد شاكر شلال
الدكتور احمد مطلوب   السيد عزيز داخل   الدكتور فيصل الواثلي
السيد نعمان ماهر   السيد خالد الشواف
سكرتير التحرير : عامر رشيد السامرائي

المراسلات : باسم سكرتير التحرير - الاشتراكات : دينار واحد داخل العراق ، ٧٥٠ فلسا للطلبة ، دينار ونصف خارج العراق

في اسى الفجيعة

يصدر هذا العدد من (الاقلام) ، والامة العربية ما تزال في اسى الفجيعة الكبرى بفقد بطل من ابطال ثوراتها التحررية ، ورائد من رواد حريتها ووحدتها ، وقائد من قواد مسيرتها الى حياتها المثلى ، ذلكم هو الرئيس الشهيد عبدالسلام محمد عارف ، الذي نعاه الناعي وصحبه الشهداء الابرار صبيحة الرابع عشر من نيسان اثر الحادث الفاجع الذي وقع لطائرته التي كان يستقلها وصحبه في جولته التفقدية لجنوب العراق .

واذا كان فقد الرجال عظيمة في كل حين ، فان فقد الرئيس الراحل اعظم في الوقت الذي يتطلع فيه العراق الى قائده الذي اجتاز به فترات القطيعة والانحراف وعاد به الى درب الأمة العربية الواحد ، وفي الوقت الذي بدأ فيه خصوم الثورة واعداء الوحدة يجتمعون على الكيد للثورة والدس للوحدة .

في هذا الوقت الذي يمر به العراق وتمر به شقيقاته من الدول العربية المتحررة تكون الحاجة أمس الى الرجل الذي يضع يده في يد اخوانه الاحرار يشد ازرهم ويشدون ازره ، والفجيعة اكبر بالرائد الذي يتخطى بامته الموانع ويجتاز بها العقبات .

و (الاقلام) اذ تحس هذا المعنى ، وهي في غمرة الاسى ، لتحس بمعنى آخر يتمثل في رعاية الرئيس الفقيد للادب ،

الأقلام

الجزء التاسع ـ السنة الثانية
محرم الحرام ١٣٨٦هـ
مايس ١٩٦٦ م

وتشجيعه للادباء ، واحتفاله بمواسم الفكر ومهارج الشعر ، والتفاته لتقييم نتاج الاقلام في العراق والوطن العربي •

وكان انعقاد مؤتمر الادباء الاخير ومهرجان الشعر الكبير في بغداد مناسبة من المناسبات التي شهدت هذا الاهتمام وتمثلت فيها هذه الرعاية •

و (الاقلام) التي تعرف عمل العاملين، وتقدر جهاد المجاهدين ، لن تقنع بهذه الكلمة في فقيد الامة العربية ، وما هذه الكلمة الا توطئة لعدد من اعدادها تنوي باذن الله تكريسه لما يقال وينشد في حفل الاربعين الذي يعد له العراق وتشارك فيه شقيقاته من الدول العربية •

ولا تنسى (الاقلام) وهي تدعو للشهيد الراحل ولاخوانه الابرار ان يتغمدهم العلي العزيز برحمته ورضوانه ويسكنهم فسيح جنانه ان تدعو لرفيق جهاده وحامل رايته الرئيس الجديد اللواء عبدالرحمن محمد عارف بالتوفيق في حمل الامانة وقيادة الامة واعلاء الراية ، انه سميع مجيب ؟

هيئة التحرير

عصر الشرابي ببغداد[1]

ناجي معروف

ان لتاريخ اقبال الشرابي أهمية خاصة ، لانه يوضح لنا صفحة غامضة من تاريخ الدولة العباسية في أواخر أيامها ، لمدة نصف قرن تقريبا .
وسنعني بوجه خاص بالفترة التي تبدأ من تاريخ بنائه المدرسة الشرابية ببغداد سنة ٦٢٨هـ . حتى وفاته ٦٥٣هـ .

ان هذه الحقبة تزدحم بصور مختلفة ، وألوان عديدة ، لعل من أهمها :ـ

١ ـ سيطرة السلطان الاعجمي على الدولة العباسية حتى بعد القضاء على السلاجقة ، وقيام عصر اليقظة العباسية في زمن الناصر ، والظاهر ، والمستنصر ، والمستعصم .

٢ ـ تغلغل نفوذ الخدم ، والمماليك الذين كانوا عند الخلفاء . وهم الذين ينسبون الى كل خليفة من هؤلاء الخلفاء . كالمماليك الناصرية ، والظاهرية ، والمستنصرية ، والمستعصمية . وقد كان لهم النفوذ المطلق في الدولة . وفيهم يتمثل النفوذ السياسي والمالي ، والعسكري ، والاداري . ومن احسن الامثلة لنفوذهم السياسي بيعة المستعصم بالله . ولنفوذهم المالي والاقتصادي تلك الثروات من النقود ، والعقارات ، والمزارع التي كانوا يمتلكونها . اما النفوذ العسكري ، والاداري فيتجلى في أرباب المناصب ، والقادة في الجيش ، والزعماء ، والامراء الكبار ، والولاة في المدن والمناطق . وقد ظل هذا النفوذ طوال هذه الفترة الى أن آلت الخلافة العباسية الى السقوط بيد المغول بسبب نزاعهم ، وتبذيرهم ثروات البلاد في لهوهم ، وترفهم ، وشؤونهم الخاصة . قال ابن جبير : « ورونق هذا الملك انما هو على الفتيان والاحابيش المجابيب ، منهم فتى اسمه « خالص » وهو قائد العسكرية كلها ، ابصرناه خارجا احد الايام وبين يديه وخلفه امراء الاجناد من الاتراك والديلم ، وسواهم . وحوله نحو خمسين سيفا مسلولة في أيدي رجال قد احتفوا به فشاهدنا من امره عجبا في الدهر . وله القصور والمناظر على دجلة »(١) .

٣ ـ اهمال العنصر العربي حيث لم يكن للعرب شأن يذكر لا في الجيش ، ولا في المناصب الادارية ، ولا في الامارات المختلفة . ولانستطيع

أن نذكر الا عددا ضئيلا من رجالات العرب الذين شاركوا في مهام الدولة في هذا العصر الى جانب خلفاء بني العباس ٠

٤ ــ اهمال العلماء وفقرهم ٠ وسنرى في الصفحات الآتية أن أمراء الجيش ، والقادة ، والخدم ، والمماليك الذين كانوا يبتاعون بالمال ، هم أصحاب الكلمة النافذة ، والثروة الطائلة ، وأنهم كانوا يحيون حياة رافهة جدا ، وينفقون ما يشاؤون في هباتهم ، وخلعهم ، وصلاتهم ٠ بينما كان رجال العلم فقراء ليس لهم وكلاء في أملاك ، ولم يحوزوا شيئا من أرض أو عقار ٠ ولا نستطيع أن نقيس ما كانوا يتقاضونه من مرتبات ضئيلة، وجرايات قليلة ، بتلك الثروات الخيالية التي كان يمتلكها الخدم ، والمماليك من الامراء ، والزعماء ٠ ويكفي أن نذكر فيما يأتي على سبيل المثال ثروة مملوكين اثنين وفراش واحد :

١ ــ علاء الدين الطيبرس الظاهري ٠ وهو ممن اشتراهم الظاهر ٠ وكان يحصل له من أملاكه التي استجدها نحو ثلاثمئة ألف دينار ٠ وكانت له دار لم يكن ببغداد مثلها [٢] ٠ وكان صداقه على ابنة بدر الدين لؤلؤ عشرين ألف دينار ٠ ووهب له المستنصر ليلة زفافه مئة ألف دينار ٠ ثم ألحقه بأكابر الزعماء ، وارباب العمايم ، والمشاد[٣] ، واقطعه قوسان ٠ وكانت تغل له كل سنة مئتي ألف دينار[٤] ٠

٢ ــ مجاهد الدين أيبك الدويدار المستنصري ٠ وقد ملك جزيــل الاموال من العين ، والرقيق ، والدواب ، والعقار ، والبساتين ، والضياع مما يتعذر ضبطه على الحساب ٠ وفي ليلة زفافه نفذ الى داره من أواني الذهب ، والفضة ، والثياب ، والجواهر ما يزيد على ثلاثمئة ألف دينار ٠ وأنعم عليه في صبيحة تلك الليلة التي دخل فيها بزوجته ثلاثمئة ألف دينار عينا ٠ الى غير ذلك مما يطول ذكره ، ويتعذر وصفه ٠ وبلغ من الجاه العريض ، والحرمة الوافرة ، حتى انه كان يترفع على وزير الدولة الذي هو نائب الخليفة ، وعلى شرف الدين اقبال الشرابي الذي كــان مقدم العساكر ٠ ولم يركب الى أحد سوى الخليفة ٠ وكان في جماعة من أكابر الزعماء ، وأرباب العمائم ، واصحاب الكوسات ، والاعلام يقصدونه في داره خدمة ، وتقربا اليه ٠ وكان يصل اليه من اقطاعه ، وأملاكه ، ومزارعه أكثر من نصف مليون دينار سنويا[٥] ٠

ويقول عنه أبو الحسن الخزرجي[٦] ما يأتي : وفي اليوم الرابع من جمادي الآخرة سنة ٦٣٤هـ خلع على مجاهد الدين أيبك الخاص المستنصري في الحضرة المقدسة المستنصرية ، وقدم له فرس عربي بعدة كاملة ، فقبل حافره ٠ ورفع وراءه أربعة عشر سيفا ، محلاة بالذهب ٠ وخرج بين يديه جماعة من خدم الخليفة ، ووجوه أرباب الدولة ٠ وقصدوا داره بدرب الدواب ٠ وفي اجتيازه بدرب الدواب نثر عليه الذهب في عدة مواضع ٠

وكان وراءه الاعلام المنعم عليه بها ، والطبول ، وأحد عشر حملا كوسات مجلدة حمرا . وحملان نقارات صفرا ، وأحد عشر بوقا طوالا وقصارا تركية ...

وفي عشية هذا اليوم نقل من ديوان الابنية احد عشر طبلا ، وأحدى عشرة قصعة ، وزوج صنج (٧) برسم (٨) النوبة في الصلوات الثلاث . ولما دخل داره نثر عليه ألف دينار من بابه الى حيث نزل عن مركوبه .

وفي هذه الليلة وهي ليلة الزفاف ليلة الثلاثاء زفت اليه زوجته . وفي اليوم الخامس من جمادي الآخرة عرضت الهدايا ، والتحف على الامير مجاهد الدين . وكانت تتكون من : المماليك الترك ، والخدم الحبوش ، وأنواع الثياب ، والطيب ، والخيل ، وغير ذلك . قدمها جميع الزعماء ، وأرباب الدولة .

وفي اليوم السابع ركب وبين يديه الجمع الكثير من المماليك ، والأجناد ، والأمراء . ورفع وراءه واحد وعشرون سلاحا . وقدمت الخيل المجنوبة بين يديه . وشهرت حوله السيوف بأيدي المماليك الترك ، والشاووشية(٩) بأيديهم الجواكين(١٠) الذهب والفضة . وقصدوا دار الخلافة . ومضى راكبا الى باب الاتراك . ثم نزل هناك الى الرواق العزيز فخدم(١١) وعاد متوجها الى داره . وفي عشية اليوم المذكور نفذ له ثلاثة رؤوس من الخيل الجياد العربية من اصطبل الخاص(١٢) ، ومركب ذهبا ، وكنبوش(١٣) وغاشية(١٤) السرج زركش . والجميع مرصع بالجواهر المثمنة . فأسرج بذلك السرج على احدى الخيل المنعم بها . وركب في عشية ذلك اليوم . فخدم . وخرج وقت العشاء الآخرة في الاضواء والشموع . واستمر على هذه القاعدة يركب كل يوم بكرة وعشية الى أواخر أيام المستنصر بالله .

٣ — وأما الفراش فهو الصلاح عبدالغني بن فاخر المتوفى سنة ٦٤٨ هـ . وكان شيخ الفراشين بدار الخلافة . وكان مع خلوه من العلم حسن الملبوس ، ثاقب الرأي ، كثير التنعم ، يتشبه بالملوك في ترتيب داره . وكانت داره تشتمل على عدة حجر ، في كل حجرة جارية وخادمة وخادم . ثم رتب لكل جارية شغلا . فواحدة طعامية وشرابية . وأخرى فراشية ، وأخرى غسالة . وأخرى طباخة . الى غير ذلك(١٥) .

واليك بعض التفصيلات لما أوجزناه عن هذا العصر الذي كان يعيش فيه اقبال الشرابي . فمن الناحية السياسية لم يكن لاولاد الخلفاء ، أو عمومتهم ، أو اخوانهم نفوذ يذكر في الدولة ، وانما كان يؤتى بهم من « دار الشجرة » التي كانوا يقيمون فيها ليبايعوا الخليفة الذي ينصبونه رغم انوفهم ، كما حدث في بيعة المستنصر وفي بيعة المستعصم بالله(١٦) .

ومن الناحية المالية كانت الثروة كما أسلفنا بيد الخدم ، والمماليك . ولم يستفد منها أولاد الخلفاء ، ولا بنو هاشم عباسيين أو علويين . فقد

جاء في كتاب الحوادث الجامعة : أنه زيد في دور الضيافة في شهر رمضان من سنة ٦٣٠هـ داران بدار الخلافة لاولاد الخلفاء المقيمين في دار الشجرة ، والاخرى بخربة ابن جردة للفقراء الهاشميين(١٧) . ويذكر ابن وهاس في حوادث سنة ٦٤١هـ انه فتحت دار الضيافة بالمشهد الكاظمي لاجل العلويين المقيمين به . وداران بالجانب الشرقي ، والجانب الغربي ، للفقراء العباسيين . ودار بصحن السلام من دار الخلافة لاجل الساكنين بدار الشجرة من أولاد الخلفاء(١٨) .

ومن هذا القبيل ما جاء في العسجد المسبوك(١٩) عن الفقراء العباسيين، والطالبيين . ففي يوم الخميس ١٧ ربيع الآخر سنة ٦٣٣هـ برز من الخليفة المستنصر من خالص مال الطبق(٢٠) ثمانية آلاف دينار ، سلمت الى الوزير، وأمر بتفريقها على جهات معينة . فألف دينار للفقراء العباسيين ، وألف دينار للفقراء الطالبيين ، وألف لفقراء مشهد الحسين . وألف للفقراء المقيمين على تربة الامام احمد بن حنبل ، وقبر الشيخ معروف الكرخي . وألف للشرفاء المقيمين بدار الشجرة من دار الخلافة . وألفان للفقراء المجاورين في مشهد الامام علي بن أبي طالب (رض) .

وكان مدرسو المستنصرية في هذا العصر مثلا ــ وهم من أكبر علماء بغداد بوصفهم يدرسون في أكبر جامعة اسلامية فيها ــ لا يتقاضى الواحد منهم أكثر من (١٢) دينارا شهريا .

وكان ما يتقاضاه الخزان العظام في المستنصرية كابن الساعي ، وابن الفوطي وهما من كبار مؤرخي العراق لا يزيد على (عشرة دنانير) في الشهر . بينما نجد أن :

٤٠٠٠ دينار ينثرها خادم للشرابي على مجاهد الدين أيبك المستنصري المعروف بالدويدار الصغير عند زواجه من ابنة بدرالدين لؤلؤ صاحب الموصل ، وذلك عندما اجتاز باب البدرية ، حيث دار الشرابي ، وديواته(٢١) . وذلك عدا ما نثر عليه في عدة مواضع أخرى . ونجد أن :

٢٠٠٠ دينار تنثر على طير المنسب للشرابي .
و٣٠٠٠ دينار أعطاها الشرابي الى الاشخاص الثلاثة الذين اتوا بهذا الطائر من الموصل(٢٢) .
و١٠٠٠ دينار نثرت على طائر أيضا(٢٣) .
و١٠٠٠ دينار اخرى نثرت على طائر آخر(٢٤) .

بينما نثر ١٠٠٠ دينار و ١٠٠٠ درهم عليها اسم الخليفة المستعصم لما بويع(٢٥) بالخلافة . وأرسل الى كل من جامع المنصور ، وجامع المهدي بالرصافة ، وجامع السلطان ، وجامع فخرالدولة بن المطلب ، وجامع بهليقا(٢٦) ٥٠٠ دينار و ٥٠٠ درهم فقط بهذه المناسبة .

ولم تكن للمدرسين الكبار منزلة اجتماعية مرموقة ، كتلك التي كانت

للمماليك ، والامراء من الخدم . فقد كان كل واحد من المدرسين أو القضاة مثلا يمطى بغلة بعدة كاملة . بينما كان الامراء المذكورون يمطون الخيول المطهمة بعدتها الكاملة(٢٧) . وتشهر لهم الاعلام ، والسيوف ، والسناجق المذهبة اذا ركبوا(٢٨) . وتغدق عليهم الاموال الوفيرة .

نذكر على سبيل المثال ان كشلوخان بن أيبك الدويدار الصغير استدعي في سادس شهر ربيع الآخر سنة ٦٥٠هـ الى دار الوزير وكان عمره يومئذ تسع سنوات . وشرف بالامارة . وخلع عليه . وأعطي فرسا بمركب ذهبا ، وغاشية حمراء . ورفع وراءه سيفان أحضرا من المخزن ، سوى ما أحضر له من دار أبيه من السيوف والدرباشات . وتوجه الى داره في جمع عظيم . ونثر عليه ذهب في عدة مواضع(٢٩) .

وان أباه مجاهد الدين أيبك الخاص المستنصري ركب في يوم الاربعاء غرة شوال أي في أول يوم من عيد الفطر سنة ٦٤٥هـ بعد طلوع الشمس في الاضواء والشموع ... وكان بين يديه الجنب العربيات بالسروج الذهب ، مئتا فرس عليها مئتا مملوك(٣٠) .

وجاء في العسجد المسبوك(٣١) : ان الاميرين سيف الدين عبدالله وعلاء الدين عبدالله ابني الامير قيران الظاهري بذلا في شهر رجب سنة ٦٥٣هـ عشرين ألف دينار على أن يجعلا من أرباب الدرباشات والغواشي المرفوعة . وأن يجعل معيشة كل واحد منهما أربعة آلاف دينار في كل سنة فاجيبا الى ذلك .

ان أرباب المناصب ، والولايات ، والامراء الكبار ، وقادة الجيش كانوا كلهم تقريبا من المماليك والخدم ، ممن كانوا يحملون ألقابا ، وأسماء لا تمت الى العربية بصلة . ونستطيع أن نتبين مدى تغلغل نفوذ هؤلاء المماليك ، والخدم الذين كانوا يبتاعون لجمالهم ، وحسن صورهم ، وهيف قدودهم(٣٢) وزرقة عيونهم ، ليصبحوا بعد لأي سادة البلاد . وعلى الرغم من أنهم جميعا اضيفت أسماؤهم الى « الدين » فاننا نلحظ ضعف الوازع الديني ، والمخالفات الدينية الصريحة . فقد جاء في الحوادث الجامعة في أخبار سنة ٦٤٠هـ(٣٣) ما يأتي : « وفيها اتصل خروج الموكب في عيد الفطر الى الليل . وصلى الناس صلاة العيد قبل نصف الليل قضاء ولم يذكر سبب ذلك » . وذكر في العسجد المسبوك أن العساكر في عاشر ذي الحجة سنة ٦٤٤هـ ، خرجوا الى ظاهر البلد وصلوا صلاة العيد وقت غروب الشمس . كما صلوا صلاة عيد الفطر قريبا من ثلث الليل(٣٤) ، وذلك في أول شوال من سنة ٦٤٢هـ وكان قد خرج موكب الخليفة في الاضواء والشموع . وأما تقبيل الارض بحضرة الخليفة مرات عديدة فمن الامور المألوفة ، وكذلك تقبيل اليد وعتبة باب النوبي ، وحافر الخيل ، والارض والرغام .

واليك على سبيل المثال قائمة بأسماء ثلاثين من كبار الامراء وجلة الزعماء الذين كان بعضهم من أرباب العمايم والكوسات :ـ

١ ـ الامير اقباش الذي اشتراه الخليفة الناصر لدين‌الله ب ١٥ ألف دينار وهو ابن خمس عشرة سنة ولم يكن بالعراق أجمل منه صورة(٣٥).

٢ ـ الامير إيتغدي الناصري التستري التركي : أهداه الامير مظفر الدين وجه السبع الى سنقر بن عبدالله من خوزستان وجعل اميرا سنة ٦٤٩(٣٦).

٣ ـ شمس الدين أصلان تكين الظاهري زعيم بلاد خوزستان(٣٧) وأمير الحج .

٤ ـ بدرالدين أيدغمش زعيم العراق(٣٨) .

٥ ـ كيكلدي بن فرغوى الناصري وهو من كبار الزعماء(٣٩) .

٦ ـ علاءالدين الطيبرس الظاهري . وهو الدويدار الكبير المتوفى سنة ٦٥٠(٤٠) اشتراه الخليفة الظاهر . وأصبح من أكابر الزعماء ، وأرباب العمائم ، والمشاد . خلع على مماليكه وخدمه ١٧٠٠ خلعة وذلك في شهر رمضان سنة ٦٢٦هـ .

٧ ـ شهاب‌الدين سليمان شاه بن برجم(٤١) قتل صبرا في واقعة بغداد سنة ٦٥٦هـ .

٨ ـ نورالدين ايلدكز زعيم تكريت(٤٢) .

٩ ـ قطب الدين سنجر السنقري المستنصري(٤٣) وهو سنجر الياعر(٤٤) .

١٠ ـ الامير علاءالدين أبو شجاع الدكز الناصري المعروف بطساز شحنة بغداد المتوفى سنة ٦٤٥هـ . وكان أميرا كبيرا وزعيما جليلا(٤٥) .

١١ ـ ارغش الناصري الرومي(٤٦) .

١٢ ـ بهاءالدين أرغش المستنجدي(٤٧) .

١٣ ـ الامير شمس‌الدين أبو المكارم قيران الظاهري المتوفى سنة ٦٤٥هـ وكان من أعيان الامراء ، وأكابر الزعماء(٤٨) .

١٤ ـ مظفر الدين بهنام الرومي الناصري زعيم تستر(٤٩) .

١٥ ـ الامير عزالدين قيصر الظاهري(٥٠) .

١٦ ـ الامير بدرالدين سنقرجه أمير آخور الخليفة(٥١) وزعيم خوزستان(٥٢) .

١٧ ـ كركر الناصري(٥٣) ويرد الاسم أيضا على صورة غرغر ، وقرقز .

١٨ ـ جمال‌الدين قشتمر الناصري ، الظاهري ، ثم المستنصري المتوفى سنة ٦٣٧هـ . كان شيخ الامراء ، ومقدم الزعماء(٥٤) .

١٩ ـ جمال‌الدين بكلك الناصري(٥٥) .

٢٠ ـ شمس الدين علي بن سنقر الطويل(٥٦) .

٢١ ـ الامير فلك الدين محمد بن سنقر الطويل(٥٧) .

٢٢ ـ مجاهد الدين أيبك المستنصري وهو الدويدار الصغير(٥٨) قتل صبرا بسيف التتر سنة ٦٥٦هـ بعد أن أصبح له جاه عريض .

٢٣ ـ الامير نصرة الدين أرسلان الناصري(٥٩) .

٢٤ ـ عز الدين أبقرا شحنة بغداد الذي قتل في واقعة بغداد سنة ٦٥٦هـ(٦٠) .

٢٥ ـ الامير أبو المظفر باتكين بن عبد الله الرومي الناصري المتوفى سنة ٦٤٠هـ وهو مملوك عائشة بنت الخليفة المستنجد المعروفة بالفيروزجية، أقام بتكريت مدة . وسلمت اليه البصرة ، فأقام بها ٢٣ سنة . وتولى اربل سنة ٦٣٠هـ وحكمها باسم المستنصر(٦١) .

٢٦ ـ الامير أمين الدين كافور الظاهري(٦٢) وهو من أخص خـدم دار الخلافة .

٢٧ ـ مرشد الهندي الخصي . وقد ولاه المستعصم قيادة الجيوش بعد وفاة الشرابي سنة ٦٥٣(٦٣)هـ .

٢٨ ـ آرتر العراقي(٦٤) .

٢٩ ـ الامير كشلوخان بن مجاهد الدين أيبك المستنصري(٦٥) .

٣٠ ـ زنكي ابن الامير محمد بن قيران(٦٦) .

وقد تميز هذا العصر بكثرة المصادرات ، وتفشي الرشوة ، وعزل كبار الموظفين ، والقاء القبض عليهم ، وبيع ممتلكاتهم ، وتفاقم أمر الباطنية، والشطار ، والعيارين ، واشتداد النزاع الطائفي ، وكوارث الفيضانات والغرق ، والتفكك الخلقي . والانصراف الى الملاهي ، والقيان والتكـاثر في الاموال .

لقد كان المستعصم بالله عفيف الفرج ، لم ينقل عنه أنه عصى الله بفمه ولا بفرجه ولا شرب مسكرا . ولا أخل بصيام الاثنين ، والخميس من كل شهر . وكان يصوم شهر رجب من كل سنة الى أن فارق الدنيا . وكان يحفظ القرآن مواظبا على الصلوات في أوقاتها .

ومما يدل على عفته حادثته مع المغنية البغدادية « لحاظ » وهي مشهورة ذكرها مغنيه صفي الدين الارموي(٦٧) قال : « حدثتني لحاظ » قالت : داعبني الخليفة يوما ونحن في خلوة مداعبة ، وظننت أنه يريد مني بعض الامر ، فظهر له مني ما يدل على الاجابة فتوقر وقال : ويلك ظننت أني جاد . وهل ترين الا المزاح ، نعوذ بالله من المعصية .

الا ان المستعصم فيما يظهر لم يكن بصيرا بتدبير الملك ، وكل أموره الكليات الى غير الاكفاء (٦٨) . ولم ينفع الناس انصراف القليل منهم الى العلم ، والدراسة في المدارس أو التزهد والانقطاع الى الله تعالى في الربط ، والمساجد

حتى وقعت الواقعة ببغداد سنة ٦٥٦هـ ١٢٥٨م فقضت على الجميع(٦٩) .

قال قطب الدين الحنفي النهروالي يصف أهل بغداد في زمن المستعصم : « ... مرفهون بلين المهاد ساكنون على شط بغداد ، في ظل تخين ، وماء معين ، وفاكهة وشراب ، واجتماع أحباب وأصحاب فما كابدوا حربا ، ولا دافعوا طعنا ولا ضربا .. »(٧٠) .

وقال ابو الحسن الخزرجي يصف أهل العراق يومئذ : « واهتمـــوا بالاقطاعات ، والمكاسب . وأهملوا النظر في المصالح الكلية . واشتغلوا بما لا يجوز من الامور الدنيوية . واشتد ظلم العمال . واشتغلوا بتحصيل الاموال . والملك قد يدوم مع الكفر ، ولا يدوم مع الظلم »(٧١) .

---

(١) الرحلة : ص٢٠٣ طبعة صادر ببيروت .

(٢) الحوادث الجامعة ص ٣٦٥ . وكانت على شاطيء دجلة وقد سكنها الجاثليق بعد احتلال بغداد سنة ٦٥٦هـ ودق الناقوس على اعلاها «الحوادث ص٣٣٢» .

(٣) المشاد : جمع مشدة . جاء في السلوك ص ٤٥٢ قوله :« فقدم له فرس اشهب في عنقه مشدة سوداء ، وعليه كنبوش »٠

والمشد : نطاق تشد المرأة به نفسها .

والشد : شال من الحرير يعتم به ، او يتمنطق . راجع صبح الاعشى ٨:٤ .

والمشدة مرادفة للفظة الرقبة ، وهي: رقبة من اطلس اصفر مزركشة بالذهب بحيث لايرى الاطلس لتراكم الذهب عليها . تجعل على رقبة الفرس من تحت أذنيه الى نهـاية عرفه .

(٤) المسجد المسبوك . الورقة ١٨١ .

(٥) المسجد المسبوك . الورقة ١٩٢ .

(٦) المسجد المسبوك . الورقة ١٥٢ ـ ١٥٣ .

(٧) الصنج ، والصنوج : صفائح مدورة من النحاس يضرب بالواحد على الاخر في أوقات الصلاة ولاتزال مستعملة في اثناء الختان والحفلات الشعبية . وفي الجيش والزواج ، والكشافة وفي الصلاة والعماد عند المسيحيين في العراق .

(٨) يضرب به الطبالون في اوقات الصلوات . وكان في دار الخلافة طبالون يضربون بالطبل في أوقات الصلوات الخمس .

وخيل النوبة : الخيول تربط قرب القصر ويقال للواحدة : فرس النوبة تكون معدة للركوب دوما .

(٩) مفردها : الشاويش أو الجاويش أو الجاووش . وهم الجنود الذين يسـيرون امام السلطان أو النائب للتطريق أي للنداء وتنبيه المارة .

(١٠) الجواكين : مفردها جوكان وهو الصولجان الذي يستعمل في لعبة الكـرة والصولجة . أي انه المحجن الذي تضرب به الكرة ، ويمكننا ان نعرف الجوكان بأنه عصا مدهونة طولها نحو اربعة اذرع أي نحو مترين . وبرأسها خشبة مخروطية ، تزيد عـلى نصف ذراع . ويسمى الجوكان اليوم في الموصل : جاكون . راجع صبح الاعشى ج٥ص٤٥٨

(١١) خدم : مثل بين يدي كبير من الكبراء .

(١٢) اصطبل الخاص أي الاصطبل الخاص بخيل الخليفة . ويطلق عليه أيضـا « آخور » وهو بالفرنسية Ecurie

(١٣) الكنبوش : كلمة فارسية معناها : البرذعة توضع تحت سرج الفرس . ويستر بها مؤخر الحصان وكفله . وتتخذ من الذهب المزركش ، ومنها المزهرة بالريش وغيـر

المزهرة . راجع صبح الاعشى ٤ : ١٢ قال في الحوادث الجامعة : أعطساه المستنصر فرسا بمركب ذهبا ، وكنبوش ابريسما .

(١٤) الغاشية : لافتة من القماش الفاخر المزركش تمسك من طرفيها . وترفع منشورة بين يدي الفارس اذا مشى . وربما وضعت على صدر الفرس . جاء في الحوادث الجامعة ص ٢١٤ . وتكون البسملة بين يديه . وفي المنتظم ١٠ : ٤٦ ، ٤٨ : وعلى كتفه الغاشية ، وفي ص ٢٠ ، ٤٧ : وتحمل له الغاشية بين يديه . وفي صبح الاعشى ج ٤ ص ٧ ــ ٨ ان الغاشية أيضا غاشية السرج . وتكون من أديم أي جلد ، مخروزة بالذهب ، يخالها الناظر جميعها مصنوعة من الذهب . تحمل بين يدي السلطان عند الركوب في المواكب ، يحملها الركاب دار رافعا لها على يديه يلفتها يمينا وشمالا .

(١٥) المسجد المسبوك الورقة ١٧٨ . والحوادث الجامعة ص ٢٥١ .

(١٦) خلاصة الذهب ص ٢١٣ و ص ٢١٤ .

(١٧) الحوادث الجامعة ص ٤٤ .

(١٨) المسجد المسبوك الورقة ١٦٢ .

(١٩) المسجد المسبوك الورقة ١٥١ .

(٢٠) الطبق : ما يقدم في دور الضيافة من طعام . وكان الخليفة المستنصر قد استخرج له نهرا من دجيل ووقفه على آدر المضيف التي أنشأها في محال بغداد لفطور الفقراء في شهر رمضان . راجع مراصد الاطلاع ج٢ : ص ٤٧٢ طبعة بريل .

(٢١) الحوادث ص ٩٣ ، ٥٠ .

(٢٢) الحوادث ص ٩٦ .

(٢٣) الحوادث ص ١٠٤ .

(٢٤) الحوادث ص ١٤٣ .

(٢٥) الحوادث ص ١٦٤ .

(٢٦) الحوادث ص ١٦٤ والجامعان الاخيران هما من جوامع الجانب الغربي . راجع المسجد المسبوك الورقة ١٧٥ .

(٢٧) المسجد المسبوك . الورقة ١٥٢ والحوادث الجامعة ص ٨١ .

(٢٨) الحوادث الجامعة ص ١٠٤ ، ١٣٢ ، ١٦٧ والسناجق : رايات صغر صغار . راجع صبح الاعشى ج ٤ ص ٨ .

(٢٩) المسجد المسبوك الورقة ١٨٠ . والدرباشات : مفردها درباشـة وتستعمل في العراق اليوم بمعنى صفاح من الحديد كالقضبان .

(٣٠) المسجد المسبوك الورقة ١٧٢ .

(٣١) الورقة ١٨٤ .

(٣٢) الحوادث ص ١٧ .

(٣٣) ص ١٨٠ .

(٣٤) المسجد المسبوك الورقة ١٦٩ ، ١٧٢ .

(٣٥) التلخيص ج٤ ص ٦٩٦ والحوادث الجامعة ص ١٧ .

(٣٦) التلخيص ج٤ ص ٦٩٦ .

(٣٧) الحوادث ١٦٨ ، ١٠٠ ، ١٢٨ .

والزعيم كمتصرف اللواء في العراق اليوم .

(٣٨) الحوادث ١٤٢ ، ١٥٠ .

(٣٩) الحوادث ١١٣ ، ١٣٢ ، ١٧٤ .

(٤٠) المسجد المسبوك . الورقة ١٨١ والحوادث ص ١٦٦ .

(٤١) المسجد المسبوك . الورقة ١٩٢ والحوادث ص ١٦٧ .

(٤٢) الحوادث ص ١٦٨ · وقد رسم الاسم في الحوادث الجامعة « الذكر » ج ٤ ص ١٠٠٤ ·
(٤٣) الحوادث ص ١٦٨ ·
(٤٤) الحوادث ص ١٦٩ · وقد تكتب بالياء الموحدة ·
(٤٥) المسجد المسبوك · الورقة ١٧١ والحوادث ص ٤٥ ·
(٤٦) الحوادث ص ٥٠ ، ٤٥ ·
(٤٧) الحوادث ص ١٣٢ ·
(٤٨) المسجد المسبوك · الورقة ١٧١ والحوادث ص ١٦٧ ، ٥٣ ·
(٤٩) الحوادث ص ٦٠ والتلخيص ٤ : ١٠٠٤ ·
(٥٠) الحوادث ص ٩٢ ·
(٥١) الحوادث ص ٩٢ · والآخور : الاصطبل أو المعلف · وأمير الاصطبل : يكون دونه عدد من الافراد والجنود · وهو كبير الجماعة الذين يتولون علف الدواب ، وأمر ما فيه من الخيل والابل وغيرها مما يعود أمره الى الاصطبلات (راجع صبح الاعشى ٤ : ١٩ و ٥ : ٤٦٠ ـ ٤٦١) ·
(٥٢) الحوادث ص ١٦٨ ·
(٥٣) الحوادث ص ١١٠ ·
(٥٤) المسجد المسبوك · الورقة ١٥٨ والحوادث ص ١٠٤ ، ١١٠ ·
(٥٥) الحوادث ص ٤٤ ، ١١١ ·
(٥٦) الحوادث ص ٢١ ، ٧٢ ·
(٥٧) الحوادث ص ١٤ ·
(٥٨) المسجد المسبوك · الورقة ١٥٢ ـ ١٥٣ و ١٩٢ والحوادث ص ٧٢ ·
(٥٩) الحوادث ص ١٣٨ ·
(٦٠) الحوادث ص ٣٢٨ ·
(٦١) المسجد المسبوك · الورقة ١٦١ والحوادث ص ١١١ ، ١٨١ ·
(٦٢) الحوادث ص ٢٩٩ ـ ٣٠٠ و ص ٢٨ ·
(٦٣) المسجد المسبوك · الورقة ١٩٠ والحوادث ص ٣٢٠ التلخيص ٣٥٧ ·
(٦٤) الحوادث ص ٢٨ ·
(٦٥) المسجد المسبوك · الورقة ١٨٠ ·
(٦٦) المسجد المسبوك · الورقة ١٨٠ ·
(٦٧) راجع ترجمة صفي الدين الارموي في كتابنا « تاريخ علماء المستنصرية » ·
(٦٨) خلاصة الذهب ص ٢١٥ ·
(٦٩) لاحظ ذلك في الصفحات الآتية : ١٩٧ ، ٢٧٨ ، ٣٠٤ ، ٣١٧ ، ٣٦٦ ، ٤٠٣ ، ٤٢٣ ، ٤٣٠ ، ٤٥٦ ، من كتاب الحوادث · والورقة ١٧٨ من المسجد المسبوك عن الصارين · وعن المستعصم · الورقة : ١٩١ ·
(٧٠) الاعلام باعلام بيت الله الحرام ص ١٨٠ الطبعة الاوربية ·
(٧١) المسجد المسبوك · الورقة ١٩٠ لاحظ القصيدة التي يوردها ابن وهاس في الورقة ١٩٠ ومؤلف الحوادث ص ٣٢١ وقد حذر فيها منشدها وأنذر · ومطلعها :

يا سائلي والمحض الخير يرتاد   اصبغ لمنطق نشدان والنشاد

التاريخ والأدب العربي

عباس العزاوي

التاريخ حوادث الامة والافراد مجموعة او مفردة او وقائع العالم ومجمل حوادثه او بيان بعض الاشخاص او ما الى ذلك من بلدان وغيرها . وتؤدي معرفته الى أمر جليل هو ادراك نفسية القطر أو الامة او العالم أو الشخص . وتظهر عظمته في صحة وقائعه ، وصدق تدويناته ، ومقدار العلاقة به وان يثبت واقع حاله فيحصل الوثوق بدرجة العناية به ويحقق اهميته الاستطلاع ، والاستنتاج الصحيح دوما . وفي الحديث (رب حامل فقه الى من هو افقه منه) ما يدل على أن الآراء تتفاوت في الاخذ ، والانتفاع من الحوادث .

وفي هذه الحالة ابدعت الامة العربية في تواريخها ببيان وقائعها وهي وقائع نفسية ومادية وثقافية ، راعت البساطة طورا ولحظت ما وقع فابدته بوضوح ، أو بصنعة ادبية .

والضرورة تدعو ان لا نضيع حوادثنا ، وان تأتينا خالصة صحيحة ، لا يشوبها ارتياب او اشتباه ليكون استنتاجنا حقا . والا فان ذكر الحوادث بزعم انها مشرفة واهمال الاخرى بدافع آخر لا يخلو من افتئات وتقول . فالامة تريد ان تعرف ما جرى ، وتقرر ما يدعو للمعرفة الحقة والا فلم تكن تلك الحوادث المبتورة والموجهة نحو رغبة خاصة تاريخا ، وجل ما يقال فيها انها نتيجة عقول مدخولة ، وآراء ملتوية ، تريد أن تسير الفكر العام حسب اهوائها بايهام الوقائع ، أو تحويرها ، واغفال بعضها ، في حين ان الحقيقة مهما كانت قاسية ومرة فان الاستفادة منها أكبر واجل .

والانسان يسترشد بما وقع مهما كان نوعه . والادب يقصد به الصنعة في احكام اللفظ وتصوير المطالب والاغراض بابلغ اسلوب . فان سمو المعنى يدعو الى العناية الزائدة في سمو اللفظ . والامثلة على هذا لا تحصى ، نرى بعضهم يستنطق في امور شاسعا لمحض اظهار القدرة في البيان وابداء المهارة والتصوير وارضاء السامع .

كثيرون تغرهم الظواهر في الادب وما يورده الادباء من حكايات ربما لا يكون لها اصل ويقصد منها اثارة العاطفة واظهار التعجب ، وتحريك المشاعر ، واستفزازها . لما رأوا من بلاغة ، وما شاهدوا من بيان وكلام فصيح فنراه يسحر في القول ، كما جاء في الآية الكريمة (وان يقولوا تسمع

لقولهم (١)) فلا تعد هذه من (اسناد التاريخ) ولا تعتبر من الوثائق المعول عليها ، أو النصوص المعتبرة ، وان نقلها من الادباء لا يكسبها قوة ، ولا يجعلها واجبة الاخذ ، أو مستلزمة القبول ٠

وهذه من نوع (المقامات) في استظهارها ، و (الشعر الغزلي) أو (الحماسي) في حفظه تجتذب القلوب وتهش له وتبش وتطرب النفوس لسماعه ، والغاية منها ان تتمكن اللغة الادبية في ذهن السامع ليكون في حالة يستطيع بها التصرف في البلاغة والفصاحة وضروب التعبير عن المراد ٠

ولا يقصد بهذه (الرواية التاريخية) الامر الذي لا علاقة له بصحة الوقعة بحيث تكون امرا لا محيص من قبوله ٠ ولعل كتابنا يرعون أمر هذه لاشاعة الغرور ، والابهة ، وانها منسوبة الى القدماء ، ومدونة في آثارهم الادبية ، تكسبها قوة العبارة ، وحسن الديباجة بما يدعو للقبول والاخذ بها اعتقادا بانها من الحقائق لا ريب فيها ، ولا يمتري في صحتها ٠

ولم تر في هذه الآثار استغلال البلاغة في الذم ، أو الاطراء ، والاغراق في المدح أو اظهار النزعات الاخرى المعادية ، ولم يلاحظ الامر الواقع بان يفسر الوضع بما هو معروف ٠

اننا نسمع عن الخلفاء وتسائهم اعمال البر والتقوى والعمل لصالح الامة ولاعلاء شأن الاسلام في تأسيس المعاهد الخيرية الى غير ذلك ، فترجيح القول بامثال ما ينقل الادباء ليطربوا السامع ، ويستهووه في الترف والبذخ غير صحيح وانما المرجح طريق الصلاح والتقوى وهذا أمر يؤيده الواقع بل الادلة كثيرة في استخدام الشعراء ووصفهم للغلمان تارة ، وللنساء اخرى ، وللخمرة مرة ، ولغيرها مما يجري في المجالس ، فلا يتجاوز حدود المداعبة ، ولا يخرج عن الاحماض واللهو ٠

كل هذه لا تشكل دليلا ان نعتبرها (تاريخا) او من مصادره ، وان يعد هذه عن النصوص المعتبرة لا يكون تأييدا للدعوى ، ودعما للحجة ، كما يتوهم الادباء ، فاذا كان الخليفة هرون الرشيد يحج سنة ، ويغزو اخرى ، او أن همه القضاء على عائلة البرامكة ، وينذر النذر على انه يحج ماشيا الى بيت الله الحرام اذا تم له القضاء على البرامكة ٠ فمثل هذه تنافي القول بانه مغرم بالاغاني والغواني ، وبالملذات فينام عن (ادارة الملك) وكان الاولى به ان يسلم أمره لمثل البرامكة كما فعل من قبله ٠ او يغفل ما قام به بان تغلب عليهم المتغلبون فلم يجدوا وقتا للنظر في أمر الادارة ، الهتهم عن كل عمل مقبول ، فاهملوا التأهبات لاسترداد القوة وقطع دابر النفوذ ٠

كل هذه امثلة ناطقة بالعمل الخيري ، وبالصلاح ، والالتفات الى ادارة الملك والاهتمام بشأنه ، فلا يستطيعون حينئذ الا ان يجعلوا للهو جانبا لا يضيع ولمدة قصيرة تجري فيها الشقاشق ، والامور المضحكة ، او الشعر اللطيف الذي يبهر السامع ، فيؤدي الى العطاء والانعام على الشاعر ، ولا يخرج ذلك عن لهو محدود واطلاع على حالات اخرى ، ثم يعودون الى المهمات

والواجبات . والمتقدمون لم يدروا ان البذخ ناجم عن غنى وانه من الأمر الحلال ، ولم يكن استخدام الجواري والمماليك الا أمرا معتادا آنئذ لا يخل بشرف الا ان الانصراف اليها بلا فاصل وبتهالك ، وترك الاهم من عظائم الامور هو المخل المزري المضيع لكل ادارة صالحة ، واهمال أمر هو أولى بالاخذ والاعتبار .

هذا شأن (كتب الادب) وتختلف في نصوصها وصحتها عن التاريخ ، فان نصوصه مقطوع بها وموثوقة بحيث لا يتوجه عليها النقد الا من طريقها والنصوص الادبية مثل هذه موضوعها القدرة الادبية ، ومراعاة موازينها وحسن بيانها ، ومن الغلط اعتبارها وثائق معتبرة لا تقبل المناقشة ، فهي لا تقوى على (نقد علمي) أو (نقد تاريخي) ، والعرب لم يفلتوا نوادر الادب من ايديهم في الشعر والنثر ولا يهمهم ان يكون الموضوع خلفاء أو سوقة ، ليجذب السامع ، ويسترعي انتباهه الى صنعة أدبية . ولعل بذخ الخلفاء أو الامراء في امور مسوغة شرعا لا يخل بالادب ولا يدع المرء يقطع بما نقل الادباء ولا ينكر في هذه الحالة ما يشيع المغرضون من أمر النزعات او النزغات واتخاذها وسيلة ، أو سببا جائرا للتنديد بالخلفاء ، وتوجيه اللائمة عليهم من هذه الناحية . وقد قيل (الغرض مرض) .

و يهمنا التوسع في أمر التزويقات لاظهار الصنعة الادبية في التاريخ ، فان مقابلة النصوص تكشف عن حقيقة الوقائع وهذا ما رأيناه في كتاب عجائب المقدور في اخبار تيمور فان سجعه من جهة وتحامله الشخصي من اخرى لم يمنع قبول نصوصه ، لا سيما وقد تأيدت صحتها من تواريخ اخرى ، فالتحامل الشخصي غير الكذب . وهكذا يقال في كتب الفرق والردود وما ماثل فانها لا ينظر اليها الا من طريق صحة النصوص لا من طريق التنديد . وكذا السجع لا يقتضي اهمال النصوص التاريخية كما تقدم . واما كتب الادب فلا ينظر اليها كتاريخ بل ان هذا يحتاج الى تمحيص اتباعا للآية الجليلة (يا ايها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا (١)) والفسقة لا يعتمد قولهم ، وانما يتحقق صحة النقل بأمور فلا يقبل لمجرد انه دون في (كتاب أدب) يراد به من أن تعرف بسببه (القيمة الادبية) وصنعة البيان ، سواء كان في نسبة السفه الى الخلفاء او تحبيذ خمر ، أو تسهيل منكر . فلا تضيع الاتجاه الحق .

وليسم هذا (جمودا) او مهما سمي . ولا نقول ان السفهاء يريدون ان يتكلموا كما شاءوا دون وازع او قاهر ، فذلك لا يهمنا . نريد صحة الوقعة لنقتبس منها العبرة والفائدة التاريخية ، والا قبلنا كل قول من كل مستهتر ، ولم نتبين الارشاد في الآية المذكورة (فتبينوا) وفي قوله تعالى (افمن يمشي مكبا على وجهه اهدى ام من يمشي سويا على صراط مستقيم(٢)) .

هذه نصوصنا التاريخية وليس منها (النصوص الادبية) فلا محل لهذه من (التحقيق التاريخي) او مراعاة ما هنالك من أوضاع تدعو للالتفات ،

وتؤيد الغرض الحق • ولا نهمل الصواب في سلوك من ارتضيناهم وقاموا بما يدعو للالتفات في توطيد العدل وحراسة الوطن وحبه والتهالك في سبيل حفظه ونصرته ان (كتب الادب) لا تصلح مرجعا تاريخيا من جراء ان هدف الاديب البيان ولا يهمه الموضوع وصحة نقله وانما يرى الحاجة في التزويق وتزيين الالفاظ واظهار القول بابهى اشكاله ، واصبح الوانه ، واعظم أوصافه وفي التاريخ يشترط أن يتبين صحة القول بنقل صحيح ، وبيان واضح ، فلا تدخله الزينة وانما تعبر عن المرام بقدر المعنى فلكل مقام مقال ، او مراعاة مقتضى الحال • ومن هنا يتصل التاريخ بالادب من اناس لا يرتاب في صحة كلامهم واذا كان الكلام أدبيا لا شائبة فيه فنعم المطلوب ، واذا كان يشتبه فيه أو في أي أمر من أمور الاديب فهذا يحتاج الى تحقيق • وبعض المعاصرين يريدون ان يتصرفوا في النصوص وان يخرجوا عن الحق ليكتبوا قصة ، او يقصوا حكاية • ولا يهمهم التغيير والتبديل أو يدعوهم الالتفات الى حقيقة النقل وماهية القول •

والادب نزعة روحية ، وتارة يكون مقرونا بالتاريخ فينفذ الى اقصى حدود الدقة في الوصف ، فاذا كان لا يتجاوز الواقع وهو المطلوب ، فلا يخلو من بيان ما يجب من تصوير المكان والزمان مقرونين بما يوضح العلاقة ، لا ان يغلو ، أو يغرق • والا خرج عن كونه تاريخا • فاذا نظرنا الى كتاب النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس لابن دحية الكلبي(٤) أو الى عجائب المقدور لابن عربشاه فنلمس الحقيقة وان كانت مكسوة ببلاغة وسجع •

سبق لنا نقد (تاريخ دول الاعيان في شرح قصيدة نظم الجمان) في ذكر من سلف من اهل الزمان (تاريخ ابن ابي عذيبة) المخطوط في خزانتي (٥) في ركونه الى كتب الادب وتعويله عليها • وهذا صحيح في تاريخ الادب وآثاره ورجاله وتطوره في اساليبه ، وأصول بيانه فيكون من هذه الناحية (تاريخ ادب) لا تاريخا مقتبسا من الادب وهذا حكمه في الخروج عن دائرة التاريخ المقصود ، ويدخل في تاريخ الآداب • نقلنا ما استطعنا نقله وقد بينا اتجاه اكثر علمائنا بان كتب الادب لا تصلح ان تكون مصدرا من مصادر التاريخ • وهل الادباء من الغربيين او مؤرخيهم يميلون هذا الميل او يعولون على كتب الادب باعتبار انها مرجع من مراجع التاريخ ؟• ذلك مالا يقول به احد بل يفرقون بين من يكتب رواية او يقص حادثا ، وبين من ينظم شعرا او يتكلم في حياة شخص الا ان تطور التاريخ اكسبه عندهم العمومية كما وقع عندنا ايضا وان المناهج التاريخية تظهر في مخلدات الأمم كمـا تبدو للناظر في تواريخنا فنرى المرء مقيـدا في التاريخ ونصوصه فلا يستطيع ان يتجاوز حدود النقل الا ان توالي المناهج ، واستعراض الحياة لامم عديدة في وقائعها السياسية ، والعلمية والادبية ، والاجتماعية مما يبصر كثيرا ويجعل للتاريخ مكانته ، وهكذا فعل مؤرخونا واستكثروا من الحوادث ، ومالوا الى هذه الاتصالات فعاد التاريخ عاما ،

وان بعض أجزائه يمثل وضعا من أوضاعه .

واللغة أو اللسان الادبي يفيده وضوحا ، ولكن لا يكون الادب مستقى له ، أو معينا يغترف منه . وجل ما علمناه ان التاريخ ضروبه عديدة ، وكل التفاتة الى ناحية دعت الى لزوم التدوين فيها ، فيظهر النقص في صفحات عديدة ، او يكسوها ثوبا لا يتجاوز به عن الحقيقة وان يؤدي ما سمع او علم بصحة ووثوق .

والموضوع الادبي من قصة او قصيدة لا يتقيد صاحبه بقيد وانما يطلق الحرية للقلم فيصور ما اراد . والتاريخ لم يكن كذلك فانه يدعو للالتفات كثيرا ، ويستدعي النظر في المطالب ولا يتجاوز المنقول او المسموع . ويصح ان يقتبس الاديب من التاريخ ، ولكنه لا يستطيع ان يكون مؤرخا .

ولا شك في ان المؤرخ يستخدم الادب كآلة بيان ، وحاجته الى حسن ادارتها أمر لابد منه حذران تطغي أو ان تنال الجموح ، فتخرج عن حدود النقل المرسوم للمؤرخ . وكم من مؤرخ تدهور في هذه السبيل حيث اغرق في الوجهة الادبية ، فاضاع روح التاريخ كما هو الشأن في العتبي ، والعماد الكاتب الاصبهاني وابن شداد ، وابن حبيب ولم يجعل هؤلاء الادب من مصادر التاريخ الا انهم توغلوا فيه .

هذا والامل ان ينال التدقيق مكانه ويصح ان يدخل الادب في التاريخ لزيادة البيان أو الاستفادة منه باسلوب فائق .

يعجبنا القول الجميل والشعر اللطيف المحكم ، ولا نرغب الا في اسلوبه ، ولطف بيانه . واما التاريخ فهو محل النظر والاديب لا يؤخذ عنه التاريخ ، وان برع في الموضوع ، أو أتقن الصنعة الادبية وامكنه التصوير لغاية ما يمكن أو يستطاع منه . ويحق للمؤرخ بعد أن يتسلح بالادب الكامل ان يكتب التاريخ كما وقع بافادة سهلة وبيان مستقيم وعبارة مقبولة .

●

تقتضي اعمال التحرير الاتصالات المستمرة بين المجلة وكتابها .
يرجى تفضل الاساتذة الكتاب تثبيت عناوينهم كاملة واماكن اعمالهم وتلفوناتهم — ان وجدت — على ما يرسلونه الى المجلة مع الشكر .

التحرير

معالم الثورة الاولى في أدب العقاد

غالي شكري

ربما كانت الثورة الاولى للعقاد ، هي التي كانت تدفعه بين الحين والآخر الى التطرف ان لم يكن الشطط في « لغة الهجوم » التي استخدمها مع شوقي . بل لعل هذا الاندفاع في استخدام هذه اللغة كان يؤدي به الى تجاهل بعض العناصر المهمة في ميزانه النقدي البالغ الصرامة والتحديد . فعندما يحاول شوقي أن يرثي عثمان غالب بقوله ان مملكة « النبات » ضجت لمصرعه ، وأن الزهر في أكمامه « يبكي » الفقيد الراحل ، الى آخر هذه التشبيهات التي تفيد بلا جدال مشاركة الطبيعة في اليوم الحزين ، يلتقط العقاد هذه الفكرة للتندر بما تصوغه من افتعال الحزن فيما يرى . لان تفصيل حلة من احزان الطبيعة على واحد من البشر ، انما هي تعنت وعسف من المخيلة الشعرية الفقيرة في ارتجال الرثاء . وليس من شك في أن شوقي قد اخفق تماما في اسقاط العناصر الذاتية على العناصر الموضوعية كاخفاقه في صياغة المأثورات الشعبية ، ولكن هذا الاخفاق كان مقصورا على زاويتين هما « التطبيق الشعري » وحرارة « الانفعال » بالتجربة . فمحاولة المطابقة بين التجربة الشخصية وصياغتها الموضوعية في معطيات حسية مباشرة ، كانت تفلت عند شوقي من بين يدي التوفيق . كذلك يبدو ان قصائد « المناسبات » لم تستحوذ على انفعاله وان استحوذت على اهتمامه . فجاءت الصورة العقلية للقصيدة مفروضة من أعلى قمة باردة في المخ ، خالية من أي وهج لحرارة الشعور . غير أن العقاد لم يعالج القضية من هذا المستوى بل استطرد في محاكاة الشاعر ساخرا من قصوره الفني بغير استناد على حجج منطقية بل ربما بلغ به الحماس ان يصيب نفسه بالحجارة التي قذف بها شوقي حين يتصور الخيال الشعري موقوفا على مقاييس العقل وصوره الذهنية . لذلك وقع فريسة سهلة للتناقض بين قوله النظري « ان الحياة هي التي تنشيء الشعور » ومن يجهل الفرق بين التفكير والاحساس ، حرى به أن يجهل « الفرق بين مقام السخرية ومقام التعزية » وبين اصطياده لتشبيهات الزهر الباكي والنبات الحزين ، على أنها قفشات لشاعر « يخرف » !

وعلى غير هذا النحو جاء تحليله لقصيدة شوقي في استقبال الوفد ، فقد بدأ حديثه عنها بمصادرة تقول أنها نكسة أدبرت بقائلها ثمانية قرون ،

وكان فيها مقلدا للمقلدين في استهلاله وغزله ومعانيه . وقدم العقاد لهذا التحليل بما يشبه المانفست للشعر المصري الحديث ، فقال ان المطلوب من الشاعر المصري الحديث ، ان يكون شاعرا ومصريا وحديثا ، أي أن يعرف « كيف يكون التعبير عن النفس المصرية » ، وأن يعرف « المعاني والمثل العليا والخيالات التي اذا نطق بها الشاعر وجد في مصر من يمنحه تلك الاوصاف المستحيلة ، وان يستوضح من ذلك كله مبلغ ما تنطوي عليه نهضة البلد من اليقظة الروحية والتقدم الاجتماعي » .

ان العقاد بهذه الكلمات انما يرسي تقاليد النقد « المصري » للشعر ، وهو في ذلك أحد رسل الدعوة الى الفكرة « المصرية » التي عرفت طريقها الى الوجدان الثوري في بلادنا منذ بداية القرن العشرين وارهاصات ثورة ١٩١٩ الى ان تبلورت نهائيا في كتابات جيل الرواد الثوريين ، طه حسين والعقاد وسلامه موسى وهيكل . وعلى الرغم من أن العقاد عالج الفكرة المصرية في مختلف مستوياتها السياسية والاجتماعية والادبية ، الا أن مستواها الاكثر عمقا اتضحت أبعاده الحقيقية في النقد الادبي . اذ كانت المهمة الاولى أمام « النقد المصري » هو تحديد ملامح الشخصية المصرية في الفن ، وتغليب الروح المصرية في عملية الخلق . أي أن « المصرية » هنا لم تكن مجرد التناقض الحاد بين « الوطنية » و « الاستعمار الاجنبي » ، أو بين الوطنية والهيمنة العثمانية . كلا ، ان أمثال هذه التناقضات لم تشكل سوى المظهر الخارجي للفكرة المصرية في المستوى السياسي . كذلك لم تكن الدعوة المصرية مجرد الرغبة في ايجاد مجتمع متحرر من ربقة المركبات والعقد النفسية التي تولدت خلال اجيال طويلة من الذل والعبودية .. فان أمثال هذه الرغبة لم تجسد سوى المظهر الخارجي للفكرة المصرية في مستواها الاجتماعي . وكذلك لم تكن « مصر للمصريين» شعارا اقتصاديا مقصورا على الدعوة الى تمصير الشركات الاجنبية ، وانشاء بنك مصر ، فليس هذا الشعار الا تحديدا للفكرة المصرية فيمستواها الاقتصادي .

كانت أمام العقاد وطه حسين وسلامه موسى وهيكل ، وبقية أبناء الجيل الرائد للفكرة المصرية ، مهام أخرى أكثر غورا وعمقا في وجداننا الروحي ، كانت أمامهم الفكرة المصرية في مستواها الروحي ، عليهم أن يخلقوها ، ويجسموها ، ابداعا جماليا خالصا .. فاذا اتجه سلامه نحو « الحضارة » ، واتجه طه نحو « المنهج » واتجه هيكل نحو « الفن الروائي»، واتجه سليم حسن نحو «التاريخ» .. فان العقاد اتجه مباشرة الى النقد الادبي في أكثر مجالاته حساسية وتعقيدا وهو الشعر . فلا شك أن البحث الحضاري والمنهج الحديث والرواية الرومانسية والتاريخ ، كلها أدوات ضرورية في استلهام الفكرة المصرية من باطنها الروحي الاصيل ، ولكن النقد الادبي اذا عالج فنا كالشعر ، يستلهم تراثا عربيا عريقا ، فان

المسألة تصبح أقل سهولة ويسرا • فاذا تصدى هذا النقد لقمة المرحلة الكلاسيكية التي تستمد أهميتها من محاكاة القديم واجترار قيمه ، فان المسألة تصبح أكثر صعوبة ومشقة •

لذلك اقول ان العقاد بلغ في معاناته للرسالة التي قام بها وهو بصدد شعر شوقي ، درجة عالية من صلابة الايمان ، والوعي العميق الحر • كان مؤمنا صلبا بالشعب المصري كخامة اساسية تقوم عليها الفكرة المصرية • ان روح هذا الشعب كامنة في الارض ، والكادحين من ابنائها ، كامنة في ذلك الفلاح الذي تترسب في كيانه آلاف السنين من الحضارة • ومن هنا كانت المظاهر الخارجية للفكرة المصرية في مستواها السياسي والاقتصادي والاجتماعي مجرد قشرة خارجية سرعان ما تتهاوى لتفسح المجال واسعا امام زعماء هذه المظاهر ، الى طريق الخيانة • فليس الاستقلال الشكلي ، ولا بناء الشركات المصرية ، بعاصم الذين يقفون عند هذه الحدود من التردي في هوة الخيانة للفكرة المصرية • فما أسرع ما تتناقض مصالح الاغلبية الساحقة من الشعب الكادح ، مع زعماء هذا الاستقلال وبناة هذه الشركات • فالاولى اذن أن نبحث عن « الروح » التي تستمد قيمتها من « الجوهر » الكامن في شخصية « مصر » • ولم يكن هذا الجوهر سوى الشعب في واقع حياته اليومية وما تخفى من أصالة الجذور •

آمن العقاد اذن بالشعب المصري ، وكان على وعي عميق بأن الكلاسيكية الشعرية في مصر ، تتناقض شكلا ومضمونا مع حياة المصريين وحضارتهم • كان واعيا أمينا ، بأن الكلاسيكية الشعرية في بلادنا لا تقوم بذلك الدور الباهر الذي قامت به الكلاسيكية ابان عصر النهضة الاوروبية • كان يعي أن معنى النهضة عندنا يختلف عن معنى النهضة في أوروبا ، كان يبحث عن « المسار الخاص » للادب المصري الحديث •

من هذه الزاوية على وجه التحديد نتعرف على معالم الثورة الاولى في حياة العقاد النقدية • الثورة التي كانت تشتط به أحيانا وتتطرف ، ولكنها في النهاية كانت ترسي تقاليد النقد « المصري » الحديث • وأولى هذه التقاليد هو مدى القرب أو البعد من الروح المصرية في هذا الشعر أو ذاك • لم يغفل العقاد الدور الهائل الذي يقوم به التراث لا شعوريا في تكوين الشاعر المصري — ولكنه أضاف ان هذا الدور من الممكن أن يتحول الى حركة ايجابية تزيد من قرب الشاعر نحو الاصالة ، كما انه من الممكن ان يتحول الى صخرة ضخمة تعوق حركة السير الى أمام • التراث العربي قادر على أن يكسب الشاعر المصري السمات « الانسانية » التي يشترك فيها الشعر الانساني جميعا • ولان هذا التراث قريب منا غاية القرب ، فانه قادر أكثر من غيره على أمدادنا بالوهج الانساني الصادق ، وحرارة التجربة المعاشة ، والانفعال الامين • غير ان هذه القدرة من طرف واحد لا قيمة لها • ولابد من أن يكون الطرف الآخر — الشاعر المصري المعاصر — على استعداد كامل لان يستلهم

هذا الجانب فقط من التراث العربي القديم • وهو استعداد لا يتأتى الا للشاعر الكبير الموهبة والعميق الاصالة • أما الشاعر الصغير العاجز ، فهو الذي يضعف أمام شكليات التراث من تراكيب ومضامين ولغويات • هنا تصبح الكلاسيكية جريمة ضد روح مصر • ولعل هذه هي نقطة الابتداء الاولى في التناقض الحاد بين نقد العقاد وشعر شوقي • جاء العقاد مسلحا بهذه الروح — الروح المصرية — وكان شوقي مجردا من هذا السلاح الروحي الخطير ، فلم تكن المشكلة مجرد جزئيات رديئة هنا أو هناك ، في الوزن أو الخيال او ادوات التعبير •• ان مناقشة هذه الجزئيات جرت قلم العقاد الى الشطط في أحيان كثيرة • أما المشكلة الكبرى فكانت افتقاد شعر شوقي للروح المصرية ، وبالتالي افتقاده الروح عموما • فنحن اذا جاوزنا شطط العقاد في التقاط الهنات الجزئية ، سوف نعثر عند شوقي على « ديباجة » عربية شامخة ندر بين معاصريه من استطاع محاكاتها • كان شوقي يملك طاقة تراثية هائلة استدرجت العقاد الى أكثر جوانبه سلبا ، وهو محاولة محاكاتها ساخرا منها •• غير أن هذه الطاقة لم تحصل من التراث على وجهه الانساني الرحيب ، بل استلهمت هياكل عظمية ميتة • ومن جديد أقول اننا اذا تجاوزنا شطط العقاد من ناحية ، وطاقة شوقي التراثية من ناحية أخرى ، فاننا سوف نعثر على القوسين الكبيرين اللذين يحوطان غياب الروح المصرية ، والروح عموما ، من هذا الشعر • القوس الاول هو الظروف الموضوعية ، والقوس الآخر هو العوامل الذاتية • وقبل أن نجوس فيما بين القوسين الكبيرين ، علينا أن نتلمس خطوات العقاد مع أقدام شوقي وايقاعاته عند نهاية الجزء الاول من (الديوان في النقد والادب) حين استهدف الشاعر أن يكتب الشعر ويستقبل الوفد في آن •

منذ البداية لست أوافق العقاد على ذلك المنهج التعبيري في النقد الذى كان يجنح به من حيث الشكل الى السخرية ، ومن حيث الموضوع الى اتهام شوقي باللاشاعرية • هذا المنهج الذى يقوم على عدة حركات أقرب الى المزاح والمداعبة ، كان يترجم أبيات شوقي الى قالب النثر حتى يدلل على افتعال شاعريتها واقتصارها على النظم فحسب • فلعل الطريق السليم الى اثبات « النثرية » في الشعر لا يتأتى من باب « الشكل » التركيبي للكلمات ، برصفها جنبا الى جنب ، أو باصطناع المتوازيات والمتقابلات بين صفوفها المتساوية الاشطر والتفاعيل • فليس صحيحا ان شوقي أراد ان يقول « تحول بقلبك عن الطريق ، وانج من جماعة الظباء السائرة في الرمل » حين استهل قصيدته بقوله :

اثن عنان القلب واسلم به	من ربرب الرمل ومن سربه

ان اقتناص الاحرف والكلمات هنا في مستواها اللفظي ، واعادة رصفها في قوالب النثر ، ليس منهجا صحيحا للتدليل على فقدان الشعر في قصيدة

شوقي • فكأن الناقد هنا لا يرى سوى المعاني المعجمية للالفاظ ، ويسقط بالتالي في مهاوي الشكلية • ثمة أدوات نقدية رشيدة يعرفها العقاد جيـدا لانه علمنا اياها على مر السنين ، هي المعيار الحقيقي لشاعرية الشاعر أو زيفه وافتعاله • أما الانسياق وراء عاطفة الغضب الى الطرف الاقصى من الانفعال الذاتي ، فانـه يـؤدي بالناقـد الى هجران شـاطيء الموضوعية ، والتماس «الالاعيب» الشخصية كترجمة الشعر الى نثر ، أو صياغة الرأي النقدي في قوالب الحكايات الفكاهية والنوادر ، أو التهكم على الشاعر باستحداث طرق أخرى لمنح شعره الحياة من جديد • ان هذه الامثلة من انحرافات النقد عند العقاد ، أفقدته الكثير من سمات موضوعيته الصارمة ، كما افقدته الكثير من تجاوب معاصريه وتعاطفهم • وليس التجاوب أو التعاطف ، عنصرا ذاتيا ، وانما قصدت به العنصر الوحيد لبلورة « حركة » أدبية موحدة ، تقف في الجانب الآخر لمعسكر الرجعية الادبية • لا ريب أنه كانت هناك « جبهة » من الكتاب المجددين ، ولـكن العشوائية والانفرادية ، واللاتخطيط ، حـال بين هذه الجبهة والنمو التقدمي المتعاظم في خط سيرها للامام • بل ان رد الفعل بالنسبة لشعر شوقي ، أن عثر من بين المجددين على من « يرد لـه الاعتبار » • حقا ، هذا لم يكن سوى « رد فعل » متضخم ومبالغ فيه الى درجة بعيدة ، ولكن أثره في جماهير القراء والكثرة الغالبة ، كان بالغ السوء •

أؤكد على هذه النقطة الخاصة بالانحرافات ، حتى أتجه مباشرة الى المضمون الحقيقي الثوري لنقد العقاد • كان هذا المضمون كما قلت هـو تشخيص الفكرة المصرية في مستوى الفن • لذلك يتجه العقاد مباشـرة في تقييمه لقصيدة شوقي في استقبال الوفد ، الى قضية الموروث من الحيـاة القديمة في الشعر المعاصر ، فيتساءل ما اذا كان الشرقيون ركبت قلوبهم «بحيث اذا أحب السلف العربي أتى الخلف المصري متغزلا بعد عدة قرون » • وهـو أمر مستحيل كما يقول العقاد • من هذه الفكرة التي ترفض « الانخـداع بالتكرار » وتخلع « ربقة التقليد » يكتشف العقاد التناقض الصارخ بـين استقبال شوقي للوفد وبين التركيب العربي القديم ، المعد سلفا لاستقبال الخليفة والحبيبة والكارثة في تقاليد التراث العريقة • من هذه الفكرة اللامعة، كان العقاد يكتشف كنزا نقديا باهرا هو المعيار الثمين القائل بان ثمة تناقضا غير قابل للحل السلمي بين الشاعرية والقـالبية ، أو بين الفطرة البدائية والرؤيا الحديثة من ناحية ، وبين الثبات والتقولب والمحدودية من الناحية الاخرى • بل ان الرؤيا الحديثة كثيرا ما تهرول الى الفطرة البدائية تنهل من عفويتها وبكارتها وبراءتها التي لا تخضع لاى تحديد مسبق ، أو شكل جاهز • من هذه النقطة ترتفع قامة العقاد السامقة في حقل النقد الشعري حينذاك ، ولكنها أيضا سوف تتعرض لتقييم مختلف في مقتبل الايـام • غاية مـا نستطيع أن نقوله الان ، هو أن هذه الفكرة اللامعة ، لم تختط لنفسها نظاما تفصيليا شاملا يحميها من التبديد والتدهور والضياع • لا شك أنها «مرحلة»

تفصيلية نابعة من المحاولة الريادية الاولى لايجاد نقد « مصري» ولكنها ظلت في حدود العام دون الخاص لا ترسخ في جوف أرض صلبة عميقة الاغوار ، متماسكة الجذور • وبينما نجد أن الموروث من الحياة القديمة ، لم يفـــد الشعر المعاصر ــ ممثلا في شوقي ــ فان هذا الموروث على وجهـــه الآخـــر ــ الانساني ــ قد أفاد العقاد الى أبعد مدى • لم يفد العقاد أية قيمـة فنية او فكرية من النقد أو الشعر في التراث العربي القديم ، فلعله أقرب الى القيم الاوربية في الادب ، مع التاكيد على جوهر الرسالة التى كان يقوم بها ، وهي ايجاد « نقد مصرى أصيل » يلعب دوره في نطاق الفكرة المصرية ضمن اطـار نهضتنا الحضارية الشاملة • ان ما أفاده العقاد من التراث هو المطابقة بـين الاشكال التراثية ، والاشكال الكلاسيكية في عصرنا ، وكيف أن كلاسيكيتنا ليست من عناصر « النهضة » كمثيلاتها في الغرب • هذا هو الاكتشاف الاول للعقاد ، كخطوة للتعرف على « مسارنا الخاص » في الادب ، عن طريق التراث ومعارضته محاكاته ، وعن طريق الغرب ورفض التبعية ، وضع العقاد لبنا رائعة في البناء الشامخ للنقد الحديث • هذه اللبنة تقول :

* انه لما تعود شعراء العرب على التكسب بشعرهم ، هجروا الصحراء الى الملوك والامراء ، يقدمون لهم المدائح في مقابل الذهب وكانت مدائحهم تبدأ بوصف المشاق التي عانوها في سبيل الوصول الى الممدوح تعظيما له واجلالا « فكان الابتداء بالغزل ووصف المطي في قصائد نظمت في المديح وما شاكله من أغراض حياتهم المتشابهة •• لا يعد من باب اللغو والتقليد » •

* ثم نشأت الصناعة فيمن نشأ بعد هؤلاء •• ومن عادة الصانع ان يحتاج الى النموذج والاستاذ ، فأقاموا من المتقدمين اساتذة واتخذوا طرائقهم نماذج لا يبدلون فيها •

* ونشأ من شعراء الحضر جيل كان أحدهم يقصد الامير في المدينة وأنه لعلى خطوات من داره ، فكأنما قدم عليه من تخوم الصين لكثرة مايذكره من الفلوات التي اجتازها ، وكان الواحد من هؤلاء يزج بغزله في مطلع كل قصيدة حتى في الكـوارث المدلهمة « هـــؤلاء المقلدون الجامدون » •

ان العقاد بذلك ، يعيد الاعتبار الى الشاعر العربي القديم عند الذين تطرفوا فاتهموه ظلما بانه السبب فيما ابتلى به شعرنا المعاصر • فقد كانت الاصالة تعيش في الماضي جنبا الى جنب مع التقليد والمحاكاة ، تماما كما هو حالها الآن • غير أن « الآن » هذه التي نعني بها عصر النهضة الادبية الحديثة في بلادنا عند بدايات القرن العشرين تختلف عن مراحل التاريخ القديم في أنها « نقطة تحول » يتعين علينا ازاءها مراجعة كل القيم التي انحدرت الينا من التاريخ القديم ، والتي ما تزال تنحدر الينا مع التاريخ المعاصر •

فالآن الحالية ليس لديها الوقت لان يتعايش في ظلها سلميا ، السلب والايجاب في التراث • الآنية المعاصرة تتطلب رفض « الغزل الرث الذي ليكت معانيه وأوصافه ولم يكن للنظامين والشعارين بضاعة غير ترجيعه منذ عشرة قرون » كما يقول العقاد • ثم يستطرد بصوت عال •• « تلك الكناسة الشعرية المنبوذة ، وهذه هي روح العصر فيما يحدسون » • اما نحن فنقول : وتلك هي المسألة الثانية التي يضيفها العقاد الى مسالة « القالبية » ، وأقصد بها «روح العصر » •• فاذا كان الجانب السلبي في اجترار الاشكال التراثية هو القالبية ، فان الجانب الاكثر سلبا هو اغتيال « روح العصر » في الشعر الذي تفترض معاصرته • وكما ان فكرة التناقض بين الشاعرية والقالبية هي احدى التفصيلات المتفرعة عن « تمصير الادب » أو الفكرة المصرية في الفن ، فان روح العصر هي الاخرى لا يقصد بهـــا العقاد آنذاك ما تقصده اليوم من التجريد والمطلق ، بل ان روح العصر عنده هي المرادف الشعوري والحضاري للروح المصرية • هذه الروح في المستوى الفني ، يعني افتقادها ان تتحول قصيدة استقبال الوفد الى « مقالة منظومة كسائر المقالات التي نشرتها الصحف يومئذ » كما قال العقاد • ان « روح العصر » بمثابة التعبير الجامع المحلي والوجه الانساني العام • لذلك يشترط العقاد في النشيد القومي ـ الذي فاز شوقي بجائزة اجود صياغة شعرية له ـ ألا يكون وعظا « بل حماسة ونخوة » وأن يلهج به لسان الشعب « وموافقا لكل زمان » •

ان العقاد من زاوية التكنيك النقدي ، يرتكب كثيرا من الاخطاء الجانبية ، كصياغة بعض آرائه في رداء الامثلة الشعبية والحواديث والقصص وترجمة الشعر الى نثر والنثر الى شعر ، الى غير ذلك من « الألاعيب » التي تهبط الى مستوى الهذر البعيد عن وقار النقد العلمي الحديث ، والذي يأخذ به العقاد ، أساسا ، ومن حيث الجوهر • ولكن تكنيك العقاد في ثورته النقدية الاولى يتسم بخاصتين رئيسيتين ، احداهما سلبية ، والاخرى ايجابية • الخاصة السلبية ، أنه لا يحيط برؤيته النقدية الظروف الموضوعية والعوامل الذاتية التي شاركت بصورة معقدة في صنع الظاهرة المطروحة للبحث ، وهي هنا ، شعر شوقي • العقاد يكتفي برصد الظاهرة وتحليلها والتدليل على صحة وجودها ، ولكنه لا يتجاوز هذه الخطوة الهامة الى الخطوة التي لا تقل عنها أهمية ، وهي مصادر الظاهرة وأسبابها من الخارج والداخل • ان الاستقصاء البطيء لهذه المصادر وتلك الاسباب ، كان جديرا بان يضع العقاد كلتا يديه على الاصول العميقة لفقدان « الروح » في شعر شوقي ، وفقدان همزة الوصل بين هذا الشعر وعصرنا • وفقدان مساهمة هـــذا الشعر في مرحلة النهضة التي كنا بصدد بشائرها الاولى • ولعل الظرف الموضوعي الاول في تعليل هذه الظاهرة يجمع بين جناحيه ، غير شوقي ،

محمود سامي البارودي رائد الكلاسيكية المصرية في الشعر ، وحافظ ابراهيم أكبر معاصري شوقي من شعراء المرحلة الكلاسيكية كلها . هذا الظـرف الموضوعي يقرر :

* ان الثقافة العربية فيما قبل أواسط القرن التاسع عشر ، كانت تعاني انحطاطا رهيبا يضع الشاعر ــ والمثقف عموما ــ في مأزق حرج ، بين الانضواء تحت راية التخلف الحضاري المرعب بتجميد كل قيمة حية في التراث ورفض أي وجه انساني له والتركيز على الحواشي والذيول والهوامش واثقالها بالمزيد من عيون الفقه اللغوي . أي بالتأكيد على الشكل دون « الحياة » .. وبين البحث عن المجهول في الثقافـات الاخرى لتطعيم التراث بزاد لا غنى عنه يشفع للعقول الجائعة الى المعرفة ، ان تعرض محصولها المخزون للشمس والهواء . وهو في هذه الحال يعرض نفسه لاقل بادرة يعلنها ، للاستشهاد العاجل .
* كذلك جاء الاستقطاب بين التراث العربي والحضارة الغربية منـذ الحملة الفرنسية على مصر الى الاحتـلال البريطاني ، تصنيفا حادا متعسفا للذين أرادوا صياغة الروح المصرية في اطار التقدم الحضاري أو في اطار الجمود المذهبي . بل ان هذا الاستقطاب الذي أحدثتـه فجوات التخلف بين الفرد والسلطة الدينية ، وبين الفرد والسلطة المدنية ، كان من نتائجه الاولى ، بلورة تناقض مفتعل بين التراث والحضارة الوافدة . واضحت الاصالة تعني التراث ، والزيف يعني التحضر الغربي .. ولقد ظهرت حينذاك محاولات ساذجة «للتوفيق» بين النقيضين ، تبدأ جهودها بالاعتراف الرسمي ، بأنهما نقيضان . ولم تظهر المحاولات الجادة لتبين العلاقة الجدلية العميقة بين التراث العربي والتراث « الانساني » الاشمل ، الا في مرحلة متأخرة نسبيا ، اذ أقبلت بعد الحرب العالمية الاولى .
* كانت الحياة السياسية في مصر تحت سلطان الانجليز والوالي التركي والعميل المصري ، تمزق كيان اية تجربة وطنية اصيلة في مجال العلوم الانسانية . لذلك كانت الشخصية المصرية في المستوى الحضـاري شخصية « غائبة » ، وفي المستوى الفني شخصية « ضائعة » . وكان الشاعر المصري ــ والمثقف عموما ــ امام احد اختيارين حاسمين : اما التمزق المتاح بين اطراف النزاع على اغتيال كياننا القومي في الثقافة ، او الانصياع المطلق للقوى السائدة . اما محاولة التجاوز والتخطي الى ما هو اكثر ارتباطا بالروح المصرية في رفضها للسلطات الرجعية الثلاث ، فكان شيئا قريبا من الاستشهاد ، اذا لم يكن ضربا من ضروب المستحيل .

هذه هي الخطوط العريضة للظروف المحيطة بعصر شوقي ، قبله

بقليل وبعده بقليل • غير انه اذا كان التكوين الذاتي المستقل للبارودي ، قد رماه في أحضان الثورة العرابية كواحد من قوادها العسكريين ، واذا كان التكوين الشخصي المستقل لحافظ قد رماه في احضان الشعب كواحد من ابنائه البؤساء ، فان التكوين الخاص لشوقي قد رماه بين احضان القصر الملكي كواحد من بنيه المخلصين • وتلك هي مأساة شوقي الاولى : ان تكوينه الذاتي لم يساعده على الثورة كالبارودي أو التمرد كحافظ ، وانما فتح له بابا واسعا للانتماء الى العرش الممثل للسلطات الرجعية الثلاث في وقت واحد •

ان ارتباط البارودي بالثورة ، هو الذي أثمر روائع شعره ، كذلك فان ارتباط حافظ بالشعب هو الذي صاغ أجمل قصائده • وعندما انفصل البارودي عن تيار الثورة ، انحدرت القيمة الحقيقية لشعره • وعندما كان حافظ يتردد في الارتباط بالشعب ، ويضطر للالتصاق الساذج المفتعل ببعض الفئات العليا كان شعره يتردى في هاوية الزيف والافتعال •

ليس معنى ذلك أن ثمة ارتباطا آليا بين قيمة المضمون وقيمة الشكل في المستويين الفكرى والجمالى • وانما كان الارتباط بالثورة العرابية في حينها من جانب احد ضباطها الشعراء ، بمثابة الارتباط بالانفجار الحضاري الاول في حياتنا الاجتماعية كلها ابان العصر الحديث • لم يكن قط ارتباطا عسكريا او سياسيا ، بل كان ارتباطا عضويا شاملا بين مختلف التناقضات السابقة في عصر النهضة • كذلك لم يكن الارتباط بالشعب في زمن حافظ ابراهيم ، ارتباطا ميكانيكيا ، يستهدف من الشاعر ان يكون بوقا نحاسيا يخطب في الجماهير ويهتف في المظاهرات ويهيج الرأي العام • كلا ، وانما كان الارتباط بالشعب ، يعني في المقام الاول ، الارتباط بجوهر عصـــر النهضة • وهو التأكيد على ميلاد الشخصية المصرية ، وكيانها الفني الخاص •• من هنا كانت ثورية المضمون تعني في نفس الوقت ثورية الشكل ، بل لم يكن في ذلك الحين أية فروق نقدية بين الشكل والمضمون تتيح التفرقة المجازية بينهما •

هكذا ايضا ، كان شوقي في ارتباطه بالقصر • لم يكن ارتباطا شكليا لصلته بالارستقراطية • وانما كانت هناك « رابطة دم » بينه وبين كل ما يمثله الخديوي من قيم حضارية • والمظهر الاول لهذه القيم ، هو التخلف عن مستوى العصر في كافة مجالات الحياة والفكر حتى اذا سافر شوقي الى باريس لم يجيء منها باى محصول ثقافي يذكر • والمظهر الثاني هو الاستناد على اكثر الركائز الرجعية رسوخا في قواعد المجتمع • والمظهر الثالث هو الاتصال الحميم باكثر الجوانب سلبا في الاستعمار الاجنبي والباب العالي •

هذه كلها ، عثرت في شوقي على تربة خصبة ، كانسان طموح الى الجاه الطبقي الممتاز ، فليس الشعر — من هنا — الا احدى الوسائـل

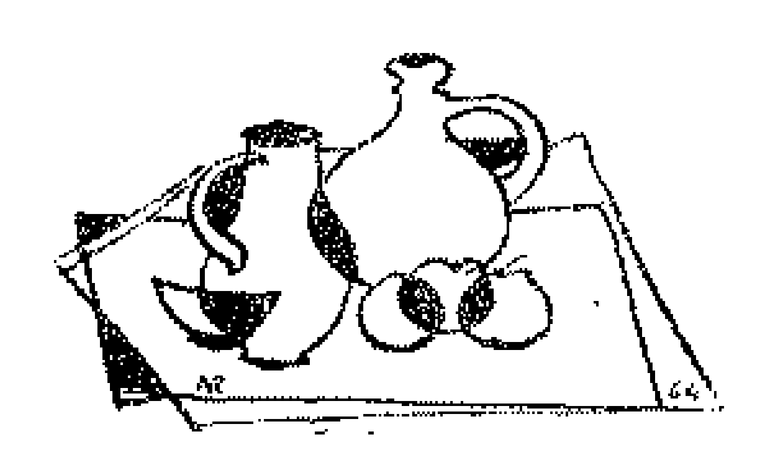
(الشرعية !) للوصول الى غاية هذا الطموح . ومن الطبيعي اذن ، ان يجيء هذا الشعر في حدود هذا المعنى ، مثقلا بتراث القدامى من السائلين والواصلين والطموحين . من الطبيعي أن يتجه شوقي الى كافة القيم التي يمثلها القصر ، بالضراعة والابتهال . وأن يكرس عمره كاملا للبحث عن أشكال هذه القيم في التراث . ومن الطبيعي حينذاك ، أن تكون هذه الاشكال هي الوجه السالب للتراث ، هذا من ناحية المضمون . ومن الطبيعي كذلك أن يضطرد شوقي الى اجترار الشكل الجاهز للموضوع والمستهلك منذ عشرات القرون . حتى اذا جاء شوقي في القرن العشرين ليرثي محمد فريد او يستقبل الوفد او يؤلف النشيد القومي ، فانه لن يستطيع ــ صادقا ! ــ أن يتزحزح قيد أنملة عن (أصالته !) في الاجترار والانتحال .

تلك هي الجذور الغائرة في وجدان شوقي ، التي تتناقض كيفيا مع الجذور الغائرة في وجدان العقاد . فالعقاد لا يجمع بين ثورية البارودي الاولى وتمرد حافظ ابراهيم بغير تحفظ ، **وانما هو يستبصر ــ كرجل فكر** بمعنى النهضة التي تغلي بها بلاده في المستوى الحضاري الشامل . واذا كان العقاد لم يتمكن في حدود أدواته النقدية آنذاك من اكتشاف المصادر الاساسية لعجز شوقي عن اللحاق بركب النهضة ــ حتى في صورتها الكلاسيكية ــ فانه قد نجح بغير شك في رصد « الظاهرة » وتحليلها الى عناصرها الاولية . واذا كان في كثير من الاحيان ، قد جنح الى الشطط والتطرف الى رد الفعل ، فان هذا لا ينفي القيمة النقدية الرائعة التي دفعته لان يقف في شجاعة اخلاقية زائدة في وجه أعتى القمم الكلاسيكية في مصر .

ان شوقي في الطرف النقيض للعقاد ، لا يني عن الحصول على معجبين ومؤيدين من بعض التلامذة والمعلمين الذين تلقوا العلم في أكثر صوره تخلفا . انهم يعجبون مثلا بالنشيد القومي ، وأحيانا برثاء مصطفى كامل ، لا لشيء الا لهذه « الجزالة » و « الفخامة » التي تنهب من عقولهم الوعي بقيمتها الحقيقية . هناك « شيزوفرينيا روحية » ان جاز التعبير عن الازدواج العقلي والانفصام الشعوري عند هؤلاء الذين يلتقطون الفاظا محنطة لن تخفى بحال رائحة الرمم التي تنطوي عليها . لقد أصيبت أجيال كاملة بفقدان حاسة الشم حتى أنها لم تعد تميز بين الحياة والموت في الشعر وهذه هي القضية التي يتصدى لها العقاد في الجزء الثاني من « الديوان » . ولكن قبل أن يودع الجزء الاول يقوم بما يمكن تسميته بعملية التصوير الكلي في العمل النقدي كتكملة ضرورية للتصوير الجزئي المفصل . فحينئذ يقول « .. ودعاء شوقي ونشيده كلاهما معيار لتعبيره عن المعارف القومية ، فلا هو في الشعر ولا في النثر شاعر قومي موفق العبارة ، وقد قرناهما لتشابه الخطأ فيهما ، وربما كان خطؤه في النشيد أخف واهون ، من حيث

ان الاناشيد لا يصلى بها في المساجد والكنائس لا من حيث المزية الفنية والفضيلة المعنوية • بيد انا لا نرى معنى لـــزج الاديان في الاناشيــد الوطنية •• » •

من كافة الزوايا يقف العقاد على الطرف النقيض من شوقي • ولكن هذه الزوايا تتجمع في بؤرة واضحة هي القومية • لم يكن ولاء شوقي لمصر• هذا هو الفيصل في تخطيط المعركة • وبالتالي لم يكن شعره مصريا في روحه وقيمه الفنية والفكرية • كان ناطقا باللغة العربية في مستواها التراثي الموغل في القدم • كان مترنما بالبحور العربيـــة في المستوى الاجتراري العاجز • كان محافظا على قيم واخلاقيات وتقاليد ، ترسخ القواعد العثمانية ، وتؤصل لكل ما هو غير مصري • لم يكن على الطرف النقيض من العقاد ، بل كان على الطرف النقيض من مصر • مصر الشعب ، ومصر الحضارة ، ومصر الروح ، ومصر الثورة •



الاتجاه التربوي في تدريس الرياضيات

الدكتور احمد حسن الرحيم

نبذة تاريخية عن نشأة التفكير الرياضي

يحتاج الانسان الى المعرفة الرياضية حاجة ماسة في حياته اليومية ، فالعمليات الحسابية الاربع على تقدير بعض الباحثين تدخل في ما يقرب من ٩٠ ٪ من أعمالنا اليومية ، فاذا اضفنا الى ذلك عمليات الكسور والنسب المئوية فقد ترتفع النسبة الى ما يقرب من ٩٥ ٪ اما العمليات الرياضية العليا فلا يحتاج اليها الا في بحوث خاصة في الفيزياء والصناعة وليس في هـــذا ما يوجب الاهتمام بالمعرفة الرياضية معرفة خاصة تمتـــاز بها عن المعارف الاخرى كالعلوم الطبيعية أو اللغوية لاننا نحتاج الى فــروع المعرفة كلها في توسيع أفقنا الفكري وبناء حضارتنا والمظنون ان الانسان القديم بدأ بتعليم الحساب منذ فجر الحضارة عندما ادرك ان بعض الاشياء مساوية للاخرى أو أنها أقل أو أكثر من أشياء أخرى في كميتها أو حجمها • وعند التعامل مع الآخرين وجد نفسه محتاجا الى تقدير كميات الاشياء أو المسافات فأخذ علم الحساب في التدرج والنمو واذا كانت الزراعة وتدجين الحيوانات قد نشأ في العراق ومصر حوالي ١٠٫٠٠٠ ق٠م٠ وهما أسبق البلـــدان الى انشاء الحضارة فلا بد أن المعلومات الاولية في الحساب قد نشأت قبل هذا العصر أو في أثنائه والمعروف في علم التاريخ القديم ان حضارتي وادي الرافدين ووادي النيل أسبق الحضارات كلها الى تنمية المعارف الرياضية وتطويرها فقد عثر على مخلفات أثرية تدل على المستوى الرفيع الذي بلغته الرياضيات في بلاد بابل ومصر • فقد استطاع البابليون باستعمال الارصاد والحسابات الفلكية الدقيقة التنبوء بحدوث الكسوف أو الخسوف ودرســوا مدارات الكواكب السيارة التي عرفوا خمسا منها هي الزهرة والمشتري وعطارد وزحل والمريخ وجعلوا الاسبوع سبعة أيام وقسموا الساعة الى ٣٠ دقيقة تعادل كل دقيقة في مدتها أربع دقائق في تقسيمنا الزمني الحاضر وقد دفعهم الى الارصاد ودراسة علم الفلك معرفة المواسم والفصول لاغراض دينية واغراض زراعية كما ظنوا أنهم بدراسة حركات النجوم وتقابلها في سيرها يستطيعون الاطلاع على ارادة الالهة وما تنوي أن تفعلـــه بالنـــاس ولا سيما بالملوك والامراء • ولهذا فقد صوروا البروج ونسبوا لها طبائع وخصائص فنشأ

بذلك علم خرافي هو « علم التنجيم » ولا تزال مخلفات البابليين في التنجيم ، كأسماء البروج وصورها وطبائعها منتشرة لدى بعض الاوساط في العالم كله . ويظهر كذلك من الآثار البابلية انهم قاسوا ساعات النهار بالساعات الشمسية وهي الساعة التي تقيس الوقت بالظل وقاسوا ساعات الليل بالساعات المائية وهي ساعة تسقط في داخلها قطرات من الماء بصورة منتظمة في اناء مدرج فيعرف مقدار الوقت بكمية الماء المتجمع وقد قسم البابليون الدائرة الى ٣٦٠ درجة وكانوا يقسمون الاراضي ذات الاشكال غير المنتظمة الى أشكال هندسية منتظمة لقياسها ومعرفة مساحاتها . ومن آثار الحضارة البابلية قطع أثرية تدل على معرفتهم بالجبر كالمعادلات الآنية ومعادلات جبرية من الدرجة الثانية والثالثة وغير هذا مما يدل على سعة علم البابليين بالرياضيات وان كان علما مختلطا لديهم بالخرافات والاغراض السحرية والتنجيمية ولكنه في بعض أوجهه يدل على الدقة والتطور ومن البابليين تعلم اليونان كثيرا من العلوم الرياضية وقد عثر في العراق قبل مدة قليلة على لوح أثري يدل بصورة علمية على النظرية الهندسية المعروفة في كتب الهندسة بنظرية فيثاغورس Pythagoras بابلية الاصل وان تاريخ اللوح أقدم كثيرا من عصر فيثاغورس الذي عاش في العصر السادس قبل المسيح (٥٨٢ ــ ٥٠٠) ق.م. وترك المصريون القدماء اثارا معمارية عظيمة تدل على طول باعهم في الهندسة المعمارية من ذلك هرم خوفو وهو هرم كبير ذو قاعدة مربعة الطول كل ضلع من أضلاعها يبلغ (٧٥٥) قدما أما ارتفاع الهرم فهو (٥٠٠) قدما تقريبا وقد بني بقطع ضخمة من الصخر يقدر ثقل كل قطعة منه بطنين ونصف . كما ان الاثار الاخرى من أبنية المعابد والسدود تدل على تقدم واسع في الرياضيات لدى المصريين القدماء . وقد انتشرت حضارة وادي الرافدين ووادي النيل بصورة واسعة وصارتا أساسا مشتركا لحضارات شعوب العالم المختلفة .

وفي العصر العباسي طور العرب الرياضيات كثيرا بعد ان نقلوا الى لغتهم كثيرا من المؤلفات الرياضية من حضارات الامم المختلفة ولا سيما الهند واليونان وقدموا هذا الفرع من المعرفة ووسعوه بما اضافوا اليه من بحوث واسعة قيمة وكان من الرياضيين المشاهير في تاريخ الحضارة العربية محمد ابن أحمد البيروني المتوفي سنة (٤٤٠هـ) وقد نبغ بعلوم كثيرة منها الرياضيات فاشتغل بحساب المثلثات وله بحوث بالحساب والهندسة والجبر والفلك .

ومنهم محمد بن جابر البتاني المتوفي في سامراء سنة (٣١٧ هـ) وهو منسوب الى بتان وهي قرية في حران وقد اشتغل بالفلك والجبر والمثلثات ورصد الكواكب ويعده الباحثون من نوابغ زمانه في الفلك والرياضيات .

ومنهم الحسن بن الهيثم البصري وقد شغف بالعلوم الطبيعية والرياضيات وله فيها بحوث بارزة وقد استفاد يوهان كبلر Kepler

الفلكي الالماني المعروف (١٥٧١ــ١٦٤٠) من بحوث ابن الهيثم في الضـوء
وخالف ابن الهيثم ما كان شائعا في عصره من قول بان في العين ضوءا ترى
به الاشياء ، فقد أثبت عكس ذلك وهو انعكاس الضوء من الاشياء على العين
وله في الرياضيات كتابات قيمة بحث فيها مساحات اجسام عديدة كالكرة
والهرم والاسطوانة وغيرها وذكر لها قوانين خاصة .

ومن الرياضيين العـرب كذلك رياضي من الكوفة هو أبو يوسف
يعقوب بن اسحق الكندي وقد برع في معارف كثيرة كالطبيعيات والفلسفة
والرياضيات وكان يسمى فيلسوف العرب لانه أول عالم عربي نقل التفكير
الثقافي العربي الى التعمق والتأمل الدقيق وخالف ما هو شائع في كثير من
المؤلفات من ميل الى تسجيل الاوصاف الظاهرة للاشياء والاكتفاء بالتعليمات
اليسيرة • وقد توفي سنة (٨٧٣م) •

أهداف تدريس الرياضيات

يعتقد بعض الاساتذة المربين ان للرياضيات اهدافا معينة فهي تعودنا
على التنظيم والمقصود بالتنظيم هو ادراك العلاقات بين الاشياء على اختلاف
أنواعها وحجومها وهي علاقات كمية وحجمية فالاطفال يدركون هذه العلاقات
بين الاشياء في القلة والكثرة وفي وقت مبكر وقد يتعلمون بعض الاعداد قبل
مجيئهم الى المدرسة لاول لمرة لهذا فلا يعتبر موضوع الحساب جديدا كل
الجدة على الاطفال عند دخولهم المدرسة لاول مرة ومن اهداف الرياضيات
كذلك انها تعلمنا بعض المهارات التي نستعملها في حياتنا اليومية وتمدنا
بفهم وقدرة على تعلم موضوعات رياضية اخرى أكثر تعقيدا وعمقا ، وبجانب
ما تمدنا به الرياضيات من تعويد على تنظيم للافكار والاعمال وما تسد به
حاجتنا الى معرفة الكميات والحجوم في الصناعة والتجارة وعمليات البيع
والشراء الاخرى وشؤون الحياة المختلفة فقـد ازدادت قيمتهـا في الوقت
الحاضر لاسباب علمية وسياسية لكونها من العناصر الضرورية في البحوث
الذرية وبحوث الفضاء ودراسة الكواكب • كما ان الاحصاء وهو من العلوم
الرياضية يدخل في كثير من البحوث العلمية وتوجد بحوث اخرى تستند
الى استعمال الرياضيات كذلك ولو بمستوى اعتيادي او بســيط وذلك
للاستفادة منها في حساب الوقت أو الكمية عند استنباط قاعدة او قانون
ولكن استعمال الرياضيات في البحوث ليس ضرورة قصوى لكل بحث في
البحوث الشهيرة التي لم يحتج فيها الى الرياضيات نظرية لجارلس داروين
ونظريات اخرى في علم الاجتماع والتاريخ واللغة وغيرها وقد لوحظ ان علم
الرياضيات يحتاج الى استعداد فطري خاص فمن لم يوهب ذلك الاستعداد
الفطري صارت الرياضيات عقبة كأداء في سبيل تعلمه فروعا اخرى اذا
ادخلنا الرياضيات في بعض الدروس من دون ضرورة لازمة ، وقد لوحظ ان

الرياضيات قد عقدت درس الفيزياء على الطلبة وجعلت من مسائله عقدا ومشاكل رياضية • كما صعب حفظ المصطلحات اللاتينية المعقدة علم الطب على طلابه فمن الضروري أن نستبعد الصعوبات الرياضية من كل موضوع لا يحتاج اليها ولا نجعل حيازة المقدرة الرياضية شرطا لازما لتعلم علم من العلوم اذا كان اتقان ذلك العلم والتمرس فيه لا يعتمدان على الرياضيات •

ب - تعلم الحساب

يختلف الاطفال في موهبتهم في تعلم الحساب اختلافا ظاهرا كما يختلفون في مواهبهم الاخرى • ولكل طفل سوي مقدرة على تعلم الخبرات الحسابية اولا ثم الرياضيات ولكن الاختلاف يحصل في درجة هذه المقدرة وقوتها • وقد اقترح بعض المربين تعلم الطفل البالغ سنتين من العمر رقم « الواحد » ثم تتدرج معه في تعلم الارقام الاخرى عند تقدمه في العمر • وفي تجربة تربوية شاهد الاطفال حزما مختلفة من العيدان ثم طلب اليهم أن يجمعوا مثلها من عيدان معدة لهذا الغرض فاستطاع الاطفال البالغين ثلاث سنوات من العمر صنع حزم مؤلفة من عودين أو ثلاثة عيدان واستطاع الاطفال الذين بلغوا السنة الرابعة من أعمارهم ان يصنعوا بصورة عامة حزما مؤلفة من ستة عيدان • اما اطفال السنة السادسة فقد صنعوا حزما مؤلفة من سبعة أو ثمانية عيدان وهذه التجربة تبين ازدياد المقدرة الحسابية مع تقدم الطفل في عمره • والمظنون ان الطفل في السنة الرابعة من العمر يستطيع في الغالب العد الى العشرين من دون ان يشير الى اشياء معدودة اما اذا طلب اليه عد أشياء معينة فانه يعجز عن بلوغ ذلك المستوى في العد • ولا شك أن كثيرا من الاطفال في السنة الخامسة من اعمارهم يستطيعون ان يجتازوا هذا المستوى في العد دون ان يخطئوا والملاحظ كذلك في مقدرة الاطفال الحسابية ان الاسهل للطفل ان يطلب اليه احضار ستة اشياء كالاقلام والدفاتر من أن يجيب على سؤال حسابي يبدأ بكلمة « كم » كأن يقال له كم قلما في يدي أو كم دفترا على المنضدة • أما اذا طلبت اليه ان يأخذ أو يجلب ستة اقلام أو ستة دفاتر استطاع ذلك بسهولة • والسؤال ب (كم) يظهر لاول مرة في اختبار بينه للذكاء Binet intelligence test ضمن اسئلة للاطفال الذين اكملوا السنة الخامسة من اعمارهم ومن الملاحظ ان المفهوم الرياضي لا يختص بالتعامل بالارقام وحدها وانما يشمل كذلك ادراك الكميات من حيث مقاديرها في الصغر والكبر وتقدير المسافات بين الاشياء ويميز الاوقات اليومية والسنوية والمظنون ان الطفل يعرف اقسام اليوم كالصبح والظهر في علاقتها بوجبات الطعام اما الفصول السنوية فيعرفها بما يشاهد على الارض من تغيرات او ظواهر كسقوط الامطار أو تجمد المياه وظهور الازهار أو اخضرار العشب وغيرها من الظواهر الطبيعية التي تظهر

من فصل الى آخر أما قدرته على فهم الاجزاء الدقيقة من الوقت كالساعة والبرهة فانها لا تظهر الا في وقت متأخر من السنة التاسعة او العاشرة ويسبق قدرة الطفل على العد قدرته على قياس الاشياء وان سبق له ان تعرف على ادوات القياس كالمتر واليارد وغيرها . لان قياس الاشياء يحتاج الى دقة وفكرة عن حجم الشيء المراد قياسه وهي مما لم يتهيأ بعد للطفل في سنيه الاولى .

الرياضيات في الدراسات القديمة

كانت للرياضيات مكانة بارزة في الدراسات القديمة ولكنها ليست بذات قيمة عملية يستفيدها المتعلم من أستعمال الرياضيات في شؤون حياته المختلفة فقد ورد في أحد حوارات جمهورية افلاطون أن لعلـم الهندسـة فائدة ترويضية بجانب فائدته العملية في الاستفادة منه في البناء وشـق الطرق وغيرها من الاعمال الهندسية أما فائدته الترويضية فهي تقوية الذهن وشحذ قواه بتحصيله على مقدار اضافي في القوة والقدرة يكتسبه المتعلم بعد التمرين لمدة كافية في هذا العلم وقد عني بهذه الفكرة الخاطئة في القرون الوسطى عناية فائقة وصارت مناهج الرياضيات مشحونة بالعقد الرياضية والمسائل العويصة والموضوعات المعقدة البعيدة عن أمور الحيـاة العملية ظنا من واضعي المناهج بان هذه الصعوبات الرياضية هي الوسيلة الفضلى لتقوية ملكة الذهن في التفكير والاستدلال المنطقي فالمدرسة على رأيهم ليس محلا للتزود بالثقافة النافعة والمعلومات القيمة التي تنور الانسان في حياته وانما هي المحل الذي تشحذ فيه ملكات الذهن وتقوى اجزاؤه بالتدريب المرهق ومعالجة المسائل الصعبة وايجاد الحلول للعويص المعقد من المسائل وكلما بذل الطالب جهدا مرهقا وتفكيرا طويلا فقد قدم الدليل على استفادته وحسن تدريبه وقد اثبت علم النفس الحديث بطلان هذه النظرية « نظرية الترويض العقلي Formal Mental Discipline » التي يكسـون التدريب الرياضي جانبا واحدا منها بعد أن شقي بها الطلبة في دراستهم قرونا عديدة وضيعت عليهم كثيرا من فرص الاستفادة بالثقافة الحياتية التي تمد تفكيرهم بالسداد والاتساع .

ومن الاتجاهات المخطئـة في الرياضيات كذلـك ان يظن ان دروس الرياضيات واجب مفروض لتحصيل شهادة دراسية معينة فلا ينظر الى جودة مناهجها وقيمتها في خدمة شؤون الحياة وانما هي عقبة ضرورية لتحصيل شهادة علمية وما على الطالب الا أن يجتازها راضيا أو كارها اذا أراد ان يبلغ درجة معينة في ثقافته وهذا اتجاه مضر كذلك كاتجاه « الترويض العقلي » لانه يشل الولع ويقطع صلة التربية بالحياة ويفرض على الطالب ان يريح نفسه باهمال كل تعلم أو دراسة بعد تخرجه من المدرسة لطول ما

عاني فيها من الجهد والارهاق المفروض عليه فلو احس الطالب بفائدة ما يتعلم أو بفائدة أكثر ما يتعلم لوجد في نفسه رغبة في تعلمه واحس نموا مطردا في مداركه وثقافته وشعورا بزيادة قدرته على حل المشاكل ومواجهة مصاعب الحياة ٠

فشعور الطالب بقيمة ما يتعلم وادراكه لاهميته في حياته في الحاضر والمستقبل من أهم عوامل البحث ونمو المعرفة ٠ اما اذا شعر الطالب بان ما يتعلمه عبء مفروض عليه فقد يعالج حالته بالغش في الامتحانات أو بترك المدرسة نهائيا اذا تيقن انه لا يستطيع اجتياز هـذه العقبات الكأداء التي تعترض طريقه ٠

البدء في تدريس الرياضيات

سبق ان ذكرنا ان الاطفال قبل دخولهم الى المدرسة يتعلمون بعض المعلومات الاولية في الرياضيات فبعضهم من يستطيع العد الى العشرة أو أكثر ومنهم من يستطيع تمييز الاعداد أو كتابتها ومنهم من لم يسبق له ان تعلم شيئا عنها وأول ما يحتاج اليه المعلم قبل البدء في تدريس الرياضيات أن يعرف المستوى الذي عليه اطفال الصف في الرياضيات ٠ فاذا درسوا على مابينهم من تفاوت في المعلومات الرياضية سبب ذلك لبعض الاطفال ارتباكا وتهيبا من هذا الدرس واساؤا الظن بقدرتهم وتقبلهم لهذا العلم ٠ فمن الضروري أن يتعرف المعلم أو المعلمة على ما لدى الاطفال من معلومات بسيطة في الرياضيات لكي يعزو حسن اجاباتهم بعضهم الى ما لديهم من معلومات سابقة عن الموضوع ولكي يساعد الاخرين مســاعدة خاصة حتى يبلغوا بمستواهم ما بلغه الاخرون ٠ كما ان الاختلاف في اعمار الطلبة يسبب تفاوتا في مقدرتهم على تعلم الرياضيات فكلمـا زاد عمر الطفـل زادت مقـدرته على التعلم وقد لوحظ ان بعض الاطفال لم يستطيعوا فهم المواد الحسابية في رياض الاطفال فلما انتقلوا الى الدراسة الابتدائية بعد مــدة من الوقت اظهروا مهارة في حل المسائل الحسابية (وليس ادل على هذا من الطفل الذي ذكرته الانسة دراموند Drummond فقد ظل متأخرا جدا في الحساب في الروضة في سن ٥ الى ٧ سنوات وبعدئذ استطاع ان يحل جميــع المسائل بنفسه فجأة وبدون ارشاد[١] ٠ ومن التدابير النافعة بهذا الصدد ان يقسم الطلبة الى مجموعات متناسقة أو متقاربة في أعمارها وييسر هذه المهمة وجود وثائق تبين أعمار الاطفال وتبين ما بينهم من فروق زمنية ولو بالشهور والاسابيع ٠ اما الاختبار ما لدى الاطفال من معلومات في الحساب فللمعلم ان يبتكر بعض الطرق البسيطة التي يحث بها الاطفال على العد أو تمييز

---

(١) سعيد ، محمد مظهر ، الطرق الحديثة لتدريس الحساب ، الكتاب الاول ، مطبعة العلوم صفحة ٣٦ ٠

المعدودات قبل البدء بالتدريس • كان يرسم على السبورة بعض الخطوط ثم يسأل الاطفال عن عددها أو أن يجلب بعض العلب أو العيدان معه الى الصف ويطلب عدها ممن يستطيعون ذلك وللخرز والكرات الزجاجية الملونة فائدة ملحوظة لهذا الغرض وقطع النقود كذلك مما يمكن استعماله لمعرفة ما يستطيع عليه الاطفال من العمليات الرياضية البسيطة كالجمع والطرح أو لمعرفة كتابة الارقام فللمعلم ان يجلب معه ارقاما كبيرة من الكارتون الملون يسأل عنها الاطفال او يطلب منهم كتابتها على السبورة فيظهر من سبق له منهم أن تعلمها ومن لم يسبق له ذلك • والسؤال من اطفال الصف الاول انفسهم مفيد ان كانت جماعة منهم قد دخلت في رياض الاطفال أو لم تدخل فلكل ذلك قيمة مهمة ترشد المعلم في كيفية البـــدء في تدريس الرياضيات وله أن ينظم جدولا لطلبته يبين ما بينهم من تفاوت في الاعمار مهما كان بسيطا وما لدى البعض الاخر من معلومات بسيطة في الحساب ولا يصح للمعلم ان يبدأ تدريس الحساب قبل ان يتعرف على حالة الاطفال من وجهة زمنية وتعليمية • فقد يوحي اليه ذلك خطأ بنباهة بعض الاطفال وغباء البعض الاخر وينتج عن ذلك تقدير مخطيء لحالة الطلبة في الصف • وقد ييأس بعض الاطفال ممن لم يسبق لهم دخول الروضة وتعلم بعض المهارات الحسابية ، اذا رأوا اطفالا اخرين في الصف يعرفــون الحساب وينالون من المعلم الرضاء والتشجيع •

توجيهات وارشادات في تعليم الرياضيات

١ ــ يبين للطلبة حسب مستوياتهم الفكريــة اهميــة الرياضيات في الحياة ولا سيما في المعاملات اليومية كالتجارة والصناعة وتوضح لهـــم قيمتها في تنظيم شؤوننا وتجميل حياتنا كما في هندسة الطرق والحدائــق العامة وتشييد العمارات والارباح •

٢ ــ تقاوم المبالغة في اعتماد الرياضيات على الموهبة الخاصة ويوضح للطلبة بان الموهبة الخاصة في الرياضيات يحتاج اليها في البحوث الرياضية العالية اما المناهج الدراسية الاعتيادية فبامكان كل شخص ســـوى في قابليته الذهنية ان يتعلمها ويتقنها الى درجة مرضية اذا بذل لها ما تحتاج اليه تلك الموضوعات من التفهم والتصور والتمرين •

٣ ــ يقصد في التمرين في الرياضيات التفهم وزيادة الاتقان والسرعة في حل المسائل الرياضية ولا ينبغي ان يعمد فيها الى التعقيدات او يراد منه تربية الملكات الذهنية كما كان يظن سابقا • وفي الوقت الحاضر لا يزال يتقيد بعض المفكرين ان الرياضيات اهمية في توعية الذهن وتنشيط خلايا الدماغ ولكن هذه التوعية ليست مقصورة على تحويل الذهن بالمسائـــل الرياضية من أجود المسائل فقط فقد يكتسبها الذهن من كل فعالية عقلية

ومع ان المسائل الرياضية من أجود المسائل التى تثير التفكير فلا ينبغي ان يسرف في ذلك فقد يكون ذلك مدعاة للملل وضياع الوقت ٠

٤ ـ تربط مسائل الرياضيات بشؤون الحياة منذ ابتداء تعليمها فيستعمل لها من المسائل ما يتبين فائدتها بصورة جلية كقطع النقود وعمليات البيع والشراء وقطع المسافات بوسائط النقل وغير ذلك مما هو ضروري في الحياة ولا يعمد الى التصور والتجريد الرياضي الا عند الحاجة الماسة الى ذلك ٠

٥ ـ لوسائل الايضاح في تدريس الرياضيات ولا سيما للمبتدئين فائدة عظيمة فمن الضروري ان يستعين المعلم بوسائل ايضاح وافية عند تدريس الرياضيات في كل درس ان أمكن ويلزم كذلك ان تتوفر في وسائل الايضاح البساطة والوضوح في تدريس عمليات الجمع والطرح مثلا يبين للاطفال بالخرز أو الكرات الزجاجية الملونة او الاقلام وعلب الثقاب وغيرها من الوسائل المتيسرة معنى الجمع والطرح وكيف يمكن ان تجمع الكميات الى بعضها او ان تطرح من بعضها وكذلك في الضرب والقسمة وغيرهما من المسائل الرياضية كما في الهندسة مثلا يستعين المعلم بوسائل اصطناعية يبين بها اشكال الاجسام الهندسية واختلافها عن بعضها وكيفية التوصل الى القوانين الرياضية كما في التوصل الى مساحات المربع والمستطيل والدائرة والكرة وغيرها ٠

٦ ـ يتبع التدرج في تدريس الرياضيات فالانتقال من البسيط الى المعقد وملاحظة الارتباط والاعتماد بين الموضوعات المدرسية شيء اساسي وفي تفهم الرياضيات واتقانها ففي تدريس الارقام يبدأ بتعليم الواحد اولا ثم يتدرج المعلم الى الارقام الاخرى وفي تدريس الجمع مثلا يبدأ بجمع رقمين يكون حاصل جمعهما اقل من عشرة ثم يتدرج من ذلك الى ارقام اكبر عند حلول الوقت المناسب وكذلك في الطرح يبدأ اولا بالعمليات البسيطة التي ليس فيها استدانة من رقم مجاور ثم تعلم المسائل الاخرى وكذلك في القسمة تعلم اولا عمليات القسمة السهلة التى ليس لها باقي والتي يكون فيها حاصل القسمة رقما واحدا ٠ وفي نظريات الهندسة يلزم ان لا تدرس نظريات من دون ان يكون لها او لتمريناتها علاقة وافية بنظرية سابقة ٠ لئلا تترك الطالب في حيرة او ارتباك امام ما يطلب منه حله لشعوره بان معلوماته السابقة لا تسعفه في مشكلته الماثلة امامه ٠

٧ ـ من الضروري ان توضح مسائل رياضية سهلة مفهومة وان تفسر الاصطلاحات الرياضية كالبسط والمقام والكسر الاعتيادي والعشري والنسبة وغيرها لكي يفهم الطالب معناها وكذلك الرموز الرياضية تعلم معانيها بدقة ووضوح فكثيرا ما عجز الطلبة عن بعض المسائل الرياضية لعجزهم عن فهم ما طلب في المسألة أو لغموض ما استخدم فيها من الاصطلاحات الرياضية ومن الضروري توضيح ذلك باللجوء الى

تبسيط المسائل بامثلة بسيطة فاذا سأل المعلم طلبته من الصف الثالث الابتدائي مثلا هذا السؤال (سيارة تسير بسرعة ٥٠ كم في الساعة فبكم ساعة تقطع طريقا طوله ٦٠٠كم ؟) فاذا لم يفهموا ما قصد بالسؤال فمن الممكن تبسيط المسألة بهذا المثال (اذا دفع شخص ٣٠ فلسا ثمنا لثلاثة اقلام فكم دفع ثمنا للقلم الواحد ؟) وبقياس المسألة السابقة الى هذا المثال يتفهم الطلبة المسألة ويتمكنون من حلها وعلى مثل هـذا ينتقل المعلم في تبسيط مسائل النسبة والحجوم وغيرها .

٨ – توجيه عناية خاصة وتوضيح وافي لبعض النقاط التي يكثر فيها خطأ الاطفال فكثيرا ما يدهش الاطفـال اذا علموا ان ٨ + ٠ = ٨ وان ٨ × ٠ = ٠ كما يدهش الطلبة عندما يعلمون ان عملية ضرب الاسس في الجبر انما هي عملية جمع مثل س٢ × س٤ = س٦ كما ان عملية القسمة في الاسس انما هي عملية طرح مثل س٨ ÷ س٤ = س٤ . وكثيرا مـا يظن الاطفال ان حاصل الجمع يختلف اذا اختلف ترتيب الاعداد في الجمع فيظنون مثلا ان ٩ + ٨ أكبر من ٨ + ٩ فمن الضروري توضيح هذه النقاط وامثالها لكي يتأكد الطلبة منها . وفي عمليات الجمع لوحـظ ان بعض الاطفال يبدأون بالجمع من اليسار قبل اليمين والصواب ان يبدأ الطفـل من الارقام اليمنى ففي هذه العملية مثلا ٣١٨ + ٩٩٢ يوضح للاطفال ان يبدأوا بجمع عدد (٨) مع عدد (٢) اولا لا ان يبدأ بجمع عدد (٣) مـع عدد (٢) لان ذلك يؤدي الى خطأ في العملية .

وفي عمليات الضرب يوضح للطلبة باننا عندما نضرب رقما في مرتبـة العشرات برقم آخر فاننا لا نضع الناتج في مرتبة الآحاد وانما ننتقل به مرتبة واحدة هي مرتبة العشرات وعند ضرب رقم في مرتبة المئات فاننا نضع الناتج في مرتبة المئات وهي المرتبة الثالثة فطالما سبب الغمـوض في ذلك الحـيرة والارتباك للاطفال فاذا وضح ذلك مرات عديدة وتمرنوا عليه بمسائل كثيرة فهموه ورسخ في اذهانهم .

٩ – في عمليات الجمع لوحظ ان وضع الارقام المجموعة بصورة عمودية هكذا

$$\begin{array}{r} ٩٥ \\ + ٢٢١ \\ \hline \end{array}$$

أفضل من وضعها بصورة افقية مثل ٩٥ + ٢٢١ لان وضع الارقام بصورة عمودية يقلل من خطأ الاطفال في الحساب فمن المستحسن ان تبدأ بتعليم الارقام على الوضع العمودي ثم ننتقل الى ترتيب الاعداد عند الجمـع بصورة أفقية في وقت متأخر أو ان نستعمل ترتيب الاعداد ترتيبا عموديا في قسم المسودة من الورقة ونكتب الترتيب الافقي في الجزء الآخر من الورقة .

١٠ – في عمليات الجمع يستحسن ان يعود الاطفال على تسجيل العدد المحمول في جزء بعيد من الورقة أو السبورة مثل

$$\begin{array}{r} ١٨ \\ + ٢٨ \\ \hline \end{array}$$

لا ان يكتب قريبا

من عملية الجمع • فقد لوحظ ان بعض الاطفال يحشونه مع الارقام المراد جمعها ويجمعونه معها فيقعون في الخطأ من حيث لا يشعرون •

١١ — يعود الطلبة على ان يفكروا تفكيرا منطقيا في النواتج التي يتوصلون اليها في العمليات الحسابية لكي يكتشف ما يقعون فيه من اخطاء بانفسهم فاذا طلب الى طلبة الصف الثالث الابتدائي بان يحلوا هذه المسألة (اشترى رجل بدينار واحد (٥٠) برتقالة فكم سعر البرتقالة الواحدة ؟) ان بعض الاطفال ممن يتسرعون في الاجابة يذكرون (٢٠) ثم يكتبون بجانب الرقم دينارا • من دون ان يفكروا تفكيرا منطقيا بان هذا السعر وهو (٢٠) دينارا غير معقول للبرتقالة الواحدة ، فمن الضروري ان يعود الاطفال على نقد النواتج نقدا منطقيا لكي يتضح صوابها او خطأها •

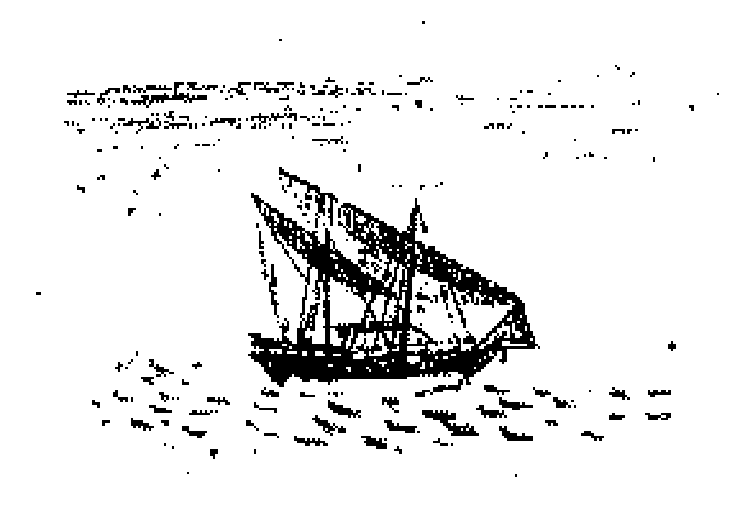
١٢ — يلاحظ احيانا ان بعض الاطفال يتعلمون من المعلومات الحسابية أوسع مما يستطيعون ان يستعملوه استعمالا رياضيا فاذا وجهت اليهم مسألة مثل (اشترى رجل ٥٠ ذراعا من القماش بسعر ١٥٠ فلسا للذراع الواحد فكم عليه ان يدفع ؟) ••• اذا وجهت اليهم مسألة مثل هذه تحيروا فيها وسألوا ان كانت مسألة ضرب او قسمة وهذا راجع الى انهم درسوا مسائل الضرب ثم انتقلوا الى مسائل القسمة قبل اتقانها ورسوخها في الذهن فمن الضروري الا ينتقل الى موضوع آخر قبل اتقان الموضوع السابق اتقانا تاما يظهر متانته في التدريب والاختبار •

١٣ — من مشاكل الطرح مسألة الاستدانة من مرتبة مجاورة ينقص بعدها العدد المستدان منه ويزداد بمقدار (١٠) العدد المستدان له • واصعب من فهم هذه المشكلة على الاطفال مشكلة الاستدانة من مرتبة فيها صفر مثل ٥٠٦–٩٦ فمن الواجب ان توضح للاطفال هذه المسائل ويبين لهم ان الاستدانة عملية يؤخذ ١ من رقم مجاور فيضاف الى رقم سابق لكي تكبر كميته ويمكن طرح كمية كبيرة منه أكبر من كميته الاولى ثم يبين لهم كيف نقص الرقم الآخر بعد الاستدانة منه وفي حالة الاستدانة من مرتبة فيها صفر يوضح للطالب الاستدانة من المرتبة التالية من مرتبة الصفر ثم الاستدانة من مرتبة الصفر ويتمرنون على مسائل من هذا النوع مرانا طويلا حتى يتم اتقان الدرس •

١٤ — يستفاد في تعليم الرياضيات وزيادة الحماسة لها بما لدى بعض الطلبة من ولع واهتمام بالرياضيات فيرشدون الى دراسة الكتب الموسعة وحل المسائل الراقية التي تحتاج الى الدراسة والتوسع • كما ان بعض الالعاب الرياضية ذات فائدة في تذوق الرياضيات وجعلها مادة سائغة يمكن ان تصبح وسيلة للتسلية فمن الالعاب لهذا الصدد لعبة البطاقات وهي لعبة تهيء فيها بطاقات عديدة عليها الارقام مختلفة وكل طالب يسحب بطاقتين فيجمع رقميها فمن كان حاصل جمعه اعلى فهو الغالب • وقد تغير اللعبة

فتجعل طرحا أو قسمة فمن كان حله صحيحا وناتجه أعلى فهو الغالب في اللعبة ومن الالعاب كذلك أن يطلب من الطالب ذكر الارقام الفردية من الواحد الى المئة أو ذكر الارقام الزوجية من (٢٠) الى (٨٠) مثلا أو ان يطلب اليه ذكر (١٠) أرقام متتالية من مضاعفات الثلاثة مثل (٦،٩،١٢،١٥) ٠٠ الخ أو ذكر أرقام اخرى من مضاعفات الاربعة او السبعة او غيرها .

١٥ ـ قبل ان يطلب المعلم من الطلبة حل بعض التمرينات او المسائل ينبغي أن يراجعها ليصحح ما فيها من اخطاء رياضية او مطبعية ان وجدت ويختار من التمرينات او المسائل اجودها واعودها بالفائدة على الطلبة في الفهم والاتقان .

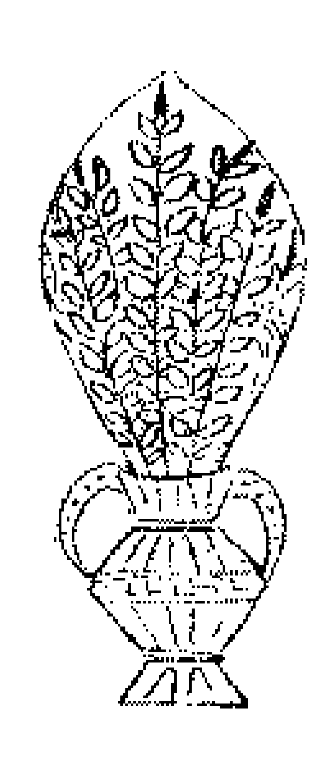


ولّى الشباب

حافظ جميل

لا تبتئس ان جار دهـرك ... وتعاك في الخمسين عمـرك
ولى الشباب ولـم يـدع ... لك بعـده شيئا يسـرك
قد كنت تسحر ان رنوت ... فاين منك الآن سحرك
اين افتـراراك كالربيـع ... اذا تبسـم أين عطـرك
قد كان من ارج الرحيق ... يضوع كالفردوس ثغـرك
واليوم لا ريـاك بالريـا ... ولا بالخمـر خمـرك
هذي الممـنوع نواطـق ... عما يبيت عليه صـدرك
حران من هجـر النسـاء ... وكان يقتلهن هجـرك
سـكران من لوعاتهـن ... وكان من فيهن سـكرك
هيمان تضرب في الخيـال ... وليس يعـرف مسـتقرك
تهوى وتخشى أن يشـيع ... وانت في الخمسين أمـرك
حتى ليوشـك أن يفـل ... تصبر الاطـواد صبـرك
ماذا سـتفعل ان فشـا ... بين الملاح الغيـد سـرك
وعتـا عليك المرجفـون ... وجال في الاوساط ذكرك
أتقول انك بعـــد في ... شرخ الصبا فيضيع قدرك
هات التي تحنو عليـك ... اذا انحنى كالقوس ظهرك
هات التي يحلـو لهـا ... في مذبح الشهوات طهرك
هات التي يسـمو بهـا ... في عالم الارواح شـعرك
هيهات ان حكم الهـوى ... ان يقنع العذراء عـذرك

ما الحب شعرك حين تنشده ولا الاغـــراء نشـــرك
سمة الهـــوى ســـيماك سافرة الجمال وليس سفرك
من يرتضيـــك اذا هرمت وزين القرطـــاس ســـطرك
أو ليس دمعـــك ما يرقرق في العيـــون وليس حبرك
او ليس قلبك ما يصفق في الضلـــوع وليس فكرك
تعظ القلـــــوب ومنبـــر الوعاظ قبل الموت قبـــرك
وتســـفه الدنيا الغـــرور وليس غيرك من يغـــرك
ولى شـــبابك وانتهيت وزال من مرآك بشـــرك
وفرغت من كي القلـــوب وعاد يلذع فيك جمـــرك
لم يبق عندك أن دعـــا داعي الصبا الا مفـــرك
يكفيك من عبث الصبـــا ان طبق الآفـــاق وزرك



النقد والدراسة الأدبية

عباس خضر

ظهرت في هذه الفترة عدة كتب في النقد والدراسة الادبية ، لا نراها وحدها تمثل الحركة النقدية والدراسية في هذا العام تمثيلا كاملا ، فلابد من الاشارة اولا الى ما نشر في الصحف والمجلات ، وخاصة المجلات الادبية المتعددة التي كانت تصدر في ذلك العام وما زال بعضها يصدر مثل : « الكتاب العربي » و « المجلة » و « الرسالة » و « الثقافة » و « الشعر » و « القصة » اذ يعد نشاط هذه المجلات الادبية وغيرها من الابواب والصفحات المخصصة للادب في الصحف والمجلات العامة مكملا لصورة الحياة في الجمهورية العربية المتحدة ٠

حفلت الصحف والمجلات بكثير من المقالات النقدية والدراسية ومعالجة القضايا الادبية ، وثارت فيها مناقشات حول اعمال ادبية وقضايا عامة ، وقامت صراعات مختلفة بين ما سمي « قديما » وما اطلق عليه « جديدا » اتسم بعضها بالحدة وارتفاع النبرة وكان بعضها موضوعيا هادئا ٠

ودار الخلاف ــ اكثر ما دار ــ حول الشعر التقليدي والشعر الجديد ، والشكل والمضمون ، وأدب اللامعقول وهل يصلح عندنا ، وموقفنا من الوافد ومن تراثنا ، وما الى ذلك ٠

وتميز خلال تلك المناقشات اتجاهان : أحدهما يقف الى جانب الثقافة المرتبطة بالمقومات القومية والمتجددة النامية في رفعة الحياة الجديدة على جذور من القيم التراثية ، والاتجاه الاخر يؤيد ما يظهر عندنا من اشكال جديدة في المسرحيات والشعر ويوغل في الدعوة الى احتذاء الوافد من هذه الاشكال ومن الافكار والمناحي التي أسماها الاتجاه الاول « غزوا فكريا » واخذ منها موقف المعارضة ٠

ولم يخل احد الطرفين من المغالاة والتطرف ورفض ما يقول به الطرف الآخر ٠ ولم يخل الامر كذلك من اتجاه ثالث متوسط ٠

فاذا نظرنا الى كتب النقد والدراسة التي صدرت في هذا العام وجدنا معظم محتوياتها مقالات وبحوثا موجزة نشرت في الصحف والمجلات في الفترة السابقة ٠

ونلحظ على وجه عام ان النصوص المسرحية ظفرت بالنصيب الاكبر

من اهتمام النقاد سواء في الكتب وفي المجلات • وقد خصت بكتابين كاملين ، هما « في أضواء المسرح » لرجاء النقاش و « في النقــــد المسرحي » لفـــؤاد دواره • وقد اشتمل كلاهما على فصول متنوعة ، بعضها يتناول مسرحيات النقد التطبيقي وبعضها يناقش قضايا ونظريات مسرحية عامة وتعليقـات على ما ينشر أو يقدم على المسارح •

فالكتاب الاول « في أضواء المسرح » يتكون من قسمين ، احدهما « في المسرح العالمي » والآخر « في المسرح المصري » في الاول يهتم الكاتب بالقواعد المسرحية مع تطبيقها أو استخلاصها من مسرحيات معينة ، والقسم الثاني كله نقد تطبيقي لمسرحيات مصرية عرضت على المسارح •

والكتاب الثاني « في النقد المسرحي » يتكون من ثلاثة أقسام ، الاول « على خشبة المسرح » ويتناول بالنقد التطبيقي مســـرحيات عرضت على المســـارح اكثرها مصري مؤلف ، وبعضها مقتبس ، وبعضها مترجم ، كمـا يشتمل على موضوعين ، احدهما عن الموسم المسرحي (٥٨ــ١٩٥٩) والآخر عن فرقة رضا للفنون الشعبية • والقسم الثاني وضع له المؤلف هذا العنوان : «من أعلى التياترو» وهو تعليقات قصيرة قال المؤلف في التقديم انها نشرت في باب الوسائل الذي كان يحرره في جريدة المساء ، والقسم الثالث من الكتاب يتناول بالنقد التطبيقي مسرحيات نشــــرت في كتب ولم تعرض على المسرح بعضها مصري مؤلف ، وبعضها أجنبي مترجم الى العربية •

والنقد التطبيقي في الكتابين ينصب أساسا على النص الادبي ، والى جانب ذلك اشارات الى الاخراج والتمثيل فيما قدم على المسرح • وهــــذا ملحوظ في اكثر ما يكتب عندنا من نقد مسرحي •

ويتحدث كتاب « ثورة الفكر في أدبنا الحديث » لغالي شكري عن بعض المسرحيات المصرية حديثا مستفيضا من الناحية الادبية فقط ، كما يتناول بعض الاعمال الاخرى بالنقد ويهتم بالتفسير واستخلاص الدلالات النظرية العامة وقد أضاف الى الموضوعات التي سبق نشرها في المجـــلات فصلا كبيرا عن الدكتور محمد مندور بعد وفاته •

ويشتمل كتاب « يسقط الحائط الرابع » لانيس منصور على مجموعة كبيرة من المقالات التي نشرها من قبل ــ واكثرها موضوعات أدبية يتناول فيها أعمالا أدبية مختلفة محلية وأجنبية بالنقد والتعليق وتوليد الأفكار •

وظهر في هذا العام أيضا من كتب النقد الادبي كتاب « مقالات في النقد الادبي » للدكتور مصطفى هدارة ،وهو مجموعة مقالات نشر معظمها في المجلات الادبية • وتقع في ثلاثة أقسام : القسم الاول في موضوعات نقدية عامة ، والقسم الثاني في نقد بعض الفنون الادبية والقسم الثالث في مناقشة دراسات أدبية ونقدية •

ويتجه النقد ــ على وجه عام ــ الى تقويم الشكل الفني مع النظر من خلاله الى المضمون الاجتماعي والسياسي ، وخاصة ما يتعلق باتجاهاتنـــا

القومية وتطور مجتمعنا الجديد . وان كان بعض النقاد يقصر عمله على الناحية الفنية ، مثل غالي شكري الـــذي نقل آراء بعض النقاد الغربيين الذين يرون ان عمل الناقد مقصور على هذه الناحيـــة ، وايدهم في ذلك وتابعهم فيه .

ومن كتب الدراسات الادبية التي ظهرت في هذا العام ، كتاب « مي — اديبة الشرق والعروبة » لمحمد عبدالغني حسن ، وقد درس فيه حياتهـا وادبها مع العناية الخاصة بابراز ميولها الشرقية ومحافظتها على الروح العربية ، ونشر منتخبات من كتاباتها .

ويتناول كتاب « شعراء الاسكندرية في العصور الاسلامية » لعبدالحليم القباني وهو من قسمين : القسم الاول عن شعر الاسكندرية في العصر البطليمي السابق للفتح العربي ، والقسم الثاني عن شعراء الاسكندرية وملامح الحياة فيها في العصرين الفاطمي والايوبي .

ومنها كتاب « ادباء في صور صحفية » لمحمد نصر طائفة من كبـــار أدبائنا المعاصرين في صور تعني بحياتهم الشخصية . والكتاب مجموعـة موضوعات نشرها المؤلف في مجلة آخر ساعة .

وظهر في سلسلة « اعلام العرب » التي تصدرها الدار المصرية للتأليف والترجمة ثمانية كتب عن شخصيات أدبية ، هي « ابو حيان التوحيدي » للدكتور زكريا ابراهيم و « عبدالله بن المعتز » للدكتور احمد كمال زكي و « الزهاوي شاعر العراق » للدكتور ماهر حسن فهمي . و « ابو العـلاء المعري » للدكتورة عائشة عبدالرحمن (بنت الشاطىء) و « احمد لطفي السيد » للدكتور حسين فوزي النجار ، و « عبدالله فكري » لمحمد عبدالغني حسن ، و «عبدالعزيز جاويش» لانور الجندي ، و « ابن رشيق القيرواني » لعبدالرؤوف مخلوف .

وظهر في سلسلة (المكتبة الثقافية) التي تصدرها الدار السابقة أربعة كتب في دراسات ادبية ، هي « النيل في عصر المماليك » لمحمود رزق سليم ، و « الفلاح في الادب العربي » لمحمد عبدالغني حسن ، و « الآثار المصرية في الادب العربي » للدكتور أحمد أحمد بدوي . و « خيال الظل » للدكتور عبدالحميد يونس .

وظهر في سلسلة « نوابغ الفكر العربي » التي تصدرها دار المعـارف ثلاثة كتب عن شخصيات أدبية ، هي « حسان بن ثابت » لمحمد ابراهيم جمعة و « القاضي الجرجاني » للدكتور احمد احمد بدوي ، و « ابن رشيق القيرواني » لعبدالرؤوف مخلوف .

وقد صدر الكتاب الاخير عن دار المعارف في ديسمبر ١٩٦٤ في حجم صغير ، ثم صدر عن الدار المصرية للتأليف والترجمة مزيدا في حجم أكبر في ديسمبر ١٩٦٥ .

وظهر في « مكتبة الدراسات الادبية » التي تصدرها الدار السابقة

« البارودي رائد الشعر الحديث » للدكتور شوقي ضيف ، و « النزعة الكلامية في اسلوب الجاحظ » للاب فيكتور شلحت اليسوعي .

وظهر في سلسلة « اقرأ » كتاب « الامثال في القرآن » لمحمد بن الشريف و « آخر كلمات العقاد » جمعها وقدم لها عامر العقاد ، وكذلك كتاب في « أضواء المسرح » الذي ذكر فيما سبق ، وكتاب « مذكرات طبيبة » للدكتورة نوال السعداوي وسيأتي الحديث عنه .

وصدر ايضا عن دار المعارف كتاب « تاريخ النقد العربي الى القرن الرابع الهجري » للدكتور محمد زغلول سلام .

وفي سلسلة « كتاب الهلال » التي تصدرها دار الهلال ، ظهر كتاب « حياة قلم » لعباس محمود العقاد ، وهو مختارات مما كتبه العقاد عن نفسه وكتاب « بحث عن شكسبير » للدكتور لويس عوض وقد نشره قبل ذلك متتابعا في « الاهرام » وكتاب « عشرة أدباء يتحدثون » لفؤاد دوارة ، وهو أحاديث أدبية اجراها المؤلف مع عشرة من كبار أدبائنا ونشرت في « الجمهورية » .

ونلحظ في الدراسات الادبية على وجه عام الاتجاه الى ابراز التراث والمعالم الفكرية العربية في القديم وفي الحديث .

وظهر في هذا العام كتاب « خطوات على الشلال ومشاهد أخرى » لمحمود تيمور ، وهو من كتب الرحلات اذ اشتمل على رحلتين احداهما الى اسوان تحدث فيها المؤلف عن المفخرة الحديثة « السد العالي » والاخرى « الى المنصورة » تحدث فيها عن المفخرة التاريخية : الانتصار على الغزو الصليبي ووصف المؤلف المعالم التي مر بها وشاهدها وعبر عن خواطره ازاءها . وقد صدر الكتاب بالكلمة التي القاها المؤلف في الاحتفال بعيد العلم سنة ١٩٦٣ امام الرئيس جمال عبدالناصر بمناسبة نيله جائزة الدولة التقديرية في الآداب ، وختم الكتاب برسالة خيالية يناجي فيها أبو الهول مدينة القاهرة .

وفي مجال الترجمة الذاتية ظهرت ثلاثة كتب احدها صريح في الحديث عن ذات المؤلف وملابسات حياته ، والآخران ينهجان منهجا قصصيا تظهر فيه ملامح الشخصية في صور روائية .

الاول كتاب « سجن العمر » لتوفيق الحكيم ، يبدأه بقوله :

« هذه الصفحات ليست مجرد سرد وتاريخ حياة ... انها تعليل وتفسير لحياة .. اني أرفع فيها الغطاء عن جهازي الآدمي لافحص تركيب ذلك « المحرك » الذي نسميه الطبيعة أو الطبع ... هذا المحرك المتحكم في قدرتي ، الموجه لمصيري » .

وهو يتحدث فيه عن طفولته وشبابه ، وما أحاط به فيهما من قيود ومؤثرات وكيف شعر بالميل الى الفن والادب ، ولماذا اتجه الى الادب ، ولماذا اختار كتابة المسرحية ، وهل كان يمكن ان يسلك في حياته طريقا آخر ،

وكيف تغلب على العوائق التي اعترضت طريقه ، وهي عوائق من طبيعة العصر الذي نشأ فيه ، ووازن بينها وبين التيسيرات التي يجدها الجيل الجديد .

وتحدث من خلال ذلك عن طبائعه وخصائصه النفسية وتأثير الوراثة والحوادث فيها ، وتحدث كذلك عن ملابسات العصر ومشكلاته الادبية والفنية والسياسية .

ويقول الحكيم في نهاية الكتاب :

« هذه مرحلة من حياة ... لم ارد منها قص حكايتها ... فلم التزم فيها بالطريقة المألوفة في سرد تاريخ الحياة حسب الترتيب الزمني لتتابع الوقائع ... ولكني مزجت الازمان والاحداث في اكثر الاحيان كي اصل مباشرة الى لب المقصود هنا ، وهو : محاولة كشف شيء عن تكوين هذا الطبع الذي اتخبط بين قضبان سجنه طول العمر » .

أما الكتابان الآخران فاحدهما « قصة نفس » للدكتور زكي نجيب محمود ساق الحديث فيه مساق القصة ، وتدور حوادثه وتحليلاته حول شخصيات رئيسية ، وهي الراوي والاحدب ومصطفى . ومن قرائن كثيرة في الكتاب تدرك ان هذه الشخصيات الثلاث ليست الا جوانب لشخصية واحدة هي شخصية المؤلف وان كان يضفي عليها الوانا من الخيال فمن المحتمل ان بعض الحوادث أو الصفات المتخيلة مضافة الى الواقع .

ومن القرائن الدالة على ذلك فقرات يصرح فيها المؤلف بقوله :

« فكأننا نحن الثلاثة جوانب من نفس واحدة متعددة الجوانب ، التوى منها جانب هو الاحدب ، واستقام جانب وهو أنا ، وما زال جانب يغامر وهو مصطفى » .

وقوله على لسان الأحدب للراوي :

« أنت أخلاق وقواعد ، ومصطفى عقل ومنطق ، وأنا عاطفة وانفعال » .

والنقاد الذين كتبوا عن هذا الكتاب فسروا وقائعه ذلك التفسير ، وعدوه من قبيل السيرة الذاتية ، ولم يعلق المؤلف على تفسير النقاد بما ينفيه .

والكتاب الآخر الذي سيقت فيه السيرة الذاتية مساق القصة ، هو « مذكرات طبيبة » للدكتورة نوال السعداوي ، وهو يصور الصراع بين الراوية وبين أنوثتها وبينها وبين المجتمع . وابرز اهدافه الاحتجاج على التفريق بين البنت والولد في المعاملة ، وتأكيد شخصية المرأة باعتبارها قسيمة للرجل في الحياة .

والكتاب بطبيعته القصصية — يشتمل على بعض الخيال الذي قد يبعد عن شخص المؤلفة ووقائع حياتها . والكاتبة طبيبة وأديبة ولكنها تتحدث عن الطبيبة وتهمل الجانب الادبي في شخصية الرواية ، ولعلها أرادت بذلك ألا توضح الشخصية الحقيقية تمام الوضوح .

ونستطيع أن نتبين في السير الذاتية اتجاها الى التعبير عما في بيئاتنا وحياتنا الاجتماعية من مؤثرات تأثر بها اصحاب السير وعوائق قاوموهـا وتغلبوا عليها .

ومن تمام الحديث عن النشاط الادبي في الجمهورية العربية المتحدة خلال هذا العام ، الاشارة الى دور وفدها في مؤتمر الأدباء العرب الخامس الذي انعقد ببغداد في اسبوع من ١٥ الى ٢١ فبراير (شباط) سنة ١٩٦٥ ، وكان موضوعه « دور الادب في معركة التحرر والبناء » .

كان الوفد مؤلفا من الدكاترة والاساتذة :

يوسف السباعي ـ سهير القلماوي ـ مهدي علام ـ محمد مندور ـ محمود حسن اسماعيل ـ زكي نجيب محمود ـ صالح جودت ـ احمد رامي ـ عبدالرحمن صدقي ـ يوسف ادريس ـ عصام الحيني ـ محمد خلف‌الله أحمد ـ عبدالرحمن الشرقاوي ـ عباس خضر ـ أمين الخولي ـ عائشة عبدالرحمن (بنت الشاطيء) محمد احمد خلف الله ـ جمال‌الدين الشيال ـ احمد محمد الخولي ـ كمال‌الدين سامح ـ شريفة فتحي ـ روحية القليني ـ كريمة زكي مبارك ـ مهجة عثمان ـ طلعة الرفاعي ـ زكي غنيم .

وقد ألقى يوسف السباعي كلمة في حفل الافتتاح باعتباره رئيس وفد الجمهورية وقدمت الى المؤتمر البحوث الآتية من بعض أعضاء الوفد :

١ ـ الادب وقضية فلسطين للدكتور محمد مهدي علام .
٢ ـ كتاب العربية الاكبر للدكتورة بنت الشاطيء .
٣ ـ الادب والثورة لعباس خضر .
٤ ـ الثورة والمجتمع العربي الجديد للدكتور محمد أحمد خلف‌الله .
٥ ـ القرآن والمفاهيم المثالية للاشتراكية لامين الخولي .
٦ ـ الادب والوحدة العربية للدكتورة سهير القلماوي .
٧ ـ دور الاديب في دعم القومية والوحدة العربيـة لمحمد خلف الله احمد .
٨ ـ القومية العربية في شعر شوقي للدكتور أحمد محمد الحوفي .
٩ ـ الادب والبناء للدكتور محمد مندور .

وبطبيعة الحال اشترك وفد الجمهورية مع باقي الوفود في لجان المؤتمر ومناقشة المسائل المعروضة عليها ووضع التوصيات وصياغتها .

وكان اتجاه الجميع في مؤتمر الادباء العرب الى تأكيد الاصالة العربية ووحدة الفكر العربي المتمثلة في الماضي العريق والحاضر المتوثب وتوجيه الادب الى التعبير عن عزم الامة العربية واصرارها على التحرر من كل ما يعوق تقدمها وحريتها ووحدتها وبناء مجتمعاتها على أسس الديمقراطيـة والاشتراكية . والمشاركة في التقدم الانساني العام وفي الجهود التي تتجه نحو تحقيق الأمن والرفاهية والسلام .

(القاهرة)

دراسة تحليلية للمسكوكات النحاسية

المضروبة في عهد اتابكية سنجار

محمد باقر الحسيني

قبل دراستي لهذه العملات النحاسية أشير الى الرأي الذي ذكره الاستاذ العزاوي(١) من أن العملات النحاسية الاتابكية في رأيه لا تعد نقودا لانها كانت محلية ، ولم يكن لها اعتبار عند الفقهاء ، وان التصرف فيهما كان غير مؤاخذة عليه ولا مخالف للمعهود .

وهذا في رأيي غير صحيح ، لان العرب منذ فجر السكة الاسلامية المعربة كانوا يعنون بالعملة النحاسية عنايتهم بالعملة الذهب والعملة الفضية ، وكانت بعض الدول الاسلامية تتبع نظام المعدن الواحد بأن تجعل عملتها الرئيسية دنانير ذهبا أو دراهم فضية أو فلوسا نحاسية ، وكانت بعضها تتبع نظام المعدنين(٢) ، فتختار عملتين من تلك العملات الثلاث تجعلها رئيستين في الوقت نفسه ، ولا يمنع هذا بالطبع ان تضرب هذه الدول او تلك عملات مساعدة بجانب عملاتهما الرئيسية ، ففي العصر الاموي اتبع نظام المعدنين الذهب والفضة في مصر(٣) . وفي عصر المماليك في مصر أيضا اتبع نظام المعدن الواحد النحاس ، فلم يعترف بالدنانير الذهب ولا بالدراهم الفضية عملة رئيسية . فكانت الفلوس النحاسية هي النقد الرئيسي الذي تقوم به اسعار البضائع والحاجيات المعاشية وكانت مرتبات الموظفين واجور العمال تحدد وتحسب بالنقد النحاسي (أي الفلوس) وهو ما يؤيده المقريزي في كتابه (اغاثة الامة في كشف الغمة) اذ يقول (أن الذي استقر أمر الجمهور باقليم مصر عليه في النقد الفلوس خاصة ، يجعلونها عوضا عن المبيعات كلها من أصناف المأكولات وأنواع المشروبات وسائر المبيعات ، ويأخذونها في خراج الارضين وعشور أموال التجارة ، وعامة مجابي السلطان ، ويصيرونها قيما عن الاعمال جليلها وحقيرها لا نقد لهم سواها ولا مال الا اياها)(٤) .

ولماذا نذهب بعيدا ولدينا من فجر الاسلام من الدلائل الاثرية ما يؤكد أحترام النقود النحاسية نقدا يجب التحقق من وزنه ، وضبط هذا الوزن بالصنج الزجاجية ، ولا تعتورها زيادة أو نقصان ، وتقدر كل قطعة بالقراريط او الخراريب(٥) ، وانما كل ما يمكن ان يقال فيما يتعلق بهذا

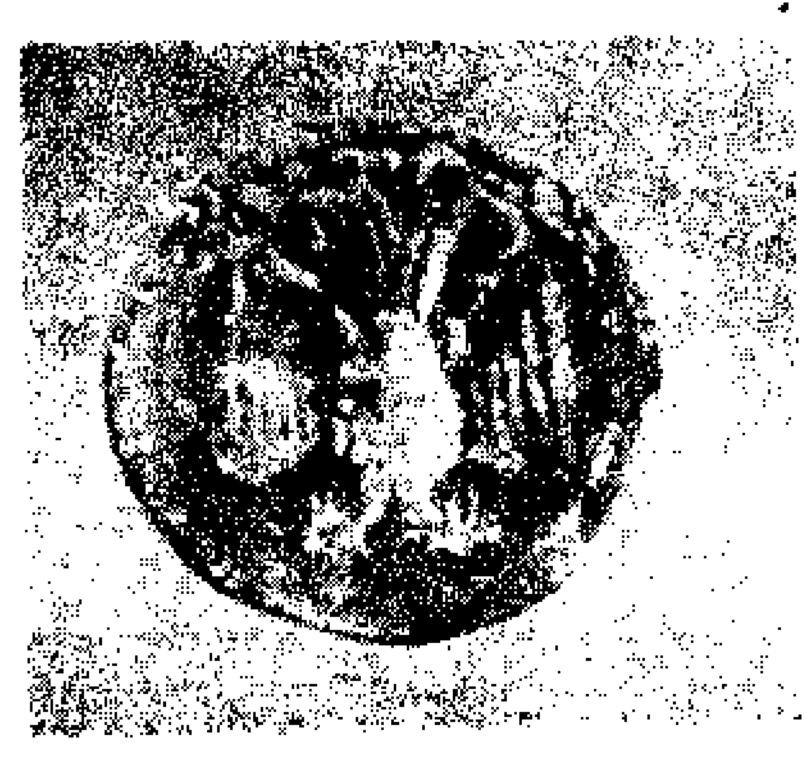
النوع من النقود أنه تطور على ضوء المعاملات الاسلامية من حيث عده منذ فجر الاسلام ، وعلى وجه التحديد منذ تعريب السكة سنة ٧٧هـ/٦٩٦م نقدا مساعدا ثم عد بعد ذلك في دولة المماليك نقدا رئيسيا كما أن الفلوس النحاسية التي لا يعدها المؤرخ نقودا ، كانت لها أهمية وهي التي نتحدث عنها او نناقشها الى درجة أن الدرهم الذي عد نقدا فضيا منذ فجر الاسلام حلت محله في العصر الاتابكي النقود النحاسية ، وأطلق عليها لفظ درهم (كما سنرى في هذا الموضوع عن الدراهم النحاسيه لعماد الدين زنكي) ونقش هذا اللفظ ايضا بين كتاباتها .

اولا ـ الدراهم النحاسية لعماد الدين زنكي ٥٦٦ـ٥٩٤هـ/١١٧٠ـ ١١٩٧م « أتابك سنجار »

وصلتنا من عصر هذا الملك خمسون قطعة من الدراهم النحاسية ، موزعة على المتاحف المختلفة ، تسع منها في المتحف البريطاني(٦) وعشر في المتحف الاسلامي بالقاهرة(٧) وثلاثون في المتحف العراقي(٨) وواحدة في المتحف الملكي بأسطنبول(٩) .

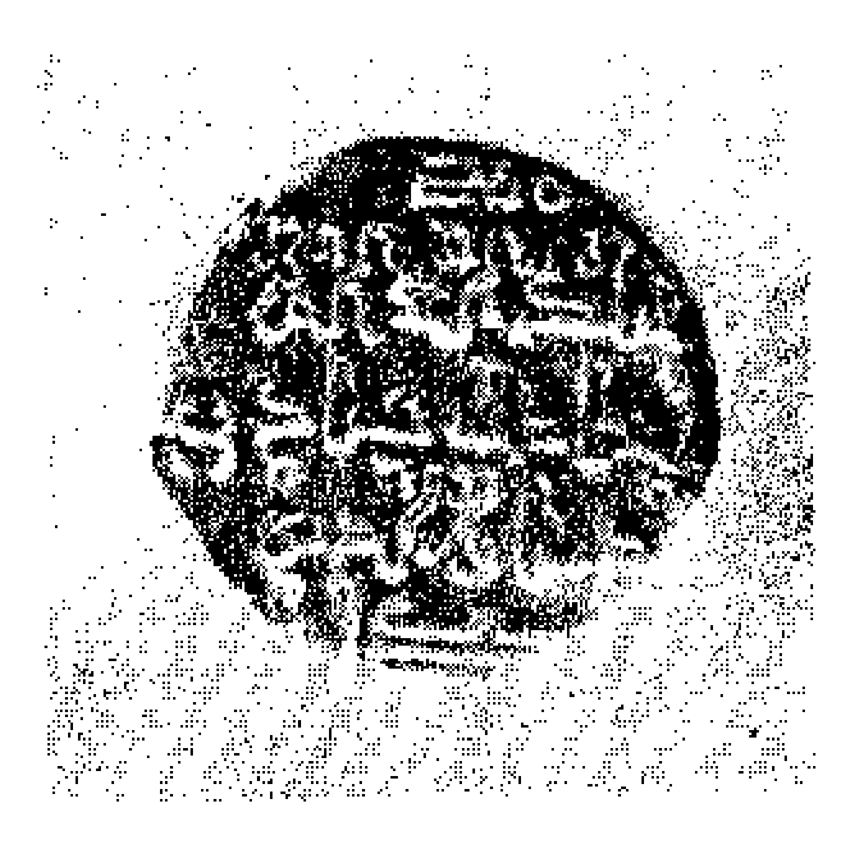
ويمكن تقسيم هذه الدراهم النحاسية الى نوعين بالنسبة الى طريقة ضربها ، النوع الاول عملات مصورة كما في الدرهم التالي :

انظر شكل (١) مركز الوجه :



صورة نسر ذي رأسين ناشرا جناحيه ، على صدره كتب (الامام أحمد)

مركز الظهر :



بـن زنــــكي
الملك العــادل
العــالم عماد
الدنيا والدين
زنـــــكي بن
مــــــودود

الهامش : ضرب هذا الدرهم بسنجار سنة ٠٠٠٠٠

اما النوع الثاني فليست مصورة وانما اقتصرت على النصوص الكتابية •

مركز الوجه :

الامـــــام
النـاصــــر
لدين أمــير
المؤمنـــين

مركز الظهر :

بـن زنــــكي
الملك العــادل
العــالم عماد
الدنيا والدين
زنـــــكي بن
مــــــودود

الهامش : ضرب هذا الدرهم ــ بنصيبين •

ان ذكر (الامام أحمد) على الدرهم النحاسي الاول هو الخليفـــة العباسي الناصر لدين الله ٥٧٥ـ٦٢٢هـ/١١٧٩ـ١٢٢٥م الذي عاصر الملك الاتابكي عماد الدين زنكي (أتابك سنجار) •

أما كتابة نصوصه فقد اقتصرت في مركز الظهر على خط معين لـــم يسبق أن ظهر مثله على العملات الاتابكية عامة ، وهو الكوفي المجدول او المظفور • ولكن من النوع البسيط (غير المعقد) وأن هذا الظفر جاء بسيطا

ولم يتعقد كما في كلمة العالم العادل .

اما صورة الوجه فهي تمثل حيوانا خرافيا هو النسر ذو الرأسين ، وتذكر بعض المراجع ان النسر ذا الرأسين كان قد أتخذ رمزا او شعارا على العملات الزنكية(١٠) في سنجار في القرنين السادس والسابع الهجريين (١٢ـ١٣م) ولكن لا يمكن التسليم بصحة هذا الرأي الذي لا تثبته القرائن النقدية التي بين أيدينا ، فلو صح أنه أتخذ رنكا لبني زنكي لوجدناه على مختلف انواع السكة الرئيسية منها والفرعية الصادرة من دور السك ، علاوة على أن صورة النسر ذي الرأسين هذه لم يقتصر استعمالها على أسرة بني زنكي فقط وانما ضربت على عملات الدولة الارتقية المعاصرة والمجاورة لها (فرع سكماتية في كيفا وآمد) زمن ناصر الدين محمود بن محمد(١١) (٥٩٧ـ٦١٩هـ/١٢٠٠ـ١٢٢٢م) وزمن ركن الدين مودود(١٢) (٦٠٩ ـ ٦٢٩هـ/١٢٢٢ـ١٢٣١م) .

والصحيح في رأيي أن مثل هذه النقوش ليست سوى عناصر زخرفية وردت على النقود النحاسية خاصة وهي النقود التي تركت للفنان حرية التصرف في نقوشها والابداع في زخارفها على أنها نقود مساعدة الى جانب النقود الرئيسية من الذهب والفضة التي خلت من مثل هذه الصورة وغيرها ، واقتصرت على الشعارات والالقاب الرسمية لاسرة الاتابكة .

ويمكن عد النسر ذي الرأسين من حيث هو عنصر زخرفي على نقود الاتابكة تأثيرا عراقيا محليا ولا سيما اذا لاحظنا انه يستند ظهوره عنصرا زخرفيا الى أصول حيثية(١٣) .

أما فيما يتعلق بمدينة الضرب (نصيبين) التي نقشت على الدرهم الثاني فمن الملاحظ أنها كانت منذ سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م تحت نفوذ عماد الدين بعد أن كانت ضمن أملاك صلاح الدين الايوبي قبل هذا التاريخ مع غيرها من المدن مثل الرها وحران ، الا ان عماد الدين زنكي تسلم سنجار ونصيبين والخابور مقابل أن يتسلم صلاح الدين الايوبي حلب(١٤) .

ثانيا : الفلوس النحاسية في زمن قطب الدين محمد ٥٩٤ـ٦١٦هـ / ١١٩٧ـ١٢١٩م .

وصلتنا من عملات قطب الدين محمد النحاسية ثلاث وسبعون عملة ، أربع عشرة منها في المتحف البريطاني (١٥) ، وست في المتحف الملكي باسطنبول (١٦) ، وخمس وأربعين منها في المتحف العراقي (١٧) ، وثماني في متحف الفن الاسلامي بالقاهرة(١٨) ، ويمكن تقسيم هذه العملات النحاسية الى ثلاثة أقسام من حيث سنوات ضربها .

القسم الاول : العملات المضروبة سنة ٥٩٥هـ/١١٩٨م

نموذج رقم (١) مركز الوجه :

الملك العزيز
عثما(ن) بن يوسف
الملك العادل
أبو بكر بن أيوب

مركز الظهر :

الامام الناصر
الملك المنصور
قطب الدنيا
والدين محمد

الهامش : ضرب بسنجار سنة خمس وتسعين وخمسماية . **الهامش** : ... بن زنكي بن مودود ..

لقد ورد على هذه العملة اسم الملك الايوبي (الملك العزيز عثمان بن يوسف) لاول مرة وهو ابن صلاح الدين الايوبي الذي حكم مصر سنة ٥٨٩ـ٥٩٥هـ/١١٩٣ـ١١٩٨م ، وورد عليها ايضا اسم (الملك العادل أبي بكر بن أيوب) الذي كان نائبا في دمشق عن أبن اخيه الملك العزيز عثمان ، والسبب في ذلك أن قطب الدين محمد كان قد دخل في طاعة الأيوبيين سنة ٥٩٤هـ/١١٩٧م عندما استنجد الملك العادل الايوبي على أبن عمه نور الدين ارسلانشاه (اتابك الموصل) لقصده نصيبين وأخذها منه(١٩) .

القسم الثاني : العملات النحاسية المضروبة سنة ٥٩٦هـ/١١٩٩م .

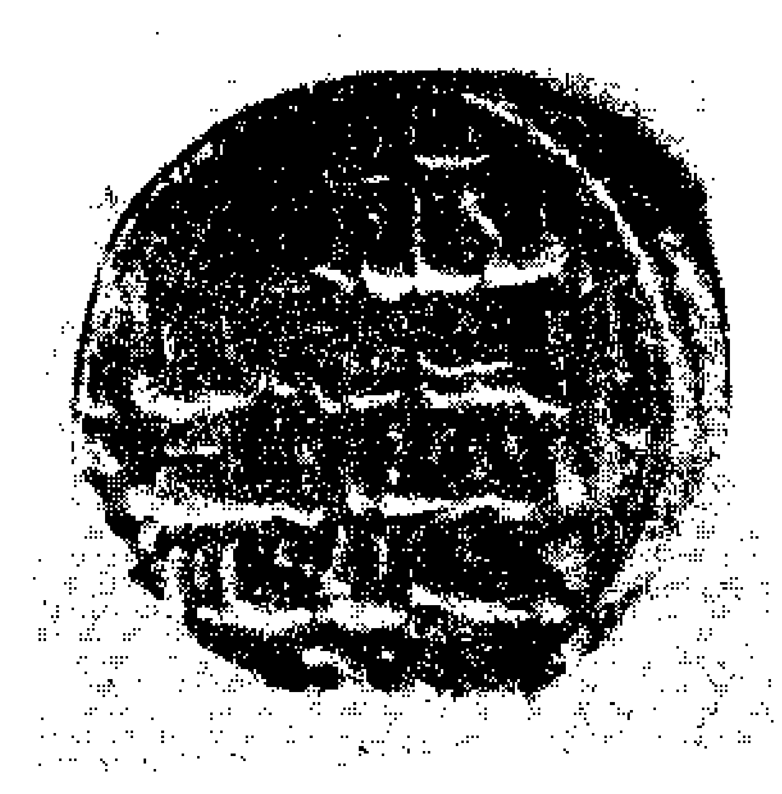
نموذج (٢)
انظر شكل (٢) مركز الوجه :

صورة شخص متجه نحو اليسار ، كتب في الهامش ضرب سنجار سنةست وتسعين وخمسماية



مركز الظهر :

بــــن زنـــكي
الامـــام الناصـر
لديـــن اللـــــه
الملـــك المنصـــور
قطب الدنيا والدين



ان اللقب (الملك المنصور) ورد لاول مرة لقطب الدين على عملاته علاوة على العملات النحاسية الاتابكية عامة • ولكن يتبادر الى الذهن هذا السؤال ، لماذا لم تذكر على هذه العملة اسماء الملـــوك الايوبيين في الوقت الذي كان فيه قطب الدين تابعا لهم ؟ •

الجواب هو أنه سنة ٥٩٦هـ/١١٩٩م كانت تعد من اشـد الفترات السياسية اضطرابا بالنسبة للدولة الايوبية بسبب وفاة الملك العزيز عثمان ومحاولة الملك العادل السيطرة على البلاد وانتقال السـلطة الى يده(٣٠) ، لذلك لم يستطع قطب الدين محمد ـ حسب ما يظهر ـ من ذكر اسم ايوبي معين فاضطره الى عدم ذكرهم جميعا ، ولم يحصل هذا بالنسبة للفلوس النحاسية فقط بل تعدى ذلك الى العملات الذهبية والفضية ايضا في مختلف الاتابكيات سواء في الموصل والجزيرة والشام وأربل •

أن المتأمل في الصورة المنقوشة على هذه العملة يسترعي انتباهـه حقا ظهور ذلك الطراز الفريد في رسم الصور الآدمية متـأثرة بالتأثيرات اليونانية عليها بحيث يمكن ان تتغلب لديه فكرة ان الاتابكة قد استخدموا رسامين وضرابين غير مسلمين تولوا نقشها وضربها ، فأن الشبه واضـح بين هذه النقود الاسلامية التي ضربت على يد الاتابكة في القرن السادس

والسابع الهجريين (١٢–١٣م) وتلك النقود التي ضربت في بلاد اليونان قبل الاسلام وبعده (٢١) .

القسم الثالث : العملات التي ضربت سنة ٦٠٠هـ/١٢٠٣م .

نموذج رقم (٣)	**صورة نسر ذي رأسين**
مركز الوجه :	**ناشـــرا جناحيـه**
الهامش :	**الملك المنصور قطب الدنيا والدين محمد بن زنكي بن مودود ولي عهده سنجار شاه نوح**
	ســــــنة
مركز الظهر	**الامــــام الناصــــر لـدين الله أمـــير المؤمنـــين الملـك العـــادل سـيف الـدين ابـو بـكر بـن أيـــوب**

نرى من خلال دراستنا لعملات اتابكية سنجار النحاسية (دراهم عماد الدين وفلوس قطب الدين) أنه لاول مرة يرد اسم (الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب) ملكا على مصر والشام (٢٢) والسبب في ورود اسمه على عملاتهم (اي أتابكية سنجار) هو أن قطب الدين محمد دخل في طاعة الايوبيين مرة ثانية سنة ٦٠٠هـ/١٢٠٣م عندما استماله الملك العادل وضمه اليه بعدما سمع بالاتفاق الذي بين قطب الدين محمد ونور الدين أرسلانشاه الاول (٢٣) (اتابك الموصل) الذي كان مناوئا له ، فلذلك ذكر قطب الدين اسم الملك العادل على عملته ليؤكد موالاته له .

وثمة ملاحظة مهمة أشير اليها ، وهي أن هذه العملة النحاسية ورد عليها اسم (ولي عهده سنجار شاه نوح) ولكن المصادر التاريخية لم تشر الى هذا الاسم ، فأبن الاثير في كتابه الكامل(٢٤) وابو الفدا في كتابه (تاريخ مختصر البشر)(٢٥) يذكران أن عماد الدين شاهنشاه ابن قطب الدين محمد هو الذي ملك البلاد بعد أبيه سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م ، يضاف الى ذلك اننا لم نحصل حتى الان على عملة عليها اسم ولي العهد هذا ، لذلك ارى من المحتمل ان (سنجار شاه) الذي ورد ذكره وليا للعهد على العملة هذه اما ان يكون ابنه الرابع(٢٦) أو احد المقربين اليه ، فاتخذه قطب الدين وليا للعهد ، والظاهر أنه توفي في حياة والده (٢٧) فادى ذلك الى أن يوالي قطب

الدين ابنه الآخر عماد الدين شاهنشاه ، ومما يؤكد هذا القول اننا لم نحصل على عملة نحاسية عليها اسم (سنجار شاه) بعد سنة ٦٠٦هـ/ ١٢٠٩م وربما تكون هذه السنة هي سنة وفاته .

---

(١) العزاوي : تاريخ النقود العراقية — ص١٩٤

(٢) اذا كان اساس النقد في دولة من الدول هو الذهب يقال عنها انها تتبع قاعدةالذهب (Gold Standard) واذا كان بالفضة يقال انها تتبع قاعدةالفضة (Silver Standard) واذا كان التعامل بالذهب والفضة يقال انها تتبع نظام المعدنين .

(٣) عبدالرحمن فهمي ، من نقضه الايوبيين الى نحاس المماليك (مجلة مرآة العلـوم الاجتماعية م٧ العدد الثالث ص٦٠)

(٤) ص٧٦ طبعة لجنة التاليف والنشر — القاهرة — ١٩٤٠ م

(٥) عبدالرحمن فهمي ، صنج السكة — ص٣٧ (الخروبة هي القيراط . وكل ١٦ قيراط = ١٢ر٣ غرام)

(٦) ارقامها في المتحف المذكور تبدأ من رقم ٦١١ الى ٦١٩ على التوالى انظر ص٢١٧/٢٢٠
Lane-Poole: Catalogue of the Oriental Coins in the B.M. Vo III

(٧) أرقامها من ١٧١٨٩/١ الى ١٧١٨٩/٦ على التوالى ومن رقم ١٧٦٨٢/١ الى رقـم ١٧٦٨٢/٤

(٨) لايتسع المجال لذكر أرقام هذا العدد الكبير هنا .

(٩) رقمها في المتحف الملكي باسطنبول ١٦٥ (اسماعيل غالب — مسكوكات تركمانية ص ١٢٤)

(١٠) Erzfugnisse Islamischer, Kunst Teil II, Selatchukirche Kleinkunst (Von Sarre) Leipzig 1909.

(١١) انظر اسماعيل غالب — مسكوكات تركمانية — ص ١٦ لوحة (١) رقم (١٦) ضرب سنة ٦١٠ هـ

(١٢) نفس المصدر لوحة (٢) رقم (٢٠) ص ٢٠ سنة الضرب ٦٢١ هـ

(١٣) تراث الاسلام : ترجمه زكي محمد حسن وزملائه — جـ٢ ص٥٩ (مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر) ١٩٣٦م

(١٤) ابن الاثير — الكامل — جـ١١ ص٢٢٤/٢٢٥

(١٥) ارقامها من ٦٢٠ الى رقم ٦٣٤ على التوالى
Lane-Poole: op. cit. Vol III p. 224-225.

(١٦) ارقامها من رقم ١١٦ الى ١٧٠ على التوالى ورقم ١٧٠ جـ (اسماعيل غالب — مسكوكات تركمانية — ص١٢٥/١٢٦ و ص ١٦٦)

(١٧) لم يسع المجال ذكر ارقامها

(١٨) تحمل الارقام من ١٧١٨٧/١ الى ١٧١٨٧/٧ على التوالى

(١٩) ابن واصل — مفرج الكروب — جـ٣ ص٧٨ ، ابو الفدا — تاريخ مختصر البشر — جـ٤ ص ١٦٢

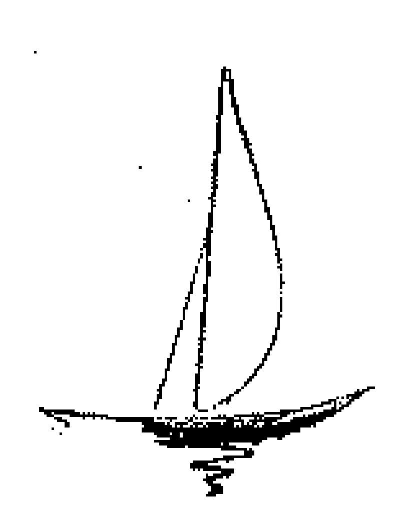
(٢٠) نفس المصدر — المقدمة التاريخية ص د/هـ .

(٢١) G.F. Hill: Historical Greek Pl. 3-4-5-6-8 (London 1906)

(٢٢) سبق ان رأينا اسمه قبل الان نائبا عن اخيه صلاح الدين الايوبي وابنه الملك العزيز عثمان على العملات السابقة .

(٢٣) ابن الاثير — الكامل — جـ١٢ ص ١٣٢

(٢٤) جـ١٢ ص ١٦٢
(٢٥) جـ٤ ص ٢٧٦
(٢٦) اولاد قطب الدين الثلاث (محمود وعمر وعمادالدين شاهنشاه) ـ زامباور ـ معجم الانساب والاسرات الحاكمة ـ ترجمة زكي محمد حسن وزملائه ـ جـ٢ ص٣٤٣
(٢٧) هذه الحالة نفسها حصلت للخليفة العباسي الناصر لدين الله ٥٧٥ـ٦٢٢هـ/١١٧٩ـ١٢٢٥ م عندما جعل ابنه (أبا نصر محمد ـ عدة الدنيا والدين) وليا للعهـــد من سنة ٥٨٥هـ الى ٦٠١هـ ضرب الناصر لدين الله اسم ولي العهد هذا على عملاته طوال هذه المدة ، ولكن ضرب هذه العملة انقطع بعد سنة ٦٠١هـ عندما تولى ولاية العهـــد بدله أخوه الاصغر الذي توفي سنة ٦١٢هـ/١٢١٥م فاضطر الخليفة الناصر الى أرجاع ابي نصر محمد مرة ثانية وليا للعهـد حتى سنة ٦٢٢هـ ولكن نلاحظ اننا لم نعثر على عملات عليها اسم ولي عهـده الصغير من سنة ٦٠١هـ الى ٦١٢هـ ٠





طفولة

حسين جليل

في الحفرتين ، ذبالتان ، بلا وميض ، تخفقان
في عتمة الليل الطويل ... على مدارات الدخان
تتسربان ... وتخفتان ... بلا زمان أو مكان
وعلى سنا الينبوع ، يا أحلى الصبايا ، تلهثان
... الزئبق اللألاء ، فيه تجدفان ،... وتغرقان
يا نكهة العذراء ، يا فوح الطفولة ، يا سناها
يا خضرة الغدران ، يا نسغ البراعم ، يا شذاها
يا حبة الرمان تسطع لهفة البلور فيها ...
يا نبعة الريحان ... تورق في مفارق زارعيها
يا « طفلة » ...،

يا ضوء قنديل ينسير سرى ابيها
لم يبق في أفقي ، لزهرك ، غير أشتات السحاب
الريح تنثرها ، وتذروها ، على غبش الضباب
وذبابتين ، بلا وميض ، تخفقان .... مع السراب
في حفرتين عليهما ... تفتر اطواق العذاب ...
يا طفلة ..،

لم يبق لي منها ، سوى ذكرى هواها
وشذى براءتها ، وطيف عيونها ، وصدى خطاها
... ويح «البراعم» ... يالكهل متعب خفقت رؤاها
في دربه ، فمضى .. يطاردها ، ليبعث من صباها
بقيا صباه ،... وذكريات أطلمتها مقلتاها
... ويح الطفولة ،

أي قلب لا يذوب على لظاها
ويموت شوقا ، دونما لقيا ،
.... ويحلم في جناها

ابو نواس

ابراهيم الخال

هذه نظرة عابرة على بعض حياة ابي نؤاس ، استهدفت من ورائها تسليط الضوء على جانب خطير من شخصيته مما لم يزل مجهولا لدى الباحثين، وذلك هو الجانب الحزين من هذه الشخصية المعقدة .

فمنذ أمد طويل ، كنت أشعر في قرارة نفسي ، كلما قرأت بعض شعر ابي نؤاس ، بأن هناك سرا على وجه التاكيد ، كان يدفع الشاعر الكبير الى مثل ذلك الاغراق في المجون والكفر ، وذلك الاغراق في الشراب .

ولقد حاولت الوقوف على هذا السر في ما كتبه المتقدمون والمتاخرون عن أبي نؤاس ، وقد بذلت الجهد البالغ في ذلك فلم افلح مع الاسف .
وأخيرا وطدت العزم على ان أتولى المهمة بنفسي ، فعكفت على اعادة دراسة ديوانه بصبر ، وتعقبته في كل شارة وواردة من شعره ، واستطعت في النهاية على ما اعتقد ، وضع يدي على مأساة ضخمة ملأت جانبا عظيما من حياته ، وطبعت شخصيته بطابع حزين يمتاز بعمق الالم والمعاناة ، وهو ما كان يدفعه الى التطرف في الشراب واللهو والعبث والمجون ، بل والكفر ايضا الى الدرجة التي صاح فيها وقلبه يتفطر ألما : « يا أحمد المرتجى .. » كل ذلك تنفيسا وتخفيفا عما كان يصطرع في قلبه من آلام مبرحة ، واحزان مهلكة ما كان باستطاعة الرجل ان يتحملها ، أو يخفف من سورتها ، دون اللجوء الى الشراب ، وحياة العبث واللامبالاة التي شب عليها منذ نعومة أظفاره ، كما سيلمس ذلك القارىء واضحا في هذا المقال .

وكان مرجعي الاساسي لما جاء فيه ، ديوان أبي نؤاس نفسه ، وقد ساعدني فيه ابن منظور دونما شك ، بما أورده عنه من أخبار .

ها قد استكملت اسباب صناعتك يا صديقي العطار اذ رحت تجمع بين روائح العود والورود ، فبالله عليك ، هلا أخبرتني عن الروضة التي اقتطفت منها هذه الوردة ؟

هكذا قال « أبو اسامة » ، والبة بن الحباب ، وهو يطيل النظر الى الفتى الذي ملأ حانوت صديقه بهجة وفتنة بما أنعم الله عليه من جمال .

ثم يجيب العطار صديقه الشاعر الكوفي : أن صدق حديا والبة . فهو وردة ، وابن وردة . انه ابن « جلبان » الفارسية التي انتهى المطاف بها

هنا في البصرة منذ سنين مضت . ولا أخالك تجهل أن كلمة « جلبان » تعني بالفارسية « وردة في الاذن » . ولقد مرت على هذا الفتى مدة ليست بالطويلة وهو يعمل عندي في بري العود . وكان أن وسع الله علي رزقي منذ يوم اشتغاله لدي اذ أصبح خلال هذه المدة ، الجوهرة المتلألئة من خلال دخان عيدان الطيب المشتعلة في كل مكان كما ترى ، فهو قبلة الناس في سوق العطارين ، لما انعم الله به عليه من جمال الطلعة بالاضافة الى خفة الروح وذلاقة اللسان وسرعة البديهة وعظيم الذكاء . وفوق هذا وذاك فهو حفاظة للشعر ، لا تعجبه قصيدة رائعة الا استظهرها بسرعة لا تصدق ، بل وانه ينظم الشعر ايضا ، اذ كثيرا ما اراه يتأمل ثم يسارع الى كتابة البيت أو البيتين في قراطيس يستودعها تلك الزاوية من الحانوت .

عند ذلك سأله والبة بصوت خفيض : « وهل يحفظ شيئا من شعري ؟ » قال العطار : اني لا أشك في ذلك . أو تراه غافلا ، وهو على مثل هذه النباهة ، عن روائع فحل العراق ، وأشعر بني أسد ؟ قال والبة : « فاسأله ، حفظك الله ، عما يحفظ منه اذن » .

وكان فتى العطار منشغلا ، يبري العود في ركن من ذلك الحانوت الكبير لا يسمع شيئا مما يدور بين سيده وهذا الزائر الغريب . وهو عندما ناداه سيده ، ترك عيدانه وأقبل عليه ، فكان أن سأله العطار دون ان يعرفه بشخصية ضيفه ، عما اذا كان يحفظ شيئا من شعر « والبة بن الحباب » . قال الفتى : « وهل بقي شيء قاله شاعر الكوفة ولم أحفظه بعد يا سيدي ! » .

هناك استبدت الدهشة بوالبة من هذا الفتى الذي ما زال بعد في سن المراهقة ويكاد يحفظ أغلب شعر كبار شعراء العصر . عند ذلك سأله والبة : « وأي أشعار والبة أحب الى نفسك ؟ » قال الفتى : « شعره الماجن الخليع قاتله الله . انه صائر بسببه الى نار جهنم يوم الحساب ، لكني أحبه كثيرا اذ يصادف هوى من نفسي يدفعني الى المرح والضحك . واني لاخشى عليه والله من نار جهنم يوم القيامة ، ولا أريد له أن ينتهي اليها ، فهو زوح مرح طروب ، عسى الله أن يغفر له ، وان رحمته لتسع كل شيء ياسيدي ! » .

ولم تبق جارحة لم تختلج لدى والبة وهو يصغي لكلام هذا الغلام . لقد شعر بانه كان يعيش في عالم غريب تلك الساعة في سوق العطارين . وعندما فرغ الفتى من ابداء رأيه في والبة وشعره ، قال له والبة : « وهل ستبخل عليه بادخاله جنة من جنان هذا الكون اذا كان باستطاعتك ان تفعل ؟ » قال الفتى : « وكيف لا ؟ » . قال والبة : « أنت والله ستكون قطعة من الجنة في دنيا الصداقة وعالم الوفاء ، ولقد وطدت العزم على اتخاذك أخا عزيزا وصديقا حميما رغم ما بيننا من فارق في السن ولا صنعن منك شاعرا اباهي به شعراء الكوفة وبغداد أجمعين ، فاعلم يا سيدي الان بأني أنا

والبة بن الحباب » . ثم التفت والبة الى صديقه العطار قائلا : « انها بضاعتي يا صديقي ، وقد ردت الي ، ولن انقلب الى الكوفة بدونها أبدا » .
أما الفتى ، فقد طار فرحا ، وكان لا يصدق نفسه بما يرى ويسمع ؛ وأخيرا هتف من أعماقه قائلا : « واذن ، فقد ظفرت أخيرا بمنيتي ، وتحققت أوهام نفسي .. واني اقسم عليك يا سيدي والبة أن تكون ضيفي في بيتي هذه الليلة قبل المسير الى الكوفة . فهلم بنا الى بيت جلبان » .
وكانت دار جلبان من بعض بيوت المتعة والاثم اذ كانت تضم الفاتنات من الغواني اللواتي كانت تزدحم بهن البصرة التي بلغت الاوج في الترف والمدنية تلك الايام . عليه لابد أن تكون تلك الدار ، وسلوك الام ، قد لعبا دوريهما الكبيرين في تكوين شخصية الحسن بن هاني ، وأثرا في سلوكه في مستقبل أيامه الى حد كبير .
هناك على ضفة الشط ، وتحت سعف النخيل ، حيـــث يهب باردا نسيم الشط البليل ، في الليل تحت سماء البصرة الصافية ، جلس والبة يستمع الى حديث جلبان حيث علم منها أن ولدها الحسن ، انما هو من زوجها هاني بن عبد الاول بن الصباح ، وان زوجها هذا كان في جيش مروان بن محمد ، آخر خلفاء الامويين ، وقد التقى بها في الاهواز ، وأحبها وتزوج منها ، وقد ولدت له الحسن في عام ١٤١هـ على وجه التقريب ، وان للحسن هذا أخوة آخرين واختا واحدة ، وانها هي نفسها فارسية المولد والاصل ، ومن أهالي الاهواز .
وبعد ان اقتنعت جلبان بدورها بفكرة والبة بتأديب الحسن في الكوفة وضرورة ذهابه اليها ، انطلق والبة بفتاه مع فلق الصبح ، متوجها نحو الكوفة التي لم تكن أقل شأنا من البصرة في ذلك التاريخ .
وفي الكوفة استطاع والبة أن يجعله فحلا من فحول الشعراء بمساعدة صديقه اللغوي الكبير ، ابي محرز خلف الاحمر . وكان خلف الاحمر نفسه الذي طلب من الحسن بن هاني ان يختار له كنية من الكنى اليمانية بعد ان اختار أن يكون ولاؤه في اليمن ، فعرض عليه بعضها ، ومنها « ذو كلاع » و « ذو جدن » و « ذو يزن » و « ذو نواس » ، وأخيرا رغب في ان يكنى بـ « ابي نواس » . وهناك من يقول بأن لقبه هذا مستمد من ذؤابتين كانتا « تنوسان » على عاتقه ، الى غير ذلك من التخريجات .
لكن والبة ، وهو الشاب الخليع المتهتك ، لم يخلق من ابي نواس فحلا من فحول الشعراء وحسب ، انما خلق منه شابا متهتكا خليعا مثله ، فقد أصبح صفيه ونديمه في مجالسه الخاصة ، ورفيقه اينما حل أو أقام .
وبعد أن ضاق أبو نواس ذرعا بحياة العبث والخمور التي كان يمضيها مع صديقه في الكوفة ، قرر العودة الى البصرة وقد اصبح شابا جاوز العشرين .
وفي البصرة لم يستطع أبو نواس الاقلاع عن الحياة الماجنة التي كان يحياها في الكوفة . غير انه قرر في نفس الوقت الاحاطة ما وسعه جهده ،

بعلوم اللغة والحديث والتاريخ فكان من البارزين بين رواد حلقات الدرس والعلم التي تملأ البصرة ، كما كان حضوره تلك الحلقات لا يخلو من عبث ، وكلام فاحش ، وشعر بذيء ، يكتبه على رقاع صغيرة سرا ، ويرسله الى بعض اساتذته الذين يتصدرون تلك الحلقات قصد السخرية ، والى بعض أصدقائه من التلامذة الاشرار .

وكان من اساتذته البارزين ممن درس عليهم في البصرة ، يحي بن سعيد المعروف بالقطان ، ويعقوب الخضرمي ، وابي زيد سعيد بن أوس بن ثابت ، الذي كان واحدا من أكبر أعلام اللغة والنحو والادب ، وأبو بكر ، أزهر بن سعد السمان البصري ، وكان من كبار رجال الحديث ، وغير هؤلاء كثار .

وهو بعد أن يتبدى سنة في مضارب بني أسد ، وبعد ان يملأ البصرة عبثا وتهتكا ومجونا وشعرا بز به شعراء المدينة أجمع ، يغادر جلبان وسوق العطارين ثانية ميمما شطر بغداد التي كانت تجتذبه اليها بأنوارها اللامعة وقد أصبح في سن الثلاثين ، وذلك على عهد الرشيد ، وليس قبله بحال .

وكانت شهرة ابي نؤاس قد سبقته الى بغداد أغلب الظن . ونونيته الخالدة التي سيطر بها على سماء الشعر في بغداد ، كانت أولى القصائد التي قالها في عاصمة الخلافة ، وقد طرب لها الرشيد أيما طرب ، ومنحه عنها عشرين الف درهم ، وهي التي منها :

حي الديـــار اذا الزمـــان زمـــان	واذا الشباك لنا حـــرى ومعـــان
يا حبذا سـفوان مـــن متربـــع	ولربمـا جمع الهـوى سـفوان
واذا مـــررت على الديـــار مسلمـــا	فلغـــير دار اميمـــة الهجـــران
هارون ألفــت ائتـــلاف مــودة	ماتت لهـا الاحقـاد والاضغـان
في كـــل عـــام غـــزوة ووفـــادة	تنبـت بـين نواهما الاقـران
حـــج وغزو مـــات بينهمـــا الكرى	باليعمـلات شعارهـا الوخـدان
يرمي بهـــن نيـــاط كل تنوفة	في الله رحـــال بهـــا ضعـــان
حتى اذا واجهن اقبـــال الصفـــا	حن الحطيم وآطت الاركان .. الخ

على ان آفاق العبث واللهو في بغداد كانت اكبر منها في البصرة والكوفة وقد كانت عاصمة الخلافة بالاضافة الى مركزها العلمي الواسع ، قــد اصبحت قبلة انظار الدنيا اذ راح يقصدها الناس من كل مكان في الارض ، ومن مختلف ذوي الصناعة والفن فازدهرت أيما ازدهار ، وتوسعت عماراتها ، وترامت بساتينها ورياضها الى عشرات الاميال ، وهو ما انتهى بها الى حياة من الترف قل ان تشهد لها مثيلا أية مدينة أخرى في التاريخ . ومدينة مثل هذه تكدست فيها كنوز الارض بعد ان أصبحت عاصمة الدنيا ، وازدحمت فيها اسواق الجواري والغلمان الاعاجم ، لابد وأن تزدهر فيها تجارة الخمور ومجالس اللهو والعبث . وكان ابرز مطارح اللهو والشراب هذه ، هي التي ذكرها أبو نواس في شعره ، اذ خلد لنا اسماء مسارح لامعة في عالم الخمرة

والبهجة حيث كان يقضي الاسابيع والشهور ، مثل « قطربل » و « كلواذي » و « طير ناباذ » و « القفص » ، بالاضافة الى الاديرة التي كانت تقوم بتزويد ذوي اللهو والطرب بمختلف انواع الخمور ٠

وفي مسارح اللهو والمجون هذه ، كان أبو نواس ينفق عشرات الالوف مما يحصل عليه من جوائز من الرشيد وغير الرشيد بحيث تصل به الحال يوما الى حال الفقر المدقع وكان باستطاعته ان يصبح من ذوي الثراء الطائل في بغداد لو التزم جادة الاستقامة ، فلم كان ينهج أبو نؤاس ذلك النهج ؟

أهي العادة التي طبعه عليها والبة في الكوفة والبصرة ؟ جائز ٠ ولكن الى حد ، خاصة انه كان بوسعه ان يعتدل بعد أن أصبح شاعر الخليفة الذي ينقده الالوف على قصيدة عفيفة كالنونية مارة الذكر التي افتتح بها حياته في بغداد ٠ على ان ابا نؤاس يضيف لنا شيئا جديدا فيقول ان اغراقه في خموره ومجونه يعود الى الهم ، فأي هم هذا الذي لا تستطيع محوه الالوف المؤلفة من جوائز الخليفة وأكابر رجال العصر ؟

لاح اشـراق الصباح ... فاطـرد « الهم » بـراح

* * *

بالـه بالبيض المـلاح ... وبقينـــات وراح
لا يصـدنك لاح ... هو عـن سكرك صـاح
ليس للهـم دواء ... كاغتبـاق واصطبـاح
فلعمري ما يداوي « الـ ... هم » بالمـاء القـراح

* * *

هلا استعنت على « الهموم » ... صفراء من حلب الكروم
ووهبت للعيش الحميـ ... ـد بقية العيش الذميـم
بمجالس فيها المـزا ... مر والاوانس كالنجـوم
يهدي التحية بينهـم ... نظر النديم الى النديـم ؟

فالذي يظهر واضحا من هذه الابيات ان ابا نؤاس لم يكن يشرب ويطلب اللذة لغرض اللذة ذاتها وحسب ، انما لطرد ما يشغل باله ويكتنف صدره من هموم ايضا ، وان في ديوانه الكثير من مثل هذه الابيات ٠

ان عالما واسع الاطلاع ، سيطر على دنيا الادب العربي بما طبع عليه من نباهة ونبوغ ، لابد وانه كان يشعر بأنه أكبر قدرا من هؤلاء الأمراء وكبار الوجهاء الذين لايمتازون عليه بغير المال الذي يقف على أبوابهم بسببه ٠ ومثل هذا الشعور يورث حامله المرهف الحس ، هموما ثقيلة ما في ذلك شك ٠ ولقد كان بود ابي نؤاس أن ينفس عن هذا الهم ويعلنه للناس بما طبع عليه من صراحة أغلب الظن ، لولا ماضيه الفاضح مع والبة وغير والبة ، ولولا سلوك امه جلبان التي ما زالت باقية في البصرة على قيد الحياة ٠

بل وانه نفس عن هذه العقدة في بعض الاحيان وهجا حتى جعفرا البرمكي ، الذي كان هو من هو ، في دولة الرشيد :

عجبت لهرون الامـام ومـا الذي يود ويرجو فيك يا خلقة السلق
قفا خنف وجه قد أطيـل كأنه قفا مالك يقضي الهموم على نبق
وأعظم زهوا من ذباب على خرا ، وأبخل من كلب عقور على عرق !

ترى أي روح طامح قد تجسد في هذا الشاعر الذي شطب شخصية أقوى رجال عصره بعد الرشيد بمثل هذه البساطة والجرأة ؟ بل وأين هجاء المتنبي الذي ساقه طموحه واعتزازه بقدره الى سحق شخصية كافور بالقساوة التي عرفناها ، من هذا الهجاء ؟ ومثلما هجا المتنبي كافورا ، فان أبا نؤاس قد هجا الخصيب ، أمير مصر ، بعنف :

نفس الخصيب جميعـه كذب وحديثـه لجليسـه كرب
تبكي الثياب عليـه معولـة أن قـد يجـر ذيولهـا كلب

وكان بنو « نوبخت » من أكابر وجوه بغداد ، وأوسعهم غنى ويسارا . ولقد هجا أبو نؤاس هؤلاء ، وقال في « رزين » ، أكبر سيدات بني نوبخت منزلة ، من الابيات التي بقيت مثلا سيارا في الهجاء حتى هذا اليوم :

لقد نسلت رزين نسلا من استها عليهن سيما في العيون تلـوح
اذا استنطقت رزين يوما تعاجمت وفو فرجها بالفاحشات فصيح ..

الجواري ، والغلمان ، والمال الذي توفر له في بغداد ، كل ذلك كان يمكن أن يزيل همومه لو كانت لديه هموم أخرى عدا هذا الطموح الذي كان يشعره بانه أحق من غيره بالجاه العريض ، ومناصب الدولة العليا التي يتربع عليها أمثال البرامكة الذين لا يمتازون عليه بعلم ، أو أدب ، أو حكمة ، سوى هذا المال الذي يشترون به ذمم الناس - ولم يكن بوسع ابي نؤاس أن يصاول هؤلاء ويغالبهم على مراكزهم لسيطرتهم على أزمة الامور بسبب نفوذهم المالي من جهة ، ولانه لو فعل ، لجعل منه هؤلاء الامراء سخرية للناس ، اذ ما أسهل أن يطلقوا ألسنة الالوف المؤلفة من اتباعهم لتنال من ماضيه في الكوفة والبصرة ، ومن سلوك امـه ، وضعة نسبه ! لذلك لم يكن باستطاعة ابي نؤاس الاعراب عن طموحه هذا حتى في شعره ، ولقد استخلصنا وجوده من هجائه ، وليس مثل الهجاء ما يكشف عن خفايا طموح الشاعر .

واذن ، فليغرق الحسن بن هاني همومه في بحور الخمور والفجور ، في قطربل وغير قطربل مع « عصابة سوء » من فحول الشعراء أمثال مسلم بن الوليد ، صريع الغواني ، وحماد عجرد ، والحسين بن الضحاك ، والفضل الرقاشي ، ومطيع بن اياس ، وغيرهم من شعراء وغلمان وقيان كثار . وكانت طريقة أبي نؤاس في ازالة هذه الهموم اشبه ماتكون بثورة متطرفة على

على تقاليد المجتمع . كان يحاول أن يكشف للناس عن كل ما ينبغي أن يجري طي الخفاء ، بل ويصر أن تكون جميع افعاله مفضوحة معروفة لديهم ، وكأنما كان يتحدى كل عرف ، وكل حاكم ، وكل ذي أمر أو نهي .

ألا فاسقني خمرا وقل لي هي الخمر ... ولا تسقني سرا اذا أمكن الجهر
فعيش الفتى في سكرة بعد سكرة ... فان طال هذا عنده قصر الدهر
فبح باسم من أهوى ودعني من الكنى ... فلا خير في اللذات من دونها ستر
وما الغبن الا أن تراني صاحيا ... وما الغنم الا ان يتعتعني السكر .

والذي يمضي في قراءة هذه القصيدة الى آخرها ، يستطيع أن يرسم صورة حية لحياة المجون والفسق والكفر التي كان يحياها أبو نواس . ولقد استغل أنصار المأمون هذه القصيدة وامثالها في محاربة الامين فكانت تقرأ على المنابر في خراسان تشكيكا منهم في الوازع الديني لديه ، لمنادمته مثل هذا الشاعر الذي يشرب ويفسق ويكفر علنا جهارا على رؤوس الاشهاد . لكن الامين في الواقع ، كان قد اودعه السجن لامثال هذه القصائد .

على ان من خمريات أبي نؤاس الكثار التي خلفها لنا ، ما أصبح جواهر فريدة النوع في الادب العربي ، فهو شاعر العربية الاكبر في هذا الميدان دون منازع ، اذ لم يظهر من هو أعلى منه كعبا فيها حتى هذا اليوم . ومن هذه الخمريات قصيدتاه الحائيتان التي قال في احداهما :

ومائل الرأس نشوان شدوت له ... ودع لميس وداع الصارم اللاحي
فعالج النفس كي يحيا ليفهمه ... وقال أحسنت قولا غير افصاح
فقلت للعلج عللني فرب فتى ... عللته فانثنى في نشوة الراح
حتى اذا الليل غطى الصبح محوله ... كمطلع وجهه من بين أشباح
نبهت ندماني الموفي بذمته ... من بعد أتعاب كاسات واقداح
فقال هات اسقني واشرب وغني لنا: ... ياديرشعياء بالقاعين فالساح
فما حسا ثانيا أو بعض ثالثة ... حتى استدار يرد الراح بالراح

ثم الاخرى التي يقول فيها :

ذكر الصبوح بسحرة فارتاحا ... وأمله ديك الصباح صياحا
أوفى على شرف الجدار بسدفة ... غردا يصفق بالجناح جناحا
بادر صباحك بالصبوح ولا تكن ... كمسوفين غدوا عليك شحاحا
ان الصبوح جلاء كل مخمر ... بدرت يداه بكأسه الاصباحا
وخدين لذات معلل صاحب ... يقتات منه فكاهة ومزاحا
نبهته والليل ملتبس به ... وأزحت عنه نقابه فانزاحا
قال ابغني المصباح قلت له اتئد ... حسبي وحسبك ضوءها مصباحا
صهباء تفترس النفوس فما ترى ... منها بهن سوى السبات جراحا

عمرت يكاتمك الزمان حديثا ... حتى اذا بلغ السآمة باحا
وأشاع من أسرارها مستودعا ... لولا الملامة لم يكن ليباحا ... الخ

ثم تأتيه الرائعة التي منها :

وفتية كمصابيح الدجى غرر ... شم الانوف من الصيد المصاليت
نادمتهم قرقف الاسفنط صافية ... مشمولة سبيت من خمر تكريت
من اللواتي خطبناها على عجل ... لما عجبنا بربات الحوانيت
في فيلق للدجى كاليم ملتطم ... طام يحار به من هوله النوتي
اذا بكافرة شمطاء قد برزت ... في زي محتشم لله زميت
قالت من القوم ، قلنا من عرفتهم ... من كل سمح بفرط الجود منعوت
قالت فعندي الذي تبغون فانتظروا ... عند الصباح ، فقلنا : بل بها ايتي
فاقبلت كضياء الشمس نازعة ... في الكأس من بين واهي الخصر منكوت
كأنها بزلال المزن اذ مزجت ... شباك در على ديباج ياقوت
يديرها قمر في طرفه حور ... كانما اشتق منه سحر هاروت
وعندنا ضارب يشدو فيطربنا : ... يا دار هند بذات الجزع حييت
اليه ألحاضنا تبني أعنتها ... فلو ترانا اليه كالمباهيت
من أهل هيت سخي الجرم ذو أدب ... له أقول مزاحا : هات يا هيتي . الخ

وهناك غير هذه وتلك من همزيات شهيرة ، ورائيات مثيرة لا يتسع لايراد بعض أجزائها هذا المقال . لكن هناك لابي نؤاس موشحة نعتقد انها أقدم الموشحات في الادب العربي ، وهو ما يجعلنا نعتقد بقوة بان فن الموشحات قد أنتقل من بغداد الى قرطبة مثلما انتقلت فنون الغناء مع زرياب وغيره الى هناك ، فيكون الموشح بذلك قد ولد في العراق ، وليس في الاندلس كما هو مفهوم عنه الان ، وكلنا يتذكر كيف كان الاندلسيون يقلدون كل ما هو دمشقي وبغدادي في الادب والفن ، وفي أساليب الحياة اليومية من مأكل ومشرب ، ووسائل زينة ، وتصفيف شعور ، وغير .

وكان مما قاله أبو نؤاس في تلك الموشحة :

سلاف دن ... كشمس دجن ... كدمع جفن
كخمر عدن

يسقيك ساق ... على اشتياق ... الى تلاقي
بماء مزن

يدير طرفا ... يعير حتفا ... اذا تكفى
من التثني

على غناء ... وصوت ناء ... دواء دائي
من التجني

ولثم خد ... كطعم قند ... لذات قد
وهي تغني

يا من لحاني	على زماني	اللهو شاني
	فلا تلمني	
هتكت ستري	فباح سري	وعيل صبري
	« بطول حزني »	

« بطول حزني ! » ... هكذا يظفر الذي يتعقب أبا نواس في ديوانه واخباره ويدرسه دراسة عميقة، بسر تهالكه على الشراب، ففقدان الجاه العريض، واضطراره على استجداء المال من رجال يشعر في قرارة نفسه بأنه أعلى منهم منزلة ، ثم ضعة نسبه في عالم كان يعيش على أسس الحسب والنسب ، وسلوك امه الشائن ، كل ذلك قد اورثه الهم . أما الحزن ، فأي شيء هذا الذي يحزن عليه أبو نؤاس ؟

الذي يتراءى لنا هو ان أول انسان حزن عليه أبو نواس هو نفسه ذاته . فالرجل كان يشعر بأنه مضيع بلاجاه أو حسب ونسب رغم كونه شاعر القصر الاول . بل ولقد كانت حياة ابي نؤاس مليئة باحزان تتصدع من ثقلها الجبال ، فكيف اذن يستطيع شاعر نابه مرهف الحسن كابي نؤاس ، حملها دونما تناسى ذاته في الشراب ؟ وقد يدهش القارىء اذا ذكرنا له ان ابا نواس قد نكب خلال حياته ، بأعز ماليديه في الدنيا مما لم يصب بمثله من الناس احد الا القليل : انه نكب بأبنائه الثلاثة الذين ماتوا جميعا خلال حياته بالاضافة الى زوجه . ولقد أحب أبو نواس ابنه وبناته أشد الحب ، كما كان ابناؤه بدورهم قد كلفوا به وشغفوا به حبا :

« تحب اباها حب من لا أبا لــه وتذكره في الصدر وحشي وتأنس »

وعلى الرغم من هجاء ابي نواس للبرامكة بصورة عامة ، فانه لم يتخل عن صداقته للفضل بن يحي البرمكي . وقبل ان يفجع ابو نواس بأهله وعياله ، كان قد فجع بصديقه الفضل قبيل ذهابه الى مصر . وتحضرنا بهذه المناسبة داليته العصماء التي مدح بها الفضل ، والتي تطير منها هذا ، حيث كانت أشبه ما تكون بمرثية لصديق يتوقع له مصيرا محتوما . والمعروف انه لم يكد يمضي اسبوع واحد على سماع الفضل لهذه القصيدة حتى وقعت نكبة البرامكة عام ١٨٧هـ (٨٠٣م) :

أربع البلى ان الخشوع لباد	عليك واني لم أخنك ودادي
فمعذرة مني اليك بأن ترى	رهينة أرواح وصوب عواد
ولا أدرأ الضراء عنك بحيلة	فما أنا منها قائل لسعاد
وان كنت قد بدلت بؤسى بنعمة	يد الدهر عن قوس المنون فؤادي
وان كنت قد بدلت بؤس بنعمة	فقد بدلت عيني قذى برقاد

الى أن يقول :

سلام على الدنيا اذا ما فقدتم	بني برمك من رائحين وغاد .. الخ

وبعد البرامكة أصبح أبو نواس على حال جد مؤلمة من الفقر وسوء الحال ، كما تغير عليه الرشيد وقطع عنه عطاياه ، فكان على وشك أن يبيع ثيابه في سبيل لقمة عياله . عند ذلك قرر الرحيل الى مصر على أمل ان يحصل من أميرها الخصيب على ما يساعده على اعالة أهل بيته وتحقيق أماني بناته في الحياة الكريمة الرخية .

تقول التي عن بيتها خف مركبي عزيز علينا ان نـراك تسـير
أما دون مصر للغنى متطلب بلى ان اسباب الغنى لكثير

وهو اذ يصل مصر ، وينزل عند الخصيب، وينال بعض مبتغاه ، يكتب من مصر الى ابنته « لباب » التي تحمل أهوال السفر في سبيلها وبقية أهل بيته ، مبشرا اياها بالاماني العذاب فيقول :

ذكـر الكـرخ نازح الاوطـان فصـبا صـبوة ، ولات أوان
ليس لي مسعد بمصر على الشـو ق الى أوجـه هنـاك حسـان
نازلات من الصراة فكرخـا يا الى الشط ذي القصور الدواني
اذ « لباب » الامير صدر نهـاري ورواحـي الى بيـوت القيان
يا ابنتي أبشري بميرة مصـر وتمنـي وأسرفي في الامـاني
أنـا في ذمة الخصيب مقيم حيث لا تعتدي صروف الزمـان
قد علقنا من الخصيب حبـالا آمنتنـا طوارق الحدثان ..الخ

ثم يعود بالاحمال المحملة من مصر ليضعها بين أيدي زوجه وبناتها ، ويلتفت الى « لباب » المدللة ولينشدها من أعماق قلبه قائلا :

« لباب تكبري فـوق الجـوازي فـان أباك أعتبه الزمـان »

لكن فرحة اللقاء هذه لم تطل ، اذ لم تمض فترة قصيرة من الزمن حتى أفجعه الزمن بـ « لباب » ذاتها وهي مازالت بعد في عز صباها ، فأي فجيعة هذه التي نزلت بالشاعر العظيم !.. أهذه هي الدنيا ؟ وهل كان رجوعه من مصر بهذه العجالة ليفرح بناته بما امتار لهن ، أم ليشهد مصرع كبراهن ويوسد « لباباً » بيده التراب ؟

والآن ، ما رأي القارىء في ابي نؤاس عندما يرى دموعه سافحة وهو يغادر قبر ابنته الحبيبة ، مسرعا الخطى الى بعض حانات الكرخ وقطربل ، ليغرق همومه واحزانه ، على طريقته ، في بحر من الخمر ؟

ثم يأتيه نعي صديقه وصفيه « والبة » فما عسى ان يفعل أبو نؤاس هذه المرة ؟ هل غير أن يمعن في نفي الحزن والهم بالمزيد من الشراب ؟.. ما هم أصدقاؤه من اكابر الناس وفحول الشعراء ، وأحباؤه من اهل بيته يتخطفهم الموت عاما بعد عام .. انه أين ما ولى وجهه لم ير غـير موتى وذكريات ، وغير موت لا يعفو عن أحد من الناس . واذن ، فلينس هـذا

المصير المحتوم ، وليئس ابنته واصدقاءه ، وليئس ذاته هو بأسهل الطرق مما هو في متناول يديه : الخمرة · لكن أبا نؤاس يطلقها بعد والبة بائية نائحة بقيت تردد من بعده في مآتم بغداد ، وتنوح بها النوائح ، بهذا الشكل أو ذاك ، جيلا بعد جيل :

فاضت دموعك ساكبـــه	جـــزعا لمصرع والبـــه
قــامت بمــوت أبي أســـا	مة في الزقاق النادبــــه
قامت تبــــث من المكـــا	رم غـير قيــل الكــاذبه
فجعـــت بنـــو أســـد به	وبنو نـــزار قاطبـــه
بلســــانها وزعيمهـــــا	عند الامور الحـــازبه
لا تبعدن ، أبـــا أســـا	مـــة فالمنيـــة واجبـــه
كـــل امـــرئ، تغتـــاله	منهـــا ســـهام صـــائبـــه
كتب الفنـــاء على العبـــا	د فكـــل نفس ذاهبـــه
كم من أخ لك قد تركـ	ـت همومـه بك ناصـــبه
قد كان يعظم قبل مـــو	تك ان تنـــوب النائبـــه

على أن « النوائب العظام » لم تترك أبا نؤاس بحال · فلقد جاء دور ابنته الثانية « برة » · وكانت برة لا تقل منزلة في قلبه عن شقيقتها الراحلة « لباب » · كانت سلواه مع اختها الاخرى لبنى في بيته ، وقد كان يتمنى أن تكون ممن يبكيه بعد موته بعد أن فقد من كان يتوقع أن يتوجع لمصرعه من الولد والصحاب ان هو مات ·

ألا ان بنتي بنت من لم ير ابنـــة	ولا ابنـــا سواها قـــد تبر وتؤنس
فيا « بره » بريني حياتي ، وان أمت	فلا تدخريني دمعـــة حين أرمس
فذاك ابن سوء لا يرى لعشيرة	سلاحا ولا يعطى اللواء فـــيرأس
تحب أباها حب من لا أبا له	« تذكره في الصدر وحش فتـــأنس»

والى هذا الحد فقط ؟ ·· لا ·· لا ·· مطلقا · ان « النوائب العظام » مازالت آخذة بخناق هذا الشاعر البائس ، بل وانها اعتزمت هذه المـرة أن تلاحقه الى آخر أيامه وها هي لم تتركه لاحزانه الى هذا المدى ، اذ لم يمض بعض الوقت بعد أن وارى « برة » التراب ، حتى اختطف الموت من بين يديه على حين غرة ابنته الثالثة « لبنى » ·· لبنى الحبيبة التي بقيت شمعة حياته الوحيدة في الدار ·

[« الهي ·· « يا جبار السموات » هل خلت سماواتك والارضين من رحمة !؟ «] ··

هكذا كان يهتف أبو نؤاس في بيته وقد غرق في بحر من الدموع وهو يشهد زوجه تخيط لـ « لبنى » اكفانها ليلة العيد ، بين النواح والعويل ·

ترى أي شاعر مرهف الحس كأبي نؤاس يستطيع مجالدة هذه المصائب والنوائب ؟

بل ما عساه ينشد ويقول وقد لعبت برأسه الخمرة وتذكر « لبنى » وقد أخذ الحزن منه لذكرها كل مأخـذ ؟ أو هل ان هنـاك من امسيات وعشيات بقين للبنى مما يمكنه أن يجالسها فيها ، فهـو يحسن لمرآها ومجالستها كل الحنين ؟.. انه يرد على نفسه وقد استبد به الحزن والشراب أن : « لا .. لقد خلت السموات من الرحمة ! » . والآن ما الذي سيكون رأي القاريء في ابي نواس وهو في هذه الحالة المؤلمة عندما سيقرأ الابيات التالية ؟ هل سيعطيه بعض العذر ، ويقول انه انساق اليها اضطرارا وبدافع من التنفيس عن هذه الاحزان ؟.. الرأي الان للقاريء وليس لي :

يا أحمد المرتجى في كل نائبـة قم سيدي نعص جبار السماوات
وهاكها قهوة صهباء صافية منسوبة لقسري هيت وعـانات
يا ليت حظي [«من مالي ومن ولدي اني أجالس « لبنى » بالعشيات]

ولقد رزق أبو نؤاس بولد بعد هذه الكوارث المحزنة . وكان يتمنى أن يمد الله في عمره ، ويشب ابنه عن الطوق ويبلغ مبلغ الرجال ليخفف عنه بعض ما يكابده من أحزان . لكن الطفل وقد بدأ يتعلم المشي والكلام ، عاجله الموت بضربة لم تترك لابيه معها أملا في راحة أو هدوء بال :

لعمرك ما ابقى لنا الموت باقيـا نقر به عينـا غـداة نـؤوب
كأني وترت المـوت بابن أفاده على حين حـانت كبرة ومشيب

وهكذا كان .. فعندما توفيت لبنى ، كانت أمواله التي حصل عليها من الخصيب ، ومن الامين ، قد بدأت في طريقها الى النضوب والموت ايضا ، خاصة عندما تغير عليه الامين بعد ان راح المأمـون يستقل شخصية أبي نؤاس ، نديم الامين ، في حربه مع أخيه . لذلك سمعناه يردد بلوعة ، وهو « يعصي جبار السموات » ، انه كان يتمنى لو بقيت ابنته « لبنى » فقط ، فتكون من نصيبه ومن « حظه » هو ، لا من نصيب القبر والتراب ، ليتمكن بذلك من تخفيف بعض احزانـه بمجالستها « عند العشيات » ، وينسى بقربها ، ولو الى حين ، ما فقده من مال وبنين :

وها هي المأساة نفسها تتكرر ، وبشكل أعمق ألما ، اذ كان ذلك « على حين حانت كبرة ومشيب » ، وحين اصبح الفقر يصفر في كل ركن من اركان بيته ، فهل تكف عنه يد القدر ، ام ان هناك في لوح الغيب خبر صريع جديد ؟

وكان الدور هذه المرة ، دور الزوج الوفية التي أبت الاقدار الا ان يواريها التراب ، بعد أبنائه جميعا ، بيديه .

ترى أي شاعر شهد مثل هذه المأساة لضخمة غير أبي نؤاس ! لقد نكب الرجل بادىء ذي بدء ، بأمه ذات السلوك الطائش ، ثم بنفسه هو يوم أفسده والبة وغير والبة ، واخيرا بقطع كبده التي كانت تتقطع الواحدة تلو الاخرى بألم بالغ ، عندما راح يواري ابناءه ، أعز ما لديه في الوجود ، ثم زوجه ، التراب تباعا ٠

الحزن ، والفقر ، والوحدة ، والتقدم في السن ، وفقدان الجاه ، وصدود السلطان ، كل ذلك اجتمع على الشاعر العظيم سوية ، فهل هناك في جعبة الايام من سهم جديد توجهه اليه ؟

نعم ٠٠ لقد كان هناك في جعبتها سهم ، أي سهم ! لا بل انها كانت تدخر له الضربة التي قصمت ظهره الى الابد ، وسحقت كيانه الشخصي بصورة نهائية ٠٠ ولقد تمثلت تلك الضربة بمصرع الامين٠ ٠

صحيح ان الامين قد أشاح بوجهه عن ابي نؤاس مضطرا في أواخر أيامه ٠ لكن ابا نؤاس لم يكن ليحقد عليه بسبب ذلك ، اذ انه كان يشعر في قرارة نفسه بانه ملوم الى حد كبير في ما كان يوجه ضد الامين من دعاية في حربه مع المأمون ٠ ولقد كان الامين في الواقع ، قطعة من روح ابي نؤاس ٠ ذلك أن الخليفة الشاب كان ينزل الشاعر منزلة رفيعة في قصره ، اذ كان نديمه ، وصديقه ٠ وكان الامين عزيزا دونما شك ، على ابي نؤاس ، بل وربما كان من هذه الناحية عزيزا عليه كأبنائه ، بالاضافة الى عطاياه له ، وفضل ابيه الرشيد عليه ، وحمايته الواسعة له ٠

وكان أبو نؤاس يحس في قرارة نفسه بما تضمه الأيام له ولصديقه العظيم وذلك من مراقبته لتقلب الاحوال السياسية ، وعدم الاستقرار الذي عم أرجاء البلاد بعد نشوب النزاع بين الاخوين ، أغلب الظن ٠ وهو عندما دخل على الامين ليمدحه بميميته الخالدة ، كان شعوره الباطن ، وسبق الاحساس بالنكبة ، واضحا كل الوضوح عليه للمسحة الحزينة التي طغت على القصيدة ، وهو ما أدى الى انقباض نفس الامين ، الذي اهداه عليها ، وقد بدا الوجوم عليه ، ألف دينار ، ثم أمره بملازمة منزله ، فلا يغادره دون علمه :

يا دار ما فعلت بـــك الايـــام	ضامتك والايام ليس تضـــــام
عرم الزمان على الذين عهـدتهم	بك قاطنين ، وللزمان عــــرام
أيام لا أغشـــى لاهلك منـــزلا	الا مراقبـــة ، علي ظـــــلام
ولقد نهزت مع الغـــواة بدلوهم	واسمت سرح اللهو حيث اساموا
وبلغت ما بلغ امرؤ بشـــبابه	فاذا عصـــارة كل ذاك أثـــام
وتجشمت بي هول كل تنوفـــة	هوجـــاء فيها جراة اقـــدام
تذر المطي وراءها فكأنهـــا	صف تقدمهن وهي امـــام
واذا المطي بنا بلغن محمدا	فظهـــورهن على الرجـــال حرام

قربننا من خير من وطيء الحصى فلهـا علينـا حرمة وذمـام
رفع الحجاب لنا فـلاح لناظري قمـر تقطع دونـه الاوهام
ملك أغر اذا شربت بوجهـه لم يعدك التبجيل والاعظام
فالبهو مشتمل ببدر خلافة لبس الشـباب بنوره الاسلام
سبط البنان اذا احتبى بنجـاده فرع الجماجم والسماط قيـام
ان الذي يرضى الآله بهـديه ملك تردي الملك وهو غـلام
ملك اذا اعتسر الامور مضـى به رأي يفل السيف وهو حسـام
داوى به الله القلوب من العمى حتى أفقن وما بهـن سـقام
أصبحت يا بن زبيدة ابنة جعفر أمـلا لعقد حباله استحكـام
فسلمت للامر الذي ترجى لـه [وتقاعست عن يومك الايـام]

ثم وقعت الواقعة ، وسقطت بغداد بيد جيوش المأمون ، وذبح الامين ، وعلق رأسه على بعض بنايات بغداد العالية لبضعة أيام . وكان ذلك كله يجري تحت سمع أبي نؤاس وبصره ، فهل بقي له شيء يمكن أن يحذر الموت عليه ، أو يأسف لذهابه ؟

طوى الموت ما بيني وبين محمد وليس لما تطوي المنية ناشـر
فلا وصل الا عبرة تستديمهـا أحاديث نفس مالها الدهر ذاكر
وكنت عليه أحذر الموت وحـده فلم يبق لي شيء عليه أحـاذر
لئن عمرت دور بمـن لا أوده فقد عمرت ممن أحب المقـابر

ثم يتلفت حواليه ويتذكر ابناءه وزوجه الذين تخطفهم الموت ، الواحد تلو الاخر ، من يديه ، وتشخص امام ناظريه خيالات وجوههم الجميلة ، ثم يصحو الى نفسه وواقع حاله ، وما هو عليه من فقر وبؤس ، فتتحدر الدموع على خديه بصمت ، ثم ينشد قائلا وقد استبد به الحزن واليأس :

أيا رب وجه في التراب عتيـق ويا رب حسن في التراب رقيـق
ويا رب حزم في التراب ونجـدة ويا رب رأي ، في التراب ، وثيق
فقل لغريب الدار ، انك راحل الى منـزل ناء المحل سـحيق
وما الناس الا هالك وابن هالك وذو نسب في الهالكين عريـق
اذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت لـه عن عدو في ثيـاب صديق

نعم لقد أيقن بعمق ، بعد ذهاب أولاده وزوجه والامين ، انه « غريب الدار » في هذه الدنيا المعادية التي كثيرا ما ظهرت له أيام شبابه « بثوب صديق » . عليه ما كان له بد من الزهد فيها . اذن فليزهد ، وليحج ، ولينزوي بعد ذلك في دار صديقه الوفي ، ورفيقه في مجالس لهوه أيـام شبابه ، محمد بن منصور الصيرفي .

ولقد كان زهد ابي نؤاس ، نابعا عن توبة صادقة ، وقـد قال في الزهد ، على قلة ما بقي له نصيب من العمر ، وعلى الرغم من مرضه المتواصل ،

ما تمنى أبو العتاهية أن يكون له مقابل الكثير من شعره :

يـــا نواســـي تـــوقر	وتعـــزى وتصـــبر
ان يكن ســاءك دهـــر	فبمـــا ســـرك اكثـــر
يا كبير الـــذنب عفـــو الله من ذنبـــك اكبـــر	
اكبر الاشياء من أصغـــر عفـــو الله أصـــغر	
ليس للانســـان الا	ما قضـــى الله وقـــدر

على ان اساءة الدهر لابي نؤاس كانت في الواقع نكبات ضخام ، فهل تراه يستطيع « التعزي ، والتصبر ؟ » .

كان يتعزى ويتصبر يوم يصاب بنكبة قبل مصرع الامين ، بالجوء الى الشراب والاغراق فيه ، ليتسى نفسه وهمومه وعظم مصابه ، مواصلا في ذلك الليل بالنهار ، فكيف به الان وقد التزم الزهد في نفس الوقت الذي بلغت فيه مصائبه الاوج ؟

وهل هناك من عزاء اكثر تهدئة للنفس ، وطمأنة لها ، من الالتجاء الى باب الله والامل في رحمته ورضوانه ؟ ٠٠ هكذا كان يفكر أبو نؤاس وهو يتطلع بنفسه الكسيرة ، وقلبه الجريح ، وفكره الامل ، الى المسير الى بيت الله الحرام ٠

وعند البيت العتيق ، بعد أن أحرم أبو نؤاس ، كان الذي شهد الحج في بعض سني العقد العاشر من القرن الهجري الثاني ، يرى شاعر عصره الاكبر وقد تجمع حوله جمع غفير من الزاهدين وهو يردد ملبيا تحت جنح الليل تلبيته الخالدة التي بقيت تردد في مواسم الحج على مر العصور ، وحتى هذا اليوم :

الهنـــا ، مـــا أعـــدلك	مليك كل من ملـــك
لبيك ، قد لبيت لـــك	لبيك ، ان الحمد لـــك
والملـــك ، لا شـــريك لـــك	ما خـــاب عبـــد سألك ،
أنت له حيـــث ســـلك	لـــولاك ، يا رب ، هلـــك
لبيك ، ان الحمـــد لـــك ،	والملك ، لا شريك لك ٠
كل نبـــي وملـــك ،	وكل من أهـــل لـــك ،
وكل عبـــد ســـألك ،	ســـبح أو لبـــى فلك ٠
لبيـــك ان الحمـــد لك ،	والملك ، لا شـــريك لـــك ٠
والليل لما أن حلـــك ،	والسابحات في الفلك ،
عـــلى مجاري المنســـلك ،	لبيك ان الحمد لك ،
والملك ، لا شريك لك ٠	يا خاطئـــا ما أغفلك !:
اعمـــل وبـــادر أجلك ،	واختـــم بخـــير عملك ٠
لبيك ، ان الحمـــد لـــك ،	والملك ، لا شـــريك لك ٠

وبهذه المناسبة ، فان الرواية التي تقول أن أبا نؤاس قد حج كي يجمعه الركب المتجه الى بت الله بجنان لتي زعم الرواة أنه كان يعشقها لحد الوله ، مرفوضة أصلا ، اذ لا يمكن لشاب أدمن على اللهو والشراب بالدرجة التي أدمن واغرق بها أبو نؤاس ، أن يمتنع عن الشراب مدة تلك الشهور الطويلة التي يستغرقها الذهاب والاياب من الحج • أضف الى ذلك ان أبا نؤاس لم يكن من ذوي الحب لعذري • بل وعلى العكس من ذلك ، فان ديوانه يؤكد لك بما لا يترك اي مجال للشك ، أن الرجل كان يتعشق الجمال من أجل اللذة الجنسية الخالصة دون أي شيء اخر ، وهو ما ينفي اطلاقا من أن أبا نؤاس كان قد تحمل مشاق السفر مفضلا ذلك على عالم اللهو والعبث الجنسي والشراب في مواخير بغداد ، ليتطلع مجرد تطلع ، من بعيد لبعيد الى جارية ، شأنه في ذلك شأن العشاق الجبناء •• لا ، ان ذلك لم يكن من شيم ابي نؤاس في دنيا الجواري والغلمان بحال ، فالرجل ، والحق يقال ، كان فارس ميدان ، ما في ذلك شك •

ومهما تكن الحال فان ما أورثه اياه فرط اللهو والشراب من ضعف ، بالاضافة الى ما توالى عليه من نكبات ، ثم مشاق السفر الطويل وقد تقدمت به السن ، كل ذلك قد أضر بصحته كثيرا • وعندما أشرف الحجيج على الكرخ ، كان أبو نؤاس يغالب مرضه ، اذ كان مصابا بالتهابات معوية ، كما كان يشعر بأنه بحاجة الى من يسهر على راحته ، فكان أن اتجه الى دار أعز من بقي له من الاصدقاء ، الصيرفي الثري ، محمد بن منصور الذي قال فيه يوما عندما كان يواصل ليله بنهاره في داره أيام اللهو والشراب :

وندمان يرى غبنـــا عليـــه	بأن يبقى وليس بـــه انتشـــاء
اذا ناديته من نوم ســـكر	كفـــاه مرة منـــك النـــداء
وليس بقائل لك : ايه دعنـــي	ولا مستخبراً لك ما تشـاء
ولكن : أسقني ، ويقول ايضا :	عليك الصرف ان اعيـــاك داء
اذا ما أدركتـــه الظهر صـــلى	فـــلا عصـــر عليـــه ولا مساء
يصلي هـــذه في وقت هـــذي	فكل صلاته أبـــدا قضـــاء
فذاك محمـــد تفديه نفسي	وحـــق له ، وقل لـــه الفـــداء

ولقد استقبله ابن منصور في داره كاعز ما يستقبل به أخ أو صديق ، وانزله من الدار أحسن مكان ، وأفرد له غرفة خاصة ، وعين له أحد خدمه من المتأدبين للسهر على راحته وتلبية طلباته •

وعندما اصبح أبو نؤاس على سرير المرض ، وايقن انه لن يغادر بيت صديقه قبل ان تغادره روحه قال :

كـــن مـــع الله يكن لـــك	واتـــق الله لعلـــك
لا تـــكن الا معـــدا	للمنـــايا أو كـــأنك

ان للمـــوت لسهمـــا واقعـــا دونك أو بك
فعـــلى الله توكـــل وبتقواه تمسـك ... الخ

وكان الذي يشاهد الشاعر في ايامه الاخيرة في دار ابن منصور ، وقد استبد به الداء ورياح الموت يزحف نحوه يوما بعد يوم ، يراه دائم الأستغفار لنفسه وهو يتقلب على فراش المرض . أو انه يسمعه يردد مع نفسه بصوت خفيض بعض ما نظمه من زهدياته وقد أخذ منه الحزن كل مأخذ :

ألا يا موت لم أر منك بـــدا قســـوت فما تكف وما تحابي
كأنك قد هجمت عـــلى حياتي كما هجـــم المشيب على الشباب
وانك يا زمـــان لذو صـــروف وانك يا زمان لـــذو انقـلاب
تقلدت العظـــام من الخطـــايا كأني قـــد أمنت من العقـــاب
سأسأل عن أمور كنت فيهـــا فما عذري هنـــاك وما جوابي ؟

أو قوله وهو يتصور يوم الحساب :

أيا من ليس لي منـــه مجـــير بعفوك من عذابك اســـتجير
أنا العبـــد المقـــر بكل ذنب وانت السيد المولى الغفـــور
فأن عـــذبتني فبســـوء فعلي وان تغفر ، فأنت به جـــدير
أفـــر اليك منـــك واين الا يفر اليك منك المستجير ؟

أو قوله ، وقد راعه الوقوف بين يديه سبحانه :

يا رب ، ان عظمت ذنوبي كثرة فلقد علمت بأن عفـــوك أعظـــم
ان كان لا يرجـــوك الا محسن فبمـــن يلوذ ويستجير المجـــرم
أدعوك ، رب ، كما أمرت تضرعا فاذا رددت يدي فمن ذا يرحم ؟
ما لي اليك وسيلة الا الرجـــا وجميل عفوك ، ثـــم اني مسلم

لكن المرض يشتد به ويبدأ في استنفاد اخر طاقاته وقواه ، فيقـــول بجهد :

دب في الســـقام سـفلا وعلوا وأراني أموت عضوا فعضوا
ليس تمضي من لحظـــة بي الا نقصتني بمرها في جـــزوا
ذهبت جتي بطـــاعة نفسي وتذكرت طاعـــة الله نضـــوا
لهف نفسي عـــلى ليال وأيـــا م تجاوزتهن لعبا ولهـــوا
قد أسأنا كل الاساءة ، فاللـــــهم صفحا عنا ، وغفـــرا وعفـــوا

وهو اذ يقف على قيد خطوات من نهايته الفاجعة ، يسرح به الخيال تحت وطأة الحمى ، الى زوجه وأطفاله فيتصور أنهم ينادونه فـلا يستطيع سماعهم ، أو يقلبونه على فراش موته ، ويعطرونه ، ويشيعونه الى القبر . ثم يشخص في ذهنه خيال يوم الحشر فيقول وهو يردد سكرات الموت :

أصبر لمر حوادث الدهر ... فلتحمدن مغبة الصبر
فكأن أهلك قد دعوك فلم ... تسمع وأنت محشرج الصدر
وكأنهم قد عطروك بما ... يتزود الهلكى من العطر
وكأنهم قد قلبوك على ... ظهر السرير وظلمة القبر
يا ليت شعري كيف أنت على ... ظهر السرير وانت لا تدري ؟
أو ليت شعرنا كيف أنت اذا ... وضع الحساب صبيحة الحشر ؟

وعندما صحا الشاعر بعد سكرات طويلة عالجها بمرارة على فراش الموت ، اعتدل في فراشه بعض الشيء ومد يده الى وساده ، فاخرج قرطاسا عليه أبيات نظمها أيام كان يتردد على زيارة قبور بنيه وزوجه المتجاورة الى بعضها ، في مقبرة الشونيزي على نهر عيسى ، اذ كان يرى في مصارعهم ، مصرعه هو ذاته ، وفي قبورهم ، قبره أيضا ، وطلب من صديقه ابن منصور الذى كان الى جانبه يوم اسلم الروح ، أن تكتب على قبره الى جوار قبور بنيه :

وعظتك أحداث صمت ... ونعتك أزمنة خفت
وتكلمت عن أوجه ... تبلى وعن صور سبت
وأرتك قبرك في القبو ... ر وأنت حي لم تمت

ثم صلي على جثمانه بنو نوبخت ، من كان صديقا له ، ومن كان خصيما • بل وانهم قبل الصلاة اختصموا فيما بينهم جميعا في أي من اكفانهم سيدرج • ذلك ان كلا منهم قد اصطحب معه كفنا عند تقاطرهم على دار الصيرفي بعد سماعهم خبر وفاته ، أملا في التكفير عن بعض ما ناله منهم بصورة عامة من أذى • ويروي ابن منظور ، أن الجميع اتفقوا على أن يكفن بجميع ما أحضروه من اكفان حلا للنزاع •

وقبل أن يخاط كفنه الاخير عليه ، تناول أبن منصور الصيرفي ، ودموعه سافحة على خديه ، ورقة وجدها تحت الوسادة في فراشه ، فدسها في اكفانه ، وقد كان فيها قوله :

أيا رب ، قد أحسنت عودا وبدأة ... الي فلم ينهض باحسانك الشكر
فمن كان ذا عذر لديك وحجة ... فعذري اقراري بأن ليس لي عذر

●

نحو الثورة في عمان

عبد الله محمد الطائي

على اكبادنا دوسوا وحلوا ... فليس يعز دونكم محل

عمان لكم فراش من حرير ... فناموا واستقروا واستغلوا

فليس بارضها حتى ذباب ... يطن وما بها بشر يطل

فان آخذتم حسرا بقول ... فملء قلاعكم سجن وقفل

وان اذاكم بطل بفعل ... فاهون ما يكف اذاه قتل

فانتم ههنا اصحاب رأي ... سيوف نفوذه ليست تفل

لكم حكم البلاد ومن عليها ... وللاهلين تشريد وغل

افيها بقعة لم يقتحمها ... جنودكم فعز بها محل

«مياجركم» على الصحراء صاروا ... ذوي باس لهم صول وطول

فليس البدو مازن في حماها ... فمن دحر الغزاة البدو ملوا

فيا للعرب في وطني اجيبوا ... احقا انتم للخصم حل

يسومكم الهوان على امان ... بداركم فلا يردعه عقل

اتى كالفار يهرب من مصير ... فطاب له هنا ملجا ونزل

يجول بأرضنا شرقا وغربا ... كأن جنوده في الدار أهل

فلم تحصرهم ثكنات جيش ... ولم يمنعهم حد وعزل

ففي الافلاج(١) هم اسماك ماء ... وفي الصحراء ذئاب تستحل

يجوسون الديار على امان ... سواء عندهم نجد وسهل

تراهم في السواحل والاعالي ... يهينون المواطن حيث حلوا

فيا للخزي عل أضحت عمان ... بقبضة خصمها شاة تذل

اليس يهزها ماض مجيد ... ذرى امجاده بالفخر تعلو

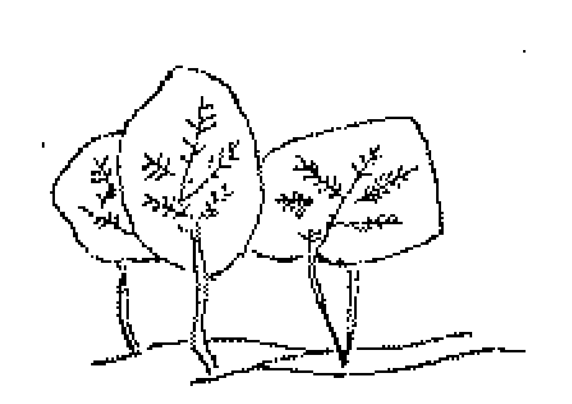
---

(١) الفلج في عمان عين الماء الجارية .

فيا أبناءهـــا نسمــت جـدود ... لكم شادت فكيف يخيب نسل
اصيخوا للنداء فقـد تبـــدى ... باســـم الثورة الكبرى يهــل
اذكركـم بابطـــال تنـــادوا ... على ثبج المحيـط فلم يكلـوا
اشادوا للعروبـة صـرح مجـد ... كـأن سفينهم للمجـــد ظــل
شباب عمان قد هـانت عمــان ... فهل فيكم فتى للـرزء يجلــو

*

اراضينــا غدت ثكنـــات جيش ... ومن ابنائها الابـرار تخلـــو
يعيث الانجليـــز بهـا فسادا ... وما عيش بهـا للحر يحلـــو
فهل نلقي بكم ابطـال حـرب ... عـــلى وثباتهـــم ينـزاح ذل
رأوا وطنا لدى الاعدا صـريعا ... فطـاب بعزمهـــم راى وفعـــل
فليس لهــم بموطننا مقـــام ... ولــن يجـــدوه حقلا يستغـــل
ولــكن معقـــلا للعرب فيـــه ... ســيوف في ملمتهـــا تســـل
يظلـل ارضه حكـــم رشــيد ... وفي ارجائـه يلتـــام شـــمل



مناهج البحث الغربية في التاريخ الاسلامي

أحمد نصيف الجنابي

القسم الاول : في المنهج

طبيعة التاريخ الاسلامي : التاريخ الاسلامي تاريخ عقيدة ينبثق عنها نظام معين للحياة كلها . من هذه النقطة يبدأ التاريخ الاسلامي وحضارته . فلولا الاسلام لما وجد مسلمون ولا تاريخ اسلامي ولا حضارة اسلامية . أليست هذه حقيقة ؟ فلماذا يفسر التاريخ الاسلامي على غير هذا الاساس ؟ ولماذا تعتمد على مناهج لا تستوحي الاسلام ، بل تعاديه ، وتخالفه ، وتناقضه في اسسها الفكرية والمنهجية ؟

ان الفكر النزيه الفاحص للتاريخ الاسلامي يراه يستعصي على التفسير وفق مناهج البحث غير الاسلامية مهما كان لونها ومصدرها . وهذه حقيقة لا يمكن أن يخطئها باحث جاد أو مؤرخ منصف . لان طبيعة التاريخ الاسلامي لا يمكن أن يدركها الا مسلم حقا لا زيفا ولا اسما . فكيف يدركها غير المسلم حتى ولو صحت نيته وسلمت نفسه من الحقد والكراهية . وبناء على هذه الحقيقة نقرر :

(١) ان التاريخ الاسلامي يجب أن يفسر على أساس النظرة الاسلامية للحياة الانسانية . وكل تفسير يقوم على غير هذا الاساس ضرب من الخطأ العلمي لا يجوز أن يرتكبه باحث جاد او مؤرخ يبتغي وجه الحق وحده .

(٢) أن تقوم بهذا التفسير اقلام مسلمة أو قل مؤرخون مسلمون يؤمنون بالاسلام حبا ويستوعبون مفاهيمه تطبيقا . لا أن تكون هذه الاقلام مسلمة في جنسيتها وغربية في افكارها وعقيدتها ومفاهيمها .

أما المسلم الذي يفكر بعقل غربي ، فهو غريب على التفكير الاسلامي وبالتالي فان تفسيره سيكون مولودا مشوها .

وان كل مؤرخ غير مسلم يفسر التاريخ الاسلامي وفق منهج غربي يقع في أخطاء أصيلة ناتجة عن تطبيق « منهج بحث » وضع في الاساس لغير التاريخ الاسلامي . وان الصلة بين مناهج البحث والمجتمع الذي يعيش فيه المؤرخ والحضارة التي ينتمي اليها ، قوية جدا لان « المؤرخ كائن فرد ، وهو كذلك مثل الافراد الاخرين ظاهرة اجتماعية »(١) . فهو حصيلة المجتمع

الذي ينتمي اليه والناطق الشعوري واللاشعوري باسمه ، وهو يتناول وقائع الماضي التاريخي وفقا لهذه القدرة(٢) . ولهذا فانك لا تستطيع أن تفهم عمل المؤرخ تماما الا اذا أدركت وجهة النظر التي اعتمد عليها ، لان وجهة النظر تنتمي الى اساس اجتماعي وتأريخي(٣) . وما دام الانسان الاوربي ينتمي الى حضارة تختلف في طبيعتها عن الحضارة الاسلامية ويعيش في مجتمع يختلف في نظرته الى الحياة والانسان والتأريخ الانساني ، بل له تأريخه الخاص به والذي يتكيف ونظرته الى الكون والحياة والانسان ، فانه بالتالي ينظر الى التأريخ نظرة تختلف في جوهرها عن نظرة المسلم . فهنساك اختلاف في وجهات النظر بينهما وبالتالي بين احكامهما وتفسيرهما للحياة والتاريخ الانساني .

طبيعة المناهج الغربية : ان روح الحضارة الغربية قائم على اساس وطبيعة المناهج الاسلامية « تجزئة الكون والطبيعة » أو الفصل بين « الله والطبيعة » و « العلم والدين » ويبرز ذلك في مؤلفات مشاهير الغرب(٤) أما روح الثقافة الاسلامية وحضارتها فقائم على أساس وحدة الكون وانسجام قوى الطبيعة واتساقها . وان الاسلام هو النظام الوحيد الذي يحقق هذا الانسجام لانه يجمع بين الروح والجسد في نظام الانسان ، والعبادة والعمل في نظام الحياة والدنيا والاخرة في نظام الدين والسماء والارض في نظام الكون ويسلكها في طريق واحد ... هو الطريق الى الله . ان الاسلام ــ الاسلام وحده ــ هو الذي يجمع بين العلم والدين في وحدة تامة متناسقة . وربنا العظيم يقول : « انما يخشى الله من عباده العلماء » فأي جمع بين العلم والدين والعقيدة والفكر ، بل وخشية الله وروح العلم هذا ! والتاريخ الاسلامي حافل باسماء الالوف من الافذاذ الذين كانوا منارا في العقيدة ومرجعا في البحث العلمي ولا تجد مثل هذه الكثرة في تأريخ غير المسلمين .

ويوضح باحث اوربي الاصل ــ عانى التجربة الدينية في الاسلام فاسلم ــ الفرق بين وجهة النظر الاسلامية والغربية فيقول : « ان وجهة النظر الاسلامية مخالفة على كل حال لوجهة النظر الغربية الآلية . اذ ان الاسلام يعتبر وجود الامكان الروحي لمجموع البشر صفة كامنة : أي أنه شيء وضع في بناء الطبيعة البشرية . ولا يسلم ابدا ــ كما يفعل الغرب ــ بان الطبيعة تخضع لعملية تبدل ارتقائي كالذي يحدث للشجرة ــ مثلا ــ في نموها . ذلك لان اساس تسلك الطبيعة » اي النفس الانسانية » ليس كمية عضوية فحسب . والخطأ الاساسي في التفكير الاوربي الحديث ناتج عن اعتبار التزيد من المعرفة المادية ومن الرفاهية مرادفا للترقي الانساني الروحي والادبي . وذلك يقوم على جحود الغربيين لوجود نفس مفارقة للمادة منفصلة عنها ومخالفة لها . اما الاسلام الذي بني على أوجه من الادراك

المطلق فانه يعتبر وجود النفس حقيقة لا تقبل النقاش »(٥) . والسبب في هجر الاوربيين للافكار المطلقة ، أن الفكر الاوربي في هروبه من الكنيسة ورغبته الخفية والظاهرة في خلع نيرها قد مال الى نفي فكرة « الثبات » على الاطلاق واستعاض عنها بفكرة « التطور » على الاطلاق(٦) .

وفكرة « التطور المطلق » لكل الاوضاع ولكل القيم ولاصل التصور الذي ترجع اليه القيم ، فكرة تناقض الاصل الواضح في بناء الكـون ، وفي بناء الفطرة الانسانية . فمادة الكون سواء كانت الذرة أم الاشعاع البسيط المنطلق عند تحطيمها أو آية صورة اخرى ثابتـة الماهية تتحرك حـول محور ثابت لا يتغير مطلقا . والذرة ذات نواة ثابتة(٧) . ولكل ذرة عدد ذري ثابت ولكل عنصر عدد ثابت من الالكترونات لا يتغير مطلقا .

ولو نظرنا الى التاريخ القائم على أساس التغير المطلق والتطور المطلق وجدناه أشبه « بموديلات » الملابس النسائية تخضع للايام ثم تتبدل ليحل محلها لون آخر بحجة التطور الذي هو في حقيقته اضطراب وعدم اهتداء الى طريق سوي . وعدم اهتداء الى تفسير قائم على أساس ثابت مطلق .

وقيمة وجود تصور ثابت للمقومات والقيم ضروري جدا ، ووجـه الضرورة هو ضبط الحركة البشرية ووجود مقوم للفكر الانساني : مقـوم منضبط بذاته ، يمكن أن يضبط به الفكر الانساني منهجيا فلا تتأرجح به الشهوات والمؤثرات فتحركه ذات اليمين وذات الشمال دون أن يستطيع ثباتا . كما حركت « مانيكه » المؤرخ الالماني المعروف وغيره من الغربيين فمانيكه كتب مؤلفات عديدة عن تاريخ المانية . ولكنك لا تجد منهجـا يجمعها . فهناك في الحقيقة أربع نماذج من التفكير أو من مانيكه ! لان كلا منها يعبر عن عصر تأريخي عاشه « مانيكه » وخضع لمؤثراته دون أن يكون له ضابط من فكر ثابت وعقيدة مطلقة وتصورات ثابتة يفسر التأريخ على أساسها (كما هي الحال في الاسلام) .

فمانيكه في كتابه « العالمية والدولة القومية » (الذي نشره سنة ١٩٠٧) يرى باخلاص أن « الرايخ الالماني البسماركي » قد حقق « المثل الالمانيـة القومية » .

ومانيكه الثاني هو ناشر كتاب « فكرة منطق الدولة » (سنة ١٩٢٥) حيث تكلم بعقلية جمهورية « فايمار » (Weimar) الممزقة الحائرة . اذ أصبح عالم السياسة حلبة صراع لم تحل بين منطق الدولة واخلاق خارجية عن السياسة .

ومانيكه الثالث هو مؤلف «بزوغ النزعة التاريخية : الذي كتبـه (سنة ١٩٣٦) عندما جرفه التيار النازي من وظيفته العلمية الاكاديمية ! وهو يتأوه ويصيح صيحة يأس رافضا أية نزعة تاريخية ! يبدو انها تعترف بان «كل ماهو كائن حق» وتتأرجح بقلق بين النسبية التاريخية ومطلق

ما فوق العقل .

واخيرا رأى مانيكه في شيخوخة بلاده وهي تخضع لهزيمة عسكرية اكثر سحقا من هزيمة (١٩١٨) . فانتكس يائسا في كتابه «الكارثة الالمانية» (الذي نشره سنة ١٩٤٦) حيث يعلن اعتقاده في تاريخ يخضع لرحمة المصادفة العمياء (٨) ...!!

الفروق بين المنهجين : بما أن مناهج البحث وكافة ماينتج عنها من مباحث صادرة عن تصورات الانسان المؤرخ ومعتقداته : عن اعماق نفسه واغوارها الممتدة الى ما وراء اللاشعور ، عن لون الحضارة التي يعيشها . ولما كانت الامة المسلمة ذات حضارة خاصة ناتجة عن نظام خاص ، يكيف حياة المسلمين ومشاعرهم ومعتقداتهم والوان سلوكهم . امة ذات (ايديولوجية) خاصة في نظرتها الى «الكون والحياة والانسان» ولما كان من المستحيل تصور امكان دراسة الحياة الاسلامية والتاريخ الاسلامي دون ربطهما بالعقيدة الاسلامية – لان الحياة الاسلامية والتاريخ الاسلامي انبثقا كما عرفنا عن هذه العقيدة ادركنا بعد الشقة بين مناهج البحث الغربية والاسلامية . وساوضح في السطور الاتية اهم الفروق بين المنهج الاسلامي لتفسير التاريخ والمنهج الغربي (وكافة المناهج غير الاسلامية مهما تعددت اسماؤها) وسأتناول نتائج التفسيرات الغربية للتاريخ الاسلامي بالبحث عند من تناولوا التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية من الغربيين امثال « فون كريمر » و « فلهاوزن » و« اوليري » و « منتكمري واط » و« توينبي » . فاما الاربعة الاوائل فسأتناولهم بصورة مجملة . اما الاخير فسأعقد له القسم الثاني .

* * *

تتصف مناهج البحث الغربية بصفات اساسية تجعلها غير صالحة للتطبيق على التاريخ الاسلامي والحياة الاسلامية ، لانها تنتج بحوثا مشوهة وبعيدة كل البعد عن روح الاسلام وتاريخه . وأهم هذه الصفات :

(١) ابعاد الجانب الروحي : ان المدنية الغربية والحضارة الغربية قائمة على اساس مادي بحت . فهي متنكرة لكل ما هو روحي لا يخضع للتجارب الالية او لا يدخل في مجال الحياة المادية . ان المدنية الغربية لاتجحد الله ولكنها لاترى مكانا ولا فائدة له في نظامها الفكري الحالي . و « لقد اصطنعت فضيلة من العجز الفكري»(١٠) في الانسان – اى من عجزه عن الاحاطة بمجموع الحياة – فأصبح الاوروبي الحديث يميل الى ان ينسب الاهمية العملية الى تلك الافكار التي تقع في نطاق العلوم التجريبية او تلك التي ينتظر منها على الاقل أن تؤثر في صلات الانسان الاجتماعية بطريقة ملموسة . وبما ان قضية وجود الله لا تقع تحت هذا الوجه او ذاك ، فان العقل الاوربي يميل بداءة الى اسقاط الله من دائرة الاعتبارات

العملية • وان الاوربي العادي سواء كان ديمقراطيا ام بلشفيا صانعا ام مفكرا ، يعرف دينا ايجابيا واحدا هو التعبد للرقي المادي • أي الاعتقاد بأن ليس في الحياة هدف آخر سوى جعل هذه الحياة نفسها أيسر فأيسر ، وان هياكل هذه الديانة انما هي المصانع العظيمة ودور السينما والمختبرات الكيمياوية وباحات الرقص واماكن توليد الكهرباء • اما كهنة هذه الديانة الحقيقيون فهم الصيارفة والمهندسون وكواكب السينما وقادة الصناعة وابطال الطيران[١١] • بينما يؤمن المؤرخ المسلم (وكل مسلم يفهم اسلامه ويؤمن به ايمانا صادقا) ان الكون بما فيه في رعاية الله وحفظه ولولا رعايته بالكون لفسدت السموات والارض ومن فيهن (ان الله يمسك السموات والارض ان تزولا ولئن زالتا ان امسكهما من احد من بعده) • ويؤمن بان الله قادر على كل شيء فهو يسير التاريخ وفق ارادته هو • فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن • وفي القرآن العظيم نماذج من تأريخ الانسان على سطح الارض تتبين فيها يد الله في تسيير دفة التاريخ وتوجيهها وفق ما يريد ويختار • اما الاسباب فالانسان مأمور بالاخذ بها ••• والسعي في الارض لتحقيق ارادة الله لان الجزاء قائم على العمل ونوعيته (وان ليس للانسان الا ما سعى • وان سعيه سوف يرى • ثم يجزاه الجزاء الاوفى) • لكن الاسباب تفتقر في عملها الى الله ، فهي لا تعمل بذاتها وانما بقدرة الله وارادته والقرآن العظيم يؤكد هذه الظاهرة في كثير من المواضيع • يؤكدها في قصة (ابراهيم) الذي لم تعمل فيه النار بالاحراق مع أن الظاهر يوحي بان النار تحرق الاجسام القابلة للاحتراق كجسم الانسان ••• فلماذا لم تحرق النار (ابراهيم) عليه السلام ؟ ان الله أراد ذلك وقال لها : (كوني بردا وسلاما على ابراهيم) • وفي قصة (موسى) عليه السلام ، بيان واي بيان فالبحر الذي أغرق (فرعون) اغرقه بأمر من الله وبارادته • ولم يغرق (موسى) ومن معه من المؤمنين • والبحر هو البحر • ان الله اراد لهم النجاة « وانجينا موسى ومن معه اجمعين• ثم اغرقنا الاخرين » • (سورة الشعراء: ٦٥-٦٦) ، والفعلان المتعديان في (انجينا ، واغرقنا) واضحة الدلالة على تدخل ارادة الله في تسيير دفة التاريخ وفق ما يريد ويختار (وربك يفعل ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة) على حد تعبير الله المعجز •

ومازال القرآن الكريم يعمق هذا المعنى ويكرره في صور شتى حتى يثبت في نفوس المؤمنين هذه السنة الالهية • وهذا ما كان مع المؤمنين في كل زمان ومكان •

ففي (بدر الكبرى) أول جولة للمسلمين – جماعة – مع الكفار ، تتدخل ارادة الله صراحة وبوضوح لتسيير دفة المعركة ليكون النصر للمؤمنين ••• والمعركة من أولها الى آخرها كانت تحت رعاية الله والقرآن صريح غاية الصراحة ففي سورة (الانفال) نقرأ قوله تعالى حكاية عن (بدر) :

(كما اخرجك ربك من بيتك بالحق وان فريقا من المؤمنين لكارهون . يجادلونك في الحق بعدما تبين كانما يساقون الى الموت وهم ينظرون . واذ يعدكم الله احدى الطائفتين انها لكم وتودون ان غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين . ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون) [آيات : ٥ــ٨] . وهل هناك اصرح وأوضح وابين من قوله تعالى ــ في السورة نفسها وفي المناسبة ذاتها ــ في تأكيد هذه الحقيقة وهي ان كل ما يحدث في الكون فانما يحدث بامر الله وتحت رعايته (فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى) .[الانفال : آية ١٧] .

وحين يرى المسلمون انهم ينصرون بكثرتهم وعددهم لا بنصر الله لهم فانه يريهم الهزيمة وهم كثير . ليرجعوا الى صوابهم ويدركوا الحقيقة التي اغفلوها . ففي (حنين او هوازن) كان المسلمون اثنى عشر الفا(١٣) اي انهم ازدادوا بنسبة ١:٣٩ أو ان الواحد أصبح أربعينا بالنسبة الى العدد في (بدر) . ومع ذلك فقد هزموا اول المعركة لولا ان تدركهم عناية الله ورعايته . فاراهم الله أن الكثرة المغترة قد تكون سببا في الهزيمة . ولهذا ذكرهم بما كانوا عليه في بدر : قليل عددهم قليل متاعهم (ولقد نصركم الله ببدر وانتم اذلة فاتقوا الله)! وذكرهم بنصره لهم في غير (بدر) . وليس لهم قدرة على النصر . فلماذا نسوا هذه الحقيقة ؟ اذن فليهزموا حتى يرجعوا الى الصواب . (لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين اذ اعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الارض بما رحبت ثم وليتم مدبرين . ثم انزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وانزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين) . [التوبة ، آي : ٢٥ــ٢٦] .

اما ادراك هذه الحقيقة عند الغربيين فمن اكثر الامور بعدا عن التفكير الغربي والحضارة الغربية والروح الغربية عامة .

ولما كانت الحوادث تتطلب من الباحث استجابة كاملة لوقوعها وتتطلب من الباحث ان يكون لديه الاستعداد الكامل لادراك مقومات الحياة باجمعها وان يفتح روحه وحسه للحادثة . وبما ان الغربي يتلقى حوادث التاريخ وهو معطل الروح مغلق النفس امكننا ان ندرك مدى (النقص) الذي يشوب تفسير حوادث التاريخ الاسلامي على ايدي هؤلاء وتلامذتهم في الشرق الاسلامي .

وأول نتائج هذا (التصور الناقص) عند الباحثين الاوربيين عامة والمستشرقين خاصة ، واشدها خطرا : (انكار الوحي الالهي) ، ويترتب على هذا المبدأ الخطير جدا ، المخالف للاسلام اساسا ــ اذ لو اعتقده مسلم لخرج على الاسلام خروجا كاملا ــ (اعتبار الشخصية النبوية هي الاصل في ايجاد مبادىء الدين) . وعلى هذا يكون الاسلام ــ بداهة ــ من تأليف(محمد)

أو بنات افكاره كما يصرح بذلك (بوهل) كاتب مادة (محمد) في دائـرة المعارف الاسلامية (١٣) . او من تصميم (محمد) وتأليفه كما يصرح بذلك (توينبي) في كتابه المشهور (بحث في التاريخ)(١٤) . وهذه النتيجة وما لازمها بارزة في كافة البحوث الغربية في التاريخ الاسلامية . وبحوث تابعيهم فكريا في الشرق الاسلامي .

فالقرآن — في زعمهم — من تأليف محمد ذاته ومن بنات افكاره . ومحمد هو الاساس في تكوين مبادىء الاسلام . وهو الباني لهذا الدين والداعي اليه ذاتيا لم ينزل عليه بذلك وحي ولم يأمره بذلك الرب جل وعلا . بل هو انسان احب ان يدعو قومه — بعد أن أخذ عن اليهودية والنصرانية(١٥) الى مبادىء احبها شخصيا — بعد ان هذبها ليقيم على اساسها دينا قوميا ! كما يدعي (فلهاوزن) في معرض الحديث عن تحويل القبلة .. في كتابه (الدولة العربية وسقوطها) .

(٢) اختلاف زاوية النظر : عندما تختلف حضارتان في قيمهما وفي نظرتهما للاشياء تختلف زوايا النظر عند باحثين ينتمي كل منهما الى واحدة . ولما كان الغربيون يعتبرون اوربا محور العالم ، فكل ما هو غير غربي فهو غير جدير بالاعتبار وليس بذي قيمة وليس له من «الاصالة» شيء .

وهذه النظرة المتحيزة ذات أثر بعيد في بحوث الغربيين في التـــاريخ الاسلامي . وقد اعترف (هنري فرانكفورت)(١٦) ان (توينبي) قد ابتعد عن الفهم الصحيح لانه طبق افتراضات تستجيب لحاجات عاطفية في الغـرب على مجموعة بشرية تنظر الى القيم من زاوية مختلفة . وحين يعلن توينبي أن ديناميكية الحضارة الغربية تنطبق على الحضارة العالمية فهو لا يستطيع ان يفعل ذلك الا بتجاهل شكل الحضارات غير الغربية ، مع أن الفهـم الصحيح يصبح في هذه الحالة مستحيلا على حد تعبير فرانكفورت(١٦) . وقد اصبحت نظرة الغربي باحتقار الى كل ما هو غير صفة عامة بمـرور الزمن واحدى المميزات البارزة في المدنية الغربية . من اجل هذا كان تاريخ الاوربيين الوصفي للعالم ليس في الحقيقة الا تاريخا مفضلا للغرب . ولم يحسب لغير الشعوب الاوربية حسابا الا اذا كان لوجودهم وتقدمهـم تأثير مباشر في أوربا)(١٧) . ومن اجل هـذا — ايضا — ينفي الباحثـون الغربيون كل ابداع في العلم او الفن او الادب عن المسلمين وحضارتهم .

فالقرآن في زعمهم متأثر بالتعاليم اليهودية والنصرانية ... ومحمد ليس اصيلا من تعاليمه ومبادئه ، بل هو معتمد على الحضارة الرومانية ولم تكن مهمته سوى نقل أهم مبادىء تلك الحضارة واضفاء لباس عربي عليها . والقانون الاسلامي متأثر بالقانون الروماني(١٨) .

فالمستشرق (تور أندريه) الذي يرى في نفسه أنه منصف لمحمـد

ويصرح بذلك في نهاية كتابه : (حياة محمد وتعاليمه)(١٩) ، يزعم في مقدمة الكتاب ذاته انه (ليكن «مؤكدا» أنه يمكن القول غالبا : ان محمدا كانت تنقصه الاصالة • ولذلك فلا يستطيع المرء أن يتكلم عن الابداع في الحالة التي أخذ فيها محمد عن اليهودية والنصرانية كثيرا جدا ، لان الحقيقة القائلة ان الافكار الاساسية للاسلام مستعارة من الكتاب المقدس لا تحتاج الى نقاش كثير !)

ويتفق كثير من المستشرقين والباحثين الغربيين مع تور اندريه ، امثال فون كريمر ورشارد بل ومونتكمري واط(٢٠) •

ولقد الف (ي•ووكر) J. Walker كتابا جسم فيه هذا الزعم وابرزه في كتاب عنوانه (طابع الانجيل في القرآن Bible Character in the Koran ونشر المستشرق الالماني (ك• آرنز) بحثا في مجلة المستشرقين الالمان يحمل نفس النزعة بعنوان (عناصر نصرانية في القرآن)(٢١) • بل ان رشارد بل R. Bell يذهب في هذا الزعم ابعد مدى ممكن فيضع كتابا له عنوان مقصود يوحي بان اصول الاسلام قد تأثرت بالمسيحية حتما لان بيئتها مسيحية(٢٢) ومثله تماما كتاب «توري» Ch. C. Torry عنوانه « الاصل اليهودي للاسلام » The Jwish Foundation of Islam

واتفاق جماعة المستشرقين ليس عفويا — كما يظن لاول وهلة — بل هو استنتاج «متفق عليه» على حد تعبير الاستاذ محمد اسد(٢٣) • « وحتى ان ابرز المستشرقين جعلوا من انفسهم فريسة التحزب غير العلمي في كتاباتهم عن الاسلام • ويظهر من بحوثهم لو أن الاسلام لا يمكن أن يعالج على أنه موضوع بحث في البحث العلمي ، بل انه متهم يقف امام قضاته »(٢٣) • ومن هم ؟!

جهل جمهور المستشرقين بحقيقة الاسلام وتصوراته

يشترك المستشرقون بصفة جامعة هي انهم لا يمكن ان يستوعبوا خصائص التصور الاسلامي ومقوماته الاساسية ابدا • ومعنى ذلك انهم لا يستطيعون ان ينفذوا الى أعماق الحياة الاسلامية وبالتالي فانهم لايدركون الامور ذات الطابع العقائدي التي أثرت في سلوك المسلمين فيشوهون تفسيرها •

ان المؤرخ الغربي الذي يفسر « عالمية الرسالة » — أو المفهوم العقائدي للوطن في الاسلام حيث (الاسلام وطن وجنسية) • او الهجرة التي تعتبر تجسما لهذا المبدأ الرائع—يستحيل عليه أن ينفذ الى اعماقها بله ان يدركها• لانه بعيد بطبيعة تفكيره وتكوينه النفسي عن هذا النظام • ولهذا اعتبر (توينبي) الهجرة مبدأ التدهور في تاريخ الرسالة المحمدية في فصل (محمد) من كتابه (بحث في التاريخ) • كما سيأتي •

يضاف الى ذلك جهلهم بابسط مبادىء الاسلام بله اصوله ومقوماته •

فالمستشرق الالماني (فلهاوزن) حين يتحدث عن الغنيمة والفيء يقول : (نشأ بعد عصر محمد فرق عظيم بين الفيء والغنيمة)(٢٤) ، مع أن القرآن حدد الفرق بين الغنيمة والفيء .. والقرآن نزل على عهد محمد طبعا ! ولا ادرى فلعل فلهاوزن يريد ان يقول غير هذا !

فالغنيمة حددت بقوله تعالى (واعلموا انما غنمتهم من شيء فان لله خمسة وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) . [الانفال ٤١] .

والفيء حدد بقوله تعالى (ما أفاء الله على رسوله منهم فما اوجفتم عليه من خيل ولا ركاب) .[سورة الحشر آية ٦] .

ويقول المستشرق نفسه وفي كتابه بالذات : (الدولة العربية وسقوطها عند الحديث عن تحويل القبلة) :ـ (ما فتيء محمد « يعتبر نفسه » المرسل الى العرب خاصة . وامران يتجه المصلون الى مكة لا الى بيت المقدس . وشرع الحج الى مكة ... وقبل مركز العبادة الوثنية في الاسلام ... « وادخل الوثنية الشعبية » . وهكذا فصل الاسلام وبدل بحيث اصبح دينا عربيا قوميا) !

(١) فهو يزعم ـ اذن ـ ان النبي اعلن نفسه نبيا ، دون ان ينزل عليه وحي . ولهذا يرى أنه شرع الحج الى مكة ...

(٢) ويزعم ان النبي قبل عبادة الاوثان وزاد على ذلك انه « أدخل الوثنية الشعبية » .

(٣) وزاد أن الاسلام «دين عربي قومي» .

أما أن النبي شرع الحج الى مكة فلا . لان النبي ليس له مع أمر الله أمر . والمشرع الحقيقي هو الله . وقد ظل النبي ـ عليه السلام ـ يقلب وجهه في السماء ستة عشر شهرا متجها الى بيت المقدس ، الى أن أمره الله بالتوجه الى الكعبة وقد سجل القرآن هذه النقلة المهمة التي جعلت المسلمين يستقلون بوجهتهم واتجاههم دون أن يكونوا تبعا لغيرهم حتى في الاتجاه . (قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ماكنتم فولوا وجوهكم شطره) . [البقرة ، آية : ١٤٤] . وينص القرآن الكريم فيما ينص على انه كله من عند الله ، وان الفكر البشري ابتداء من فكر الرسول لم يشارك في انشائه ، وانما تلقاه ليهتدي به ويهدى ، وان وظيفة الرسول هي مجرد النقل الدقيق والتبليغ الامين وعدم خلط الوحي الذي يوحى من عند الله بأي تفكير بشري(٢٥) . (وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا وانك لتهدي الى صراط مستقيم : صراط الله الذي له ما في السموات وما في الارض الا الى الله تصير الامور) . [سورة الشورى : ٥٢ـ٥٣] .

اما مبدأ الوثنية ـ مهما تعددت صورها واشكالها ـ فمن اعظم المبادىء منافاة للاسلام ٠٠ ومبدأ التوحيد من اعظم ما جاء به محمد والنبيون من ربهم ، كما انه الحقيقة الاساسية في العقيدة الاسلامية(٢٦) ٠

أما آن الاسلام دين عربي قومي ٠٠٠ فهذا قول من لايفهم الاسلام ولا يعرف ابسط مبادئه ٠

فالقرآن يصرح (وما ارسلناك الا كافة للناس بشـــيرا ونذيرا) و (يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم) ٠٠ كما ان الثابت ان الاسلام خوصم من قبل اقرباء النبي ومن أولاد عمومته وعشيرته الادنين فقد اعلنوا عليه حربا لا هوادة فيها حتى اخرجوه من بلده الحرام «مكة» فكيف يحاربه بنو عمه واقاربه بله العرب كافة الا من رحم الله وقليل ما هم ، وهو ياتي بدين «عربي قومي» ؟!

والاسلام لا يعترف بفضل جنس على جنس انما كل الناس لادم وآدم من تراب لا فضل لعربي على عجمي الا بالتقوى ٠٠ وهذه الحقيقة من بديهيات الاسلام ٠ وان جهلها الجاهلون ٠ وتعامى عنها المستشرقون ٠

اما (مونتكمري واط) المتخصص بالكتابة عن الاسلام وتاريخ حياة الرسول وتاريخ مشاهير المسلمين(٢٧) ، فيظهر هو الاخر جاهلا تمام الجهل باعظم مصادر الاسلام القرآن العظيم فهو يزعم ـ حين يتحدث عن المعاهدة التي عقدها بين المسلمين واليهود في المدينة بعد الهجرة ـ ٠ انه من الممكن ان كلمتي اسلام ومسلم لم تكن مستعملة في الفترة المبكرة من العهد المدني ٠ وربما كانت الصيغة الاصلية للوثيقة بين المؤمنين من قريش ويثرب »(٢٨) ٠

فبالاضافة الى ما في اسلوبه من ظنون بعيدة عن الاسلوب العلمـي الدقيق كقوله «من الممكن» و «ربما» ، فنحن نؤكد أن كلمة مسلم (وفعلها الماضي والامر والمضارع) استعملت في الفترة المبكرة من العهد المدني ٠ وفي سورة البقرة بالذات وهي أول سورة نزلت بالمدينة بعد الهجرة ٠

ففي الآيتين (١٣١ ، ١٣٢ من البقرة) جاء قوله تعالى حكاية عـن (ابراهيم) عليه السلام : (اذ قال ربه اسلم قال اسلمت لرب العالمين ٠ ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب : يابني ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وانتم مسلمون) وفي الاية (١٣٣) من السورة نفسها وردت الكلمة نفسها ٠ وكذلك وردت في الاية ١٣٦ من البقرة ٠ هذا غيض من فيض ٠ ولو رجعنا الى كتابه السالف الذكر « الاسلام والتكامل الاجتماعي » وجدنا اشـياء واشياء ٠ وهو يعكس مناهج البحث الغربية تماما ٠٠ كما يظهر تحيزه ضد الاسلام والمسلمين خاصة عندما يقارن بين الاسلام من جهة واليهوديـــة والنصرانية من جهة أخرى ٠ فهو حين يتحدث عن معاهدة الرسول (عليه السلام) مع اليهود ٠ ثم عن موقف الرسول من اليهود وبعد ذلك يتهم

الرسول بعدم الفهم لدين اليهود وطبيعة اليهود ولكنه لا ينفي على اليهود معاملاتهم ومؤامراتهم ضد الرسول والمسلمين • ويلتزم نفس الموقف في كتابه « محمد في المدينة » حين يتحدث عن اليهود في المدينة(٢٩) •

ومن المستشرقين الذين كتبوا عن الاسلام وتاريخه «فون كريمر» •• القس الالماني المعروف • ويمتاز هذا (القس) بانه يعادي الاسلام صراحة • وعنده ان الاسلام «دين جاف» و «متأخر» وانه جاء وبالا على النظم اليونانية والرومانية «الراقية» • فهو يقول في وصف الاسلام « بانه ديانة جديدة جافة ضد النظم القديمة الراقية »(٣٠) • كما أنه يلصق اشياء غريبة عن الاسلام بالاسلام • فيقول في نفس الكتاب السابق له : (و «قد جرت العادة» بان الاجانب الذين يدخلون في الاسلام يصبحون موالي لرجل الدولة او الذي اعتنقوا الاسلام على يديه • ثم توطد هذا الاجراء تدريجيا • وبمرور الايام اعتبرت علاقة المولى بسيده اثرا من آثاره) • وقد كفانا مؤونة الرد عليه اخر مثله وهو «فلهاوزن» فاثبت(٣١) ان هذا الكلام لا صحة له • وشهد شاهد من اهلها •

وفي كتابه الاخر : « تاريخ الثقافة في الشرق » (المنشور سنة ١٨٥٠م) Culturgechichte des Orients يقول ان اثنين من الفقهاء المسلمين الاوائل : الاوزاعي والشافعي قد ولدا في سوريا « ولا ريب » انهما كانا على علم بكثير من قواعد القانون الروماني البيزنطي التي استمرت في(٣٢) صورة عادات قانونية وقد اثبت الباحث القانوني «فتزجيرالد» أن هذا القول « مجرد اسطورة » لا أساس لها من الواقع • فمن الثابت عند «فتزجيرالد» تاريخيا أن « مدرسة بيروت » لم تكن موجودة عند الفتح الاسلامي للشام وان الشافعي والاوزاعي لم يعرفا القانون البيزنطي(٣٣) •

ومن المستشرقين المستشرق اليهودي «كولدتسيهر» • ومن البلية انه يبحث في اخطر مصادر الاسلام في القرآن والعقيدة والشريعة ، وله كتب معروفة ومشهورة في ذلك ويتخذها « المستغربون » منارا لهم فيقتدون بيهودي ويزعمون انهم عرب مسلمون •

ومن هذه الكتب •• مذاهب التفسير الاسلامي •• الذي يقول في أول صفحة منه بانه لم يجد كتابا مضطربا كما وجد القرآن ! وهو ينفي الاصالة حتى عن الرسول ! فيقول في مادة «حديث» في «دائرة المعارف الاسلامية» (ان اراء فلاسفة الاغريق ووجهات النظر اليهودية والنصوص المسيحية ظهرت بوضوح في أقوال محمد)(٣٤) •

اما « اوليري » O'leary فهو من الباحثين الذين ينكرون النصوص الثابتة الصريحة • المعترف بها حتى من قبل المستشرقين انفسهم • فهو يتشكك في « عالمية الرسالة الاسلامية » • وبالرغم من استشهاده (هو) بقوله تعالى (وما ارسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا) فهو يزعم (ان

السياق لا ينص على أنه لابد لغير العرب من التصديق)(٣٥) ! ويثير الشكوك حول الكتب التي بعث بها النبي عليه السلام الى ملوك العالم يومذاك من فرس وروم ويزعم (انها وضعت في صورتها الاولى بعد قرن واحد من حياة النبي وتحتوي على قدر كبير من المعلومات التي لا ترتكز على أساس تاريخي) مع انها ثابتة تاريخيا • ويثبتها من المستشرقين غيره(٣٦) • ان كان هناك من يحتاج الاستشهاد بغيره من المستشرقين على فساد مزاعمه !

الم يأن لنا ان نرفع عن جباهنا خزي الجهالة بمصادرنا وعار الاتكال في فهمنا على فهم الغرباء عن لغتنا وديننا ؟!

القسم الثاني : في التطبيق
او (توينبي) والتاريخ الاسلامي

ساختار «توينبي» مثلا لتطبيق المنهج الغربي على التاريخ الاسلامي لاكثر من سبب • اختاره لانه صاحب فلسفة في تفسير التاريخ • ولانه يعيش في عصرنا الذي يسمونه عصر التحرر والنور • ولانه صاحب مواقف طيبة من العرب فيما يزعمون • فماذا سنرى عند «توينبي» حين يطبق منهجه على التاريخ الاسلامي ؟

موقفه من الحضارة الاسلامية

يرجع «توينبي» أصل الحضارة الاسلامية الى الحضارة السريانية القديمة • والمفروض ان تعالج نشوء الحضارة الاسلامية على أساس نظريته العامة في (التحدي والاستجابة)(٣٧) • لكنه عدل عن هذا المبدأ العام بحجة أن الحضارة الاسلامية حضارة فرعية ! والتفسير الذي لجأ اليه يقوم اساسا على مبدأ (الابوة والبنوة) بين الحضارتين السريانية القديمة والحضارة الاسلامية • وهو — عنده — مبدأ «يجب التسليم به»(٣٨) على حد تعبير توينبي •

ويميز في الحضارة الاسلامية ثلاثة أدوار يناظرها مع أصل المسيحية وتظر «توينبي» الى هذا الموضوع نظرة عامة ، تميز في المجتمع الاسلامي : «دولة عالمية» و «دينا عالميا» و «هجرة أقوام» •

فالدولة العالمية الاسلامية ، هي الخلافة العباسية في بغداد • اما الديانة العالمية فهي الاسلام نفسه • اما أساس «هجرة الاقوام» عنده فهو «الاقوام» التي غزت موطن الخلافة اثناء انهيارها • من البدو والترك والمغول والبربر من شمال افريقيا التي تستمر ثلاثة قرون (الممتدة بين ٩٧٥ و ١٢٥٧ للميلاد)(٣٩) •

وعلى هذا فالاسلام هو الديانة الجامعة لتلك الحضارة السريانية القديمة الزائلة وان الخلافة العباسية هي الدولة الجامعة لتلك الحضارة •

ويرى في استحضار المماليك الخلافة العباسية وجها للمقارنة مع اقامة (ليو) شبح الامبراطورية الرومانية ..

فاقامة دولة المماليك واستحضارهم شبح الخلافة في بغداد في القرن الثالث عشر للميلاد يشبه بشبح الامبراطورية الرومانية الذي استحضره (ليو) السوري في القسطنطينية في القرن الثامن . وكان بناؤهم السياسي الذى اقاموه بناء متواضعا نسبيا مثل بناء (ليو) .

ويناظر (توينبي) غزو المجتمع الاسلامي – في المنطقة الايرانية للمجتمع الاسلامي في المنطقة العربية – مع اعتداء المسيحية الغربية على المسيحية الارثوذكسية اثناء الحروب الصليبية .

ويشبه اعتداء الصليبيين (اثناء الحملة الرابعة ١٢٠٤م) على القسطنطينية بالمصير الذي حل بالمجتمع العربي بعد ثلاثة قرون عندما قضى (سليم الاول) عام (١٥١٧) على سلطان المماليك واستاصل خلافة القاهرة العباسية .

وان الفتوح الكاسحة العنيفة التي حققها العرب المسلمون الاولون تبدو – في نظره – وكأنها رجع صدى موسيقى في لحن التاريخ وتعكس لنا فتوح الاسكندر الواسعة العنيفة !

والفتح العربي – في نظره – مثل الفتح المقدوني ، الذي مهد الارض لغرس بذور الحضارة الهيلينية بتحطيمه الامبراطورية الاخمينية (امبراطورية كورش الفارسية وخلفائه) .. ومهد الطريق ايضا للامويين ومن بعدهم للعباسيين لانشاء دولة عالمية تعادل وتناظر الامبراطورية الاخمينية . ومادام التشابه – بين تكوين الامبراطورية الاخمينية وتكوين الامبراطورية الرومانية – امر لا يتطرق اليه الخطا – في نظر توينبي –(٤٠) فبناء على ذلك يكون الاسلام الدين العالمي الذي صار به المجتمع السرياني – بعد زمن طويل – أصل المجتمعين الايراني والعربي اللذين قد اندمجا في مجتمع واحد هو المجتمع السرياني(٤١) .

نقد توينبي

وحين يفعل «توينبي» ذلك فانه يتجاهل – تماما – شكل الحضارات غير الغربية فانه لكي يقابل المؤرخ بين فترتين تاريخيتين – او بين طريقتين من الحياة فينبغي له أن يدركهما ادراكا تاريخيا اى بما يكفي من العطف ودقة النظر لكي يعيد بناء خبراتهما بنفسه . وبناء على هذا الاساس الذي قرره « كولنجود » في نقد توينبي(٤٢) يكون توينبي قد وقع في الخطأ اذ طبق نظريات لا تستجيب الا لحاجات عاطفية في الغرب على مجموعة بشرية تنظر الى (القيم) من زاوية مختلفة . ويرى (هنري فرانكفورت) بحق ان صور توينبي تنم عن تحيزه لنظرية التطور أو للنظرية الاخلاقية . ويقول :

« وفي نظرنا ان توينبي ، حين يعلن أن ديناميكية الحضارة الغربية تنطبق على الحضارة العالمية • فهو لا يستطيع أن يفعل ذلك الا بتجاهل شكل الحضارات غير الغربية لكن الفهم الصحيح يصبح في هذه الحالة مستحيلا »(٤٣) •

كما أن الخبرة التي يعتمد عليها «توينبي» تنحصر بالعصور الكلاسيكية وبالحضارات الغربية المنحدرة منها • وهذه خبرة ضيقة بطبيعة الحال • وحين يبني «توينبي» (التعميمات) على خبرة تاريخية محدودة فانه يفشل فشلا واضحا • لان «التعميمات»المبنية على خبرة تاريخية محدودة ووضع النظريات — مهما وضعت بحذق — لابد من أن تفشلا عن كشف الطابع الفردي لاية حضارة •• على حد تعبير فرانكفورت(٤٤) •

ويستغرب «فرانكفورت» من تطبيق «توينبي» هذا الميدان الضيق على كل ظاهرة تاريخية وعلى كل حضارة • واغرب من ذلك أن « توينبي يفترض هذا لا عن غير شعور ، بل عن معرفة • غير مدرك جسامة هذا الافتراض ، لان كل من يخرج عن حدود هذا المبدأ الضيق فلابد ان يكتشف بسرعة أن القيم الموجودة في « الحضارات غير الغربية » لا تقاس بغيرها • وهكذا نجد «توينبي» يسيء الى الاثباتات لانه يخضع كل حضارة الى نظام «قبلي» : (موضوع من قبل) • ويستمد من الفترة الحرجة في التاريخ الغربي حيث انحلت الامبراطورية • ولا شك في ان تعميم الظروف الخاصة يؤدي الى اخطاء تاريخية واضحة والى نتائج لا صلة لها بالموضوع ايضا(٤٥) •

وتقوم نظرة توينبي في تطبيق مبدأ (الابوة والبنوة) على مبدأ آخر هو مبدأ (الوحدة الحضارية والادوار التاريخية) ومعنى ذلك انه تناسى فترة من الزمن مقدارها الف عام تتصل بين الحضارتين • وقد اثبت المؤرخ (سوروكن Sorokin) بما لا يدع مجالا للشك بطلان هذا المبدأ : مبدأ الوحدة الحضارية •

يقول «سوروكن» ان توينبي لا يعني بالحضارة مجرد مجال للدراسة التاريخية وانما يعني نظاما موجودا او كيانا مرتبط الاجزاء ارتباطا سببيا بحيث يستتبع التغير في الجزء الواحد تغييرا في الكل وبالعكس •• « ان الحضارات — كما يقول توينبي — هي كيانات كلية جميع اجزائها ملتحمة بعضها ببعض وجميعها مؤثرة بعضها في البعض الاخر ومن خصائص هذه الحضارات في دور النشوء أن تكون جميع نشاطات حياتها الاجتماعية ومظاهرها المختلفة منسقة في كيان اجتماعي واحد • كيان تنسجم فيه العناصر الاقتصادية والثقافية بعضها مع بعض في حياة الجسم الاجتماعي النامي » •

وهكذا نرى «توينبي» — كما يقول سوروكن — يفترض ان الحضارات كيانات حقيقية لا مجرد أكوام أو تكتلات لعدد من الظاهرات الاجتماعية

والثقافية المختلفة : الظاهرات المتجاورة في الزمان والمكان من غير أن يكون بينها ترابط سببي موحد • فلو صح افتراض توينبي ان الحضـــارات كيانات حقيقية اذن لاستلزم التغير في أحد مقوماتها تغيرا في مجموعات المقومات الاخرى •

الحق ــ كما يقول سوروكن ــ أن حضارات توينبي ليست كيانات حقيقية بدليل ما يذكره هو نفسه في مواضع مختلفة من كتابه من أن الظواهر الاقتصادية والفنية كثيرا ما تتغير في الحضارة الواحدة وتبقى الظواهر الاخرى ثابتة • او أن العكس هو الذي يحدث احيانا • أو ان الظواهـــر الاقتصادية في حالات اخرى تتغير في اتجاه ، بينما تتغير العناصر الباقية في اتجاه مقابل(٤٦) ويستمر «سوروكن» في نقد مبدأ « توينبي » حيث يرى ان مثل هذه الوحدة الحضارية لا توجد حتى في ذلك الانسان الواحد • فكيف يمكن وجودها في مجالات ثقافية كالحضارة الهيلينيـــة او السريانية او غيرها ؟ وان ما يسميه توينبي (وحدة حضارة) ليس في الواقع غير مجال ثقافي توجد فيه عناصر عديدة من الانظمة والتكتلات (الاجتماعية والثقافية) الكبيرة والصغيرة «منسجمة في جانب منها » و «متجاورة او متباينة في الجانب الاخر » • فاذا كانت الحضارات هي مجالات «ثقافية ــ اجتماعية» لتلـك التكتلات والانظمة الموجودة فيها معا على غير ترابط سببي معقول ، فان مبدأ الادوار الحضارية في التفسير التوينبي يصبح فاسدا من اساسه • فما ليس في أصله بنية حية كاملة لا يمكن أن يؤكد وينمو ويموت •

توينبي وظهور الاسلام والحضارة الاسلامية

ابرز ما في نظرية «توينبي» لتفسير نشوء الحضارات هو عامـــل «التحدي والاستجابة» • لكنه يخرج نشوء الحضارة الاسلامية عن هـــذا المبدأ أحيانا • كما أنه لم يتناول الحضارة الاسلامية والتاريخ الاسلامي وحدة حضارية متكاملة ، بل عزل حوادث التاريخ الاسلامي عزلا وخالف المنهج العلمي الذي زعم انه يفسر التاريخ على أساسه • كما انه قد انتخب من الحوادث ما يروق له • ومع ذلك فقد قرأ الشاهد قراءات متعـددة وفسره تفسيرات متباعدة لا تؤلف وحدة متسجمة • فهو قد فسر حياة الرسول عليه السلام تحت مبدأ الاعتكاف والعودة « مرة ، وتحت مبدأ «الاستجابة الناقصة» مرة • وتحت مبدأ «الاستجابة الناجحة» مرة اخرى ولكنه يؤكد على مبدأ الاعتكاف والعودة (او الاعتزال والظهور) الذي يطبقه على كثير من الشخصيات التاريخية (٤٧) فهو يقول : (كانت ظاهرةالاعتدال والظهور مقدمة لانتقالين جديدين حاسمين دار حولهما تاريخ حياة محمد)(٤٨) ثم يقول (تميزت حياة الامبراطوريـــة الرومانية الاجتماعية بظاهرتـــين بارزتين أثرتا تأثيرا عميقا في فكر العربي الملاحظ • ذلك انهما كانتا بارزتين

لمجرد انتفاء وجودهما في بلاد العرب • (فاولى) هاتين الظاهرتين مبـــدأ الوحدانية في الدين •(والثانية) القانون والنظام في الحكومة • فكان عمل محمد الذي شغل حياته يدور حول نقل هذين العنصرين الموجودين في كيان الهرم الاجتماعي الى صورتين عربيتين وطنيتين ودمج الوحدانية بصورتهـا العربية والحكم الامبراطوري بصورته العربية في نظام رئيس واحد هو نظام الاسلام الشامل العام ، الذي نجح في اعطائه قوة دافعة ، بحيث اصبح الدين الجديد الذي وضعه صاحبه ليسد حاجات سكان بلاد العرب قد شق حدود الجزيرة واسر العالم السرياني باسره ••• ويستمر قائلا « لقـــد تحقق هذا العمل الجسيم الذي بدأ به محمد في سن الاربعين في مرحلتين : ففي المرحلة الاولى شغل نفسه برسالته الدينية دون شيء اخر ••• وكان دخول محمد في رسالته الدينية الصرفة نتيجة لعودته الى شؤون الحياة في بلاد العرب بعد اعتزال جزئي دام زهاء خمسة عشر عاما ، قضاها في حياة التجارة بين واحات بلاد العرب وموطن بادية الشام الرومانية بامتداد حدود الجزيرة الشمالية • ودخل محمد في المرحلة الثانية ـ وهي المرحلة السياسية الدينية ـ في سيرته باعتزال النبي واصحابه في هجرته من وطنه ـ واحة مكة ـ الى واحدة منافسة لها وهي ـ يثرب ـ التي سميت فيما بعد بالمدينة • وفي الهجرة ـالتيعدها المسلمون حدثا هاما حاسما بحيث اتخذوها مبدأ التقويم الاسلامي ـ ترك «مكة» وهو لاجيء طريد • وبعد أن غاب سبع سنين رجع الى مكة • لابصفته المنفي المعفو عنه ، بل بصفته سيد نصف بلاد العرب » •

ويتضمن كلام «توينبي» النقاط الاتية :

(١) ان مبدأ الوحدانية في الاسلام مأخوذ عن الروم •
(٢) ان مبدأ «النظام والقانون» نقله محمد عن الدولة الرومانية •
(٣) وان هجرة النبي وصحابته الكرام ، كانت خروجا على مبـــدأ الاعتكاف والعودة •

(١) لو ناقشنا الرأي الاول لوجدنا ان مبدأ الوحدانية في الـــدين بعيد جدا عن روح الحضارة الرومانية لانها ـ بكل بساطة ـ ذات آلهـــة متعددة بعيدة عن مبدأ التوحيد ويقرر هذه الحقيقة الراهب (اوغسطين) فيقول : « ان الروم الوثنيين كانوا يعبدون آلهتهم في المعابد ويهزأ بها في دور التمثيل»(٤٩) • اما بعد ظهور المسيحية فان روح هذه الحضارة لم تتغير ، بل ا نالمسيحية نفسها خضعت ـ بمرور الزمن ـ لشرك الحضارة الرومانية ، لان المسيحية التي كانت في الاصل ديانة توحيد ، أصبحت فيما بعد ديانة شرك ، على يد داعيتها الكبير وبطلها العظيم (بولص ، ١٠ـ٦٥م) ولما يمض عليها نصف قرن بشهادة العالم المسيحي (ارنست) • حيث يقول في كتابه (الاسلام والمسيحية الحقة) : «ان العقيدة والنظام الديني الذي

جاء في الانجيل ليس الذي دعا اليه السيد المسيح بقوله وعمله • ان مرد النزاع القائم بين المسيحية اليوم وبين المسلمين ليس الى المسيح ، بل الى دهاء بولص ذلك المارق اليهودي والمسيحي وشرحه الصحف المقدسة على طريقة التجسيم والتمثيل وملئه هذه الصحف بالنبوءات •• ان بولص هو واضع ذلك المزيج من الاحاديث والقصص المتعارضة التي يحتوي عليها الانجيل بتقليده لارسطفانوس وليس للمسيح»(٥٠) • وهـــذا يعني ان المسيحية كانت على عهد النبي ديانة شرك • بشهادة هذا العالم المسيحي نفسه •

ولما كانت المسيحية ديانة الدولة الرومانية ديانة شرك وكان مبدأ التوحيد في الدين غير موجود في الجزيرة على عهد النبي بشهادة توينبي نفسه (٥١) • وكان مبدأ التوحيد في الاسلام لا يوجد في غير الاسلام عند ظهوره • فان مبدأ توينبي هذا يبدو متهافتا وعاريا عن الحقيقة تماما •

(٢) اما الزعم الثاني فهو ان مبدأ النظام والقانون في الاسلام منقول عن الدولة الرومانية •• وهذا الزعم شاركه فيه جمهور من المستشرقين(٥٢) ويضحى هذا الزعم متهافتا اذا اثبتنا : ان النبي كان اميا • وان مرد التشريع — في الاسلام — الى الله لا الى احد سواه • حتى ولو كان النبي محمدا !

فمن الامور المسلم بها والثابتة ان الرسول عليه السلام كان اميا • لحكمة ارادها الله سبحانه وتعالى • وهي سد الطريق امام المتشككين في الوحي والظانين أن النبي أخذ من اهل الكتاب • وذلك قوله تعالى : « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذن لارتاب المبطلون ». وقوله : « هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة » ولم يترك الرسول عليه السلام الجزيرة العربية الا في رحلتين قصيرتين الى الشام وكانت سنه في الاولى لا تتجاوز الثانية عشرة • وفي الثانية كان في سن الخامسة والعشرين • وان مخالطيه — رغم قلتهم — كانوا عربا خلصا • فكيف يستطيع ان يطلع على القانون الروماني خاصة وان اتصال العرب بالرومان كان محدودا للغاية ؟ هذا هو الامر الاول •••

والامر الثاني الذي ينقض هذا الزعم هو الطريقة التي ظهرت بهـــا قواعد التشريع الاسلامي • فقد كان التشريع الاسلامي في حياة الرســول يعتمد على مصدرين هما : القرآن والسنة ، وقد اشتمل القرآن على القواعد الاقتصادية والتشريعية وعلى القواعد المتعلقة بالعقيدة الدينية والاخلاقية • وكان الرسول حين لا ينزل عليه في الحادثة قرآن •• يجتهد رأيه مسترشدا بالقرآن الكريم وقواعده العامة فان اصاب فيها والا فالقرآن كفيل بان يصوب رأيه • كما حدث في «بدر»(٥٣) وغيرها من الحوادث فليس للرسول عليه

السلام مع أمر الله أمر • وربنا يقول : (ان الحكم الا لله) •• كما ان القواعد القانونية في الاسلام تكونت تدريجيا وبمناسبة وقعت فعلا • ولم تكن هناك قواعد قانونية شرعت لحالات افتراضية •

وبناء على ما سبق نقرر ان القواعد القانونية الاسلامية قامت على أساس تبنى «بعض» التقاليد العرفية التي سادت في المجتمع العربي وتعديل بعضها لتلائم روح التشريع الاسلامي • واستحداث بعض النظم القانونية التي اقتضتها حاجة المجتمع الاسلامي • وهي في كل ذلك بعيدة عن كل تأثر بالقانون الروماني •

(٣) اما زعم توينبي ان هجرة النبي وصحابته كانت خروجا على مبدأ (الاعتكاف والعودة) ••• فهو زعم متأثر بالنظرة الغربية المسيحية •

ان وجود توينبي الانسان المؤرخ في مجتمع مسيحي يؤثر في نظرته الى الاسلام « حتى في الكلمات التي يستعملها» كما يقول المؤرخ الانجليزي « ادواردكار » في كتابه (ماهو التاريخ)(٥٤) • فتوينبي يقيس مبدأ الاعتزال والعودة ••في حياة (المسيح) بالنسبة لاعتقاد المجتمع المسيحي اليوم ليطبقه على حياة (محمد) عليهما السلام • وليس هناك اشد بطلانا من اقامة معيار افتراضى مجرد لما هو مرغوب فيه ثم ادانة الماضى على أساسه •

وبناء على نظرته المسيحية يرى أنسيرة النبي في الفترتين « المكية والمدنية) متناقضة لان النبي شغل في الفصل الاول برسالته الدينية بطريقة سلمية من الدعوة والتبشير ، وشغل في الفصل الثاني ببناء سلطة عسكرية وسياسية واستعمل هذه السلطة في نفس السبيل الذي كان في الحالات الاخرى وبالا وشرا على الديانات الاخرى •

والنظرة المسيحية واضحة هنا •• اذ انها ترى ان « ما لقيصر لقيصر وما لله لله » • والصريح في تعاليم (يسوع) وحياته نبذ الاخذ بالسيف او استخدام القوة (٥٥) • وهو القائل (من لطمك على خدك الايمن فادر له الاخر • ومن طلب رداءك فاخلع له الثوب) •

وهذه النظرة تختلف عن النظرة الاسلامية اساسا •

اذ ان الدين والدولة لا يمكن ان يفصلا في الاسلام لانه لا يجوز تطبيق أحدهما وتعطيل الاخر ، والا عد بابا من الفتنة عن الدين او الكفر •• قال تعالى (وان احكم بينهم بما انزل الله ولا تتبع اهواءهم واحذرهم ان يفتنوك عن بعض ما انزل الله) • وقال عز من قائل : (افتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض)؟ بهذا الاستفهام الاستنكاري •

وليس في الاسلام مبدأ يقول (من لطمك على خدك الايمن فادر له الاخر) وانما « من اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » • وليس فيه نبذ الاخذ بالقوة وانما فيه : « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة » •

ونختتم بحثنا بما اختتم به (تور اندريه (Tor Andrae) كتابه عن

Mohammed; Sein LEBEN u. Seine Glaube (حياة محمد ودعـــــوته)
حيث قال : اننا « معشر الكتاب المسيحيين »نقيس حياة محمد — عـــن
شعور وغير شعور — بحياة المسيح ووفق المبادىء الموجودة في الكتـــاب
المقدس . وهي نظرة مخالفة على كل حال للنظرة التي يراه اصحابه ومعتنقو
دعوته بها ».

---

(١) ادوارد كار : ما هو التاريخ (ترجمة احمد حمدي محمود — القاهرة ١٩٦٢) ص٤٨

(٢) نفسه ٥٨

(٣) نفسه : ٢٢ — ٢٣

(٤) كولن ولسن : سقوط الحضارة ، صفحات : ١٣٢ ، ١٣٣

(٥) سيد قطب : العدالة الاجتماعية في الاسلام (ط رابعة ١٩٥٤) ص٣٧

(٦) محمد اسد : الاسلام على مفترق الطرق صفحات ٣١ ، ٣٢ — ٣٣ ، ٣٧

(٧) سيد قطب : خصائص التصور الاسلامي . ق١ ص٨٤ .

(٨) نفسه ، صفحات : ٨٥ ، ٨٨ ، ٨٩

(٩) أخذت هذه المعلومات عن كتاب ادوارد كار « ما هو التاريخ » صفحات : ٥٣—٥٤

(١٠) محمد اسد : المرجع السابق ٣٧ .

(١١) نفسه ، صفحات : ٤٥ — ٤٦

(١٢) ابن القيم : زاد المعاد ٢ : ١٨٦

(١٣ ، ١٤ ، ١٥) انظر Buhl: in Encyc. of Islam Vol. II, p. 190, A. Toynbee: A Study of History p. 288, M. Watt: Islam and Integration of Society (London 1961) p. 258, Rosenthal: Political thought in Medieval Islam (Cambridge 1958) p. (9)

(١٦—١٦) هنري فرانكفورت : فجر الحضارة في الشرق الادنى ص٢٥

(١٧) محمد اسد : الاسلام على مفترق الطرق ص ٧٣

(١٨) الدكتور صوفي حسن : « بين الشريعة الاسلامية والقانون الروماني» ، حيث جمع ما يتعلق بهذه المسالة وناقشها مناقشة علمية رائعة . فليراجع

(١٩) Tor Andrae: Moh. Sein Leben u. Seine Glaube (Goetting en 1932), S.S. Einleitung.

(٢٠) راجع الهوامش (١٣—١٥)

(٢١) بروكلمان : تاريخ الادب العربي ١ : ١٤٣ (دار المعارف بمصر ١٩٥٩ وترجمة المرحوم الدكتور عبدالحليم النجار) .

(٢٢) Ri Bell: The Origin of Islam in (its) Christ. Environment (London 1936).

(٢٣) محمد اسد : الاسلام على مفترق الطرق ص٥١

(٢٤) فلهاوزن : الدولة العربية وسقوطها (ترجمة يوسف العش) ص٣٢

(٢٥) سيد قطب : خصائص التصور الاسلامي ق١ صفحات : ٥٠ — ٥١

(٢٦) نفسه ، صفحات ٢١٢ وما بعدها .

(٢٧) من اشهر كتبه عن الاسلام : Muhammad at Medina, Muh. at Mecca, Islam and Integration of Society

(٢٨) M. Watt: Islam and Itegration (first Edition) p. 20

(٢٩) M. Watt: Muh. at Medina (oxford 1956) pp. 198-219

(٣٠) فون كريمر : الحضارة الاسلامية ومدى تأثرها بالمؤثرات الاجنبية (الترجمة العربية — القاهرة ١٩٤٧) ص٦٤

(٣١) Wellhausen : Das Arabische Reich, Seite: 166

(٣٢) انظر : بين الشريعة الاسلامية والقانون الروماني للدكتور صوفي حسن ص٤٩ ، نقلا عن الترجمة الانجليزية لكتاب فون كريمر « تاريخ الثقافة في الشــرق » ص٤٤٧ (ترجمة خدابكش سنة ١٩٢٠)

(٣٣) الدكتور صوفي حسن : المرجع السابق ص٥٠

(٣٤) Encyclopaedia of Islam II: 190

(٣٥) اوليري : علوم اليونان وطرق انتقالها الى العرب (ترجمة الدكتور وهيب كامل ط لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٦٢) صفحات : ١٨٢ ، ١٨٣ .

(٣٦) انظر السير آرنولد : الدعوة الى الاسلام صفحات ٤٨ ، ٤٩ (ترجمة الدكتــور حسن ابراهيم حسن ورفيقاه - ط ثانية)

(٣٧) توينبي : بحث في التاريخ : ترجمة طه باقر ج١ ص ٨٧ — ١١٧ .

(٣٨) توينبي : المرجع نفسه ١ : ١٧

(٣٩ — ٤١) توينبي : المرجع نفسه ١ : ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٦

(٤٢—٤٥) هنري فرانكفورت : فجر الحضارة في الشرق الادنى ، صفحات : ٢٥—٢٨

(٤٦) منح خوري : التاريخ الحضاري عند توينبي صفحات : ١٠٧—١١٠ نقلا عن كتاب Geyl, Toynbee, and Sorokin, The Pattern of the Past pp. 107-126

(٤٧—٤٨) المرجع نفسه ص١١٤

(٤٩) ابو الحسن الندوي : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص١٣٧

(٥٠) Islam and true Christianity p. (128) نقلا عن : الندوي في كتابه السابق .

(٥١) توينبي : بحث في التاريخ ١ : ٣٣٦

(٥٢) الدكتور صوفي حسن ابو طالب : بين الشريعة الاسلامية والقانون الروماني ، صفحات : ٣٠—٣٥ وهو من أحسن المصادر في الرد على مطاعن المستشرقين في الشريعة والفقه الاسلامي .

(٥٣) انظر تفسير الطبري ١٠ : ٣٠ وتاريخــه ٢ : ١٧٠ ومحب الدين الطبري : الرياض النضرة ١ : ٢٦٣ ، وابن كثير : البداية والنهاية ٣ : ٢٩٧

(٥٤) ادوارد كار : المرجع السابق ذكره ، صفحات : ٢٢—٢٣

(٥٥) منح خوري : المرجع السابق ص١١٩





الدكتور محمود محمد الحبيب

- ١ -

في ٦ مايس ١٨٦١ ولد اعظم من انجبتهم الهند من الشعراء : رابندرانات طاغور ، أصغر انجال ماهارشي ، وحفيد الامير دواركانات طاغور .. ولد في مدينة كلكتا ومنها سطعت آيات عبقريته ونبوغه ..

نشأ في بيت مجد وثراء .. الا ان الزمن حرمه من الامومة الحنون حين مشى الى الطفولة .. ثم حرمه الاب العطف والحنان فكانت نكبة مزدوجة ، ولكنه خفف من وقعها عندما هام بالطبيعة ، فعوضته عما فقد وغذته بالامل ، وأفاضت على روحه الشاعرة ألوانا من الحنان والثقة ..

تلقى العلم صبيا في تحصيل خاص على ايدي اساتذة اختيروا للقيام بهذه المهمة .. ومع ذلك فقد عافت نفسه هذا النوع من الدراسة ، لان ذهنه المتوقد ، وحسه المرهف قد سبقا هذه الدروس بمراحل فقد تفجرت مواهبه ، وتم نضجه الادبي ، ونظم الشعر وعمره لا يتجاوز الثامنة ... وبعد سنوات كان يكتب القصص التي رمت الى التجديد ونشرها تباعا .. ثم رحل الى انكلترة لدراسة الحقوق ، غير انه قفل راجعا الى وطنه بعد وقت قصير غير آسف ..

كان عرضة لازمات نفسية جابهته بعنف ... تزوج فأنجب اطفالا كانوا سلواه وعزاءه في حياته المضطربة ، ولكنه ما لبث ان فقد معنى السعادة حين فقد زوجه ، ثم تبعها ابنه فابنته .. فحزن الشاعر وخيم اليأس على حياته ، وغمره قلق مدمر ساعة فارقه احباؤه في ظرف هو فيه اشد احتياجا لهم ... كان ذلك بداية عهد جديد في تاريخ حياته فصرف جهوده

شطر الانسانية ، ووهب نفسه لخدمة ابناء وطنه .

وتصرمت الاعوام وهي ترفع بطاغور الى قمة المجد الادبي ، فعرفه الناس شاعرا ملهما ملكه حب الطبيعة ، فكتب فيها قصائده الرقيقة « اناشيد الصباح » و « اناشيد المساء » وبين سطورها نلمح الالم الممض الذي عرفه ابان طفولته الشقية ... الا انه دلف الى المسرة في قصائد « حياة الابدية » و « حلم الشاعر » ... وقد اجمع جمهرة النقاد على ان ملحمته الشعرية المسماة « البستاني » بذت كافة ما نظم ، لانها كانت مستمدة من حياته وكفاحه الطويل .. كما ان كتابه « جيتا نجالي » قد نال الاعجاب والتقدير في كافة الاوساط الادبية ..

لم تقف جهود هذا الاديب الكبير عند هذا الحد ، بل راح يكتب بحرارة مستمدة من عوالم فياضة بالالهام والسمو الفكـــري .. فانتج مسرحيات اهتمت فرق عالمية بها ومثلتها على اشهر المسارح في امهات عواصم اوربا .

وكان من نتائج ذلك ان فهم الغربيون معنى الروح الشرقية الهادئة . ومن اشهر هذه المسرحيات « ملك الغرفة الزرقاء » و « انتقام الطبيعة » و « مكتب البريد » و « شترا » التي حلل فيها الطبائع البشرية على أحـــدث نظريات علم النفس الحديث ..

لقد اختلفت آراء الذين يهتمون بأدب طاغور .. فمنهـــم من يرى عظمته تتجلى في شعره الرفيع المعبر عن أدق المعاني ، والمتدفق بالحرارة والاحساس بقيمة المثل العليا .. ومنهم من يراها في قصصه ومسرحياته التي عبرت عن الطبائع والخوالج النفسية وحللتها أحسن تحليل ، والتي ترجمت الى عدة لغات .. أما نقاد الادب القصصي ، فقد رأوا نبوغه في مئات القصص القصيرة التي تطرق فيها لادق شؤون الحياة ، وصـــور المجتمع الهندي بقلم يحاكي ريشة الفنان التي تجيد توزيع الظلال والالوان ببراعة ... وفي عام ١٩١٣ سبق طاغور اقرانه فنال جائزة « نوبل » للآداب وقدرها ثمانية آلاف باوند استرليني .. وسرعان ما خصص هذا المبلغ للقيام بمشروع خيري هو انشاء مدرسته المشهورة « شانتي فكتان » في مدينة بلبور في احضان الطبيعة التي عشقها عندما كان طفلا فبر بها .

في مدرسة « شانتي فكتان » ترعرع طلابه مشربين بروحه وتعاليمه ، متفانين في سبيل امتهم ووطنهم ، تواقين الى حياة تجمع خير الانسانيـــة وفضائلها .. وكانوا من شتى انحاء الهند وقد نما عـــددهم حتى جاوز الثمانمئة وكان يحاضر فيها اساتذة من الالمان والانكليز والفرنسيين والصينيين واليابانيين .. أما رأسها المدبرة والمشرفة على ادارتها فكـــان طاغور نفسه ..

جمع طاغور في شخصه الفلسفة والادب والشعر والفن والزعامة والصوفية العميقة ، وكان انسانا فريدا في انسانيته فهو القائل :

« اني لافخر بانسانيتي كلما اعترفت بجميل الشعراء والفنانين من غير بلادي » • ويقول « اني اخدم بلادي ولكني لا اعبدها ، فاني اعبد الحق وهو اعظم من بلادي •• أما من يعبد بلاده كما يعبد الله فهو يسيء اليها ويتوهم انه من المحسنين » • ثم يعقب بعد ذلك « والذي يريد تأليه وطنه بالهتاف والهياج ، فانه يحب الهياج اكثر مما يحب وطنه » •

كان طاغور عمليا اكثر منه متشدقا بالالفاظ الجوفاء والخطط المرسومة التي سرعان ما تجثم على رف النسيان ، فقد استهدف ثم اخذ يعمل من أجل رفع مستوى الشعب الهندي ، من الناحية الاجتماعية والروحية والثقافية •• كان انسانيا وهو القائل : « اني لافخر بانسانيتي كلما اعترفت بجميل الشعراء والفنانين من غير بلادي » • ومن قوله ايضا « كل ما يعجبنا ونفهمه من نتاج الانسانية ، يستحيل في الحال ملكا لنا مهما كان أصله » •

تبرز توجيهات طاغور في مناهجه التعليمية التي عرفت طريقها الى القلوب فهي في نظره الطريقة المثلى للاخذ بيد الشعب الهندي الذي مزقت اطرافه السياسة وتنافر المذاهب وتباين الطبقات ••

ولعل اعظم انتفاضة قام بها هي ثورته الكبرى على تعاليم البراهمة التي بعثرت الوحدة ، وبذرت التفرقة ، ووضعت الفروق بين الطبقات •• كما ان قيامه بفتح مدرسة خاصة لتثقيف طبقة « المنبوذين » روحيا وعقليا ، ليقدروا قيمتهم الاجتماعية ، وليساهموا في بناء النهضة الوطنية الهندية ، هو عمل بالغ الطيبة ، وعنوان فخر لهذا المصلح الاجتماعي الكبير •• وعدا هذا فالروح الشاعرة والثقافة العميقة اللتان أملتا عليه كتاباته وخواطره قد أثرا تأثيرا قويا على حياة الهند وانطلاقاتها الروحية والاجتماعية ••

كتب كل هذا باللغة البنغالية •• ولكننا نراه يكتب بعين الحرارة وابداع الاسلوب وقوة التعبير باللغة الانكليزية •• والاخيرة كانت خير معوان له لنقل آرائه الروحية الهادئة وتعليماته الدقيقة في دنيا الاصلاح الاجتماعي الجذري الى الغرب ••

من الكتب المشهورة لطاغور هو « جيتنجالي » ويتالف من مجموعة قصائد اسطورية روحية التي نال جائزة نوبل في الآداب تكريما لها وللشاعر وقد ترجمت في بحر تلك السنة (١٩١٣) الى ست لغات اوربية •• وقد كتب كتبا احدثت شهرة ادبية له وهي : « الهلال » ، « البستاني » ، شترا ، الوطنية ، ذكرياتي ، ساكنتالا ، النصر ، أمي أم بيت ، مئة مقطوعة من قابير ، جمع الفاكهة ، هدية العشاق ، تعليم الببغاء ، الوطن ، العالم ،

ملك ، حلم العالم ، حياة ابوية ، انتقام الطبيعة ، ومكتب البريد ·· هذا عدا مئات الاقاصيص الصغيرة المتناثرة في الصحف والمجلات ··

لم يقف اعجاز طاغور عند حدود الكتابة والنظم ، ولكنه شمل الموسيقى والرسم ، فلحن في الاولى الحانا عذبة ذات وقع في النفس ، وانتج في الثانية قطعا جميلة تنم عن ملكة وموهبة ·· وقد نالت صوره اعجابا في كبريات المعارض الفنية في عواصم اوربا ··

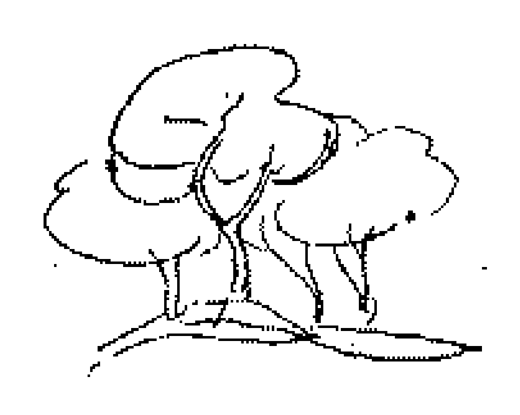
لا أود ان اختتم هذا العرض السريع لحياة طاغور الادبية بدون عرض بعض مقتطفات من آرائه لنعرف الرجل ··

انه يقول : « ان العقل الذي يكون كله منطقا اشبه بالسكين التي تكون كلها نصلا فتدمي يد من يمسك بها » · ويقول : « يصمت السمك في البحر ، ويصخب الحيوان على وجه الارض ، ويتغنى الطير في الجو ، ولكن الانسان يجمع في ذات نفسه صمت البحر وصخب الارض واغاريد السماء » · ويصف امنا الطبيعة بقوله : « لقد همت بالطبيعة هياما شديدا لا استطيع ان اعبر عنه · وكانت الطبيعة خير معوان ومحب لا تفتأ كل يوم تكشف لي عن لون من الجمال جديد » ·

انه يرد على اولئك الذين عابوا عليه اغاريده الفتية رغم تقدم سنه « من للقلوب وعواطفها ، وللعيون واسرارها ، اذا انا تبوأت من ساحل الحياة صخرة صماء ولبثت شاخصا الى اكمة الموت وما خلفها ؟ » ·

واسمعه منددا بأولئك المغرمين بتأليه المادة فيناديهم « ان الجيل الجديد قد دفعته الرغبة الملحة الى تجربة كل شيء حتى نسي فن الحياة ، فلا يجد الفراغ الكافي للتفكير والتأمل ، ولا الفرصة للقراءة يغذي بها روحه » ·

وفي شهر آب ١٩٤١ حمل البرق الى العالم نبأ وفاة طاغور ·· ومن عذاب الانسانية ودنيا اعجابنا نرفع اليه تحياتنا ··



جي دي موباسان

المظـــلة

عبدالودود العلي

كانت مدام اوريول امرأة شحيحة ، تعرف للفلس قيمته ، وتطبـق أحكم الطرق في توفير النقود • حتى ان خادمها كان يجد من الصعب القيام بصفقات ترضيها ، من السوق • اما السيد اوريول فقد كان يقاسي الامرين في منح نفسه حق الحصول على مصروفه الخاص بالرغم من انهما كـانا في بحبوحة من العيش دونما أطفال • غير ان مدام اوريول كانت تبتئس حقا كلما شاهدت قطعة نقود تغادر كيسها ، كان ذلك يحز في نفسها كثيرا • فأذا اضطرت الى صرف مبلغ من المال ، مهما يكن ضروريا ، جفا النــوم أجفانها طيلة الليلة التالية !

ولطالما نبه السيد اوريول زوجه قائلا : لم كل هذا التقتير ونقودنا في تزايد مستمر ؟ فكانت تقول : وهل يدري المرء ما سيحدث ؟ من الافضل أن نجمع الكثير من أن نوفر قليلا لايسد الرمق •

ومدام اوريول امرأة ضئيلة الحجم ، في الاربعين من عمرها ، كثيرة الحركة ، مجعدة البشرة ، نظيفة ، وفي الغالب سيئة الطباع • كثيرا ما كان زوجها يشكو الحاحها عليه بالاستغناء عن أشياء كانت حبيبة اليه • وكانت هناك بضعة امور تؤلمه وتطعنه في أحساسه وكبريائه • فقد كان رئيسـا للكتاب في وزارة الحرب • وقد بقي في هذا المنصب اطاعة لزوجه التـي اجبرته على البقاء طمعا في زيادة مرتبه الذي لم يصرف منه شيئا • ومـا فتئ يذهب لسنتين طويلتين الى دائرته ومعه مظلته المرقعة التي كانت مثار ضحك زملائه وتنكيتهم • وحينما أتعبه أخيرا تحمل نكاتهم أصر على زوجه ان تشتري له مظلة جديدة فحصلت على واحدة بثمانية فرنكات ونصف ، وقد منحت لها بهذا الرخص للدعاية والاعلان من احدى المخـازن الكبيرة • كانت باريس آنئذ تزخر بالآلاف من هذا النوع ، وحينمـا شاهدها الكتبة الآخرون ، بدأوا بالتنكيت عليه والضحك منه ثانية ، فحز ذلك في نفس اوريول بشدة • ولم تكن المظلة من النوع الجيد ، وقد بدا

(*) ترجمت عن الانكليزية

عليها البلى بعد مضي شهرين ، مما أثار غبطة الوزارة كلها • حتى أنهم ألفوا أغنيــة تدور حولها ، وكانت تسمع في كل شبر من تلك البنـاية الضخمة ، أثناء الليل وأطراف النهار •

فاصدر أوريول أمره الى زوجه ، غاضبا ، أن تجد له مظلة جديـدة ذات جوانب حريرية بعشرين فرنكا وان تأتيه بوصل الاستلام لتثبت لـه أنها من النوع الغالي حقا •

وابتاعت واحدة بثمانية عشر فرنكا ، وسلمتها الى زوجها قائلة ، ووجهها يفيض احمرارا من الغيظ : هاك ! ستبقى هذه خمس سنوات على الاقل •

وانتفخت أوداج السيد اوريول ، فقد حقق نصرا مبينا في دائرته •

وعند عودته الى البيت مساء ، قالت زوجه وهي تلقى نظـرات قلقة على المظلة :ـ

ينبغي الا تبقيها مطوية هكذا بهذا الرباط المحكم • ان ذلك يسرع بها نحو التلف • وأمر المحافظة عليها موكول بعهدتك ، فضلا عن انني لن اشترى لك غيرها ، في الوقت الحاضر على الاقل •

ثم أخذتها وفكت رباطها ونشرتها أمامها لكنها توقفت فجاة واصفر وجهها •

كان هناك ثقب مستدير بحجم الفلس في وسط المظلة • ثقب حدث بلا ريب ، نتيجة حرق سيجار •

فقالت متلجلجة : كيف حدث لها هذا ؟

فأجاب زوجها بهدوء دون أن ينظر اليها ـ ماذا ؟ ماذا تعنين ؟

فالجم الغيظ صوتها ولم تستطع مواصلة النطق •

ـــ انك أحرقت المظلة • أنت مجنون • سترمينا بالافلاس !

فشحب لونه واستدار ـ ماذا تعنين ؟

ـــ لقد احرقت مظلتك ـ انظر !

واندفعت اليه كما لو كانت تريد ان تصفعه ، وأمسكت الثقب الصغير المستدير تحت أنفه •

فقال متمتما وقد ذهل لهذه الخسارة الفادحة :

لا ادري كيف حدث ذلك • لم أفعل شيئا ـ لا شيء مطلقا • واقسم على ذلك • ليس في مقدوري أن أحدس من أين جاء هذا الثقب •

كانت زوجه قد بلغت حد الصراخ والعويل : أراهن انك لهوت بها في الدائرة بحمق وجهل ، كالمهرج في السيرك • كنت تفتحها لتريها لكل من هب ودب •

فأجاب ـ فتحتها مرة لا غير لابرهن لهم كم هي جميلة ، هذا كل مافي الامـر • وأقسم عليه •

لكن زوجه ضربت الارض بعنف وواصلت تمثيل دور من الادوار التي

تحدق القيام بها بعض الزوجات لاحالة البيت الى جحيم مرعب يخشاه الرجل المسالم أكثر مما يخشى ساحة الحرب على ما فيها من سيل لا ينقطع من الرصاص •

وكان أن رقعتها بخرقة من الحرير ، ذات لون مغاير ، اقتطعتها من المظلة القديمة • وفي صباح اليوم التالي ذهب اوريول بذلة وانكسار بالمظلة المرقعة ، فوضعها داخل خزانته ومحا وجودها من ذاكرته كأية ذكرى مؤلمة •

وما ان عاد الى البيت مساء ذلك اليوم ، حتى اختطفت زوجه المظلة ونشرتها لتقوم بفحصها فتسمرت في مكانها وشحب لونها وراحت تحملق في ثقب جديد لايمكن رتقه • كان هذا محاطا بثقوب أخرى صغيرة كعيون الغربال ، لا ريب أنها نتجت عن حروق كما لو أنها بقايا مشتعلة من قصبة التدخين قد نفضت في طيات المظلة • كانت هذه الطامة الكبرى • لقد انتهت المظلة ولا يمكن تدارك الامر •

كانت تحملق في الكارثة دونما كلمة ، يعصف بها الغضب فلا تستطيع الكلام وحملق هو في مكان الحرق الا انه بقي ذاهلا خائفا في حالة من الجمود والاضطراب عظيمة • والتقت أعينهما ، فاطرق مسيو اوريول بنظراته الى الارض ، وكانت الخطوة التالية انها صفعته بالمظلة المعطوبة في وجهه • وأخيرا انحلت عقدتها فراحت تزأر وتصرخ بصوت يكاد ينفجر غيظا : آه ، أيها التعيس ، ايها الشقي لقد فعلتها عن قصد وتعمد • سأجعلك تدفع ثمن ذلك ولن تجد أخرى غيرها أبدا !

ثم بدأ الدور ثانية ، واستمرت في ثورتها ساعة كاملة الى أن سنحت له فرصة فشرح الامر • أقسم أيمانا مغلظة أنه لايعلم ماذا حدث ، ربما فعلها أحد بقصد الثأر أو الحقد ••

وأنقذه رنين الجرس ، وكان القادم أحد الاصدقاء ، جاء لتناول طعام العشاء •

وضعت مدام اوريول الامر بين يديه • أما وان الامر يتطلب شراء مظلة اخرى فهذا خارج عن نطاق البحث • ينبغي على زوجها ان يستبعدكل فكرة عن الحصول على مظلة •

وناقش الصديق ذلك الموضوع بطريقة منطقية : أذن مدام ، لا شك أن ملابسه ، وهي أثمن من ذلك ، ستقاسي الامرين •

فأجابت المرأة وكانت لاتزال غاضبة : حسنا • يستطيع أن يأخذ مظلة المطبخ • فلن أبتاع واحدة اخرى •

فثار مسيو اوريول عند سماعه هذا الاقتراح : في هذه الحالة سأتقدم باستقالتي ، لن أذهب الى الوزارة بمظلة مطبخ •

واستأنف الصديق قائلا : يمكنك تجديد هذه ، فلن يكلف الامر شيئا •

فتمتمت مدام اوريول بحمق : سيكلف ذلك ثمانية فرنكات . ثمانية زائدا ثمانية عشرة تساوي ستة وعشرين . ماذا ؟ ستة وعشرون فرنكا من أجل مظلة ؟ انه الجنون بعينه !

وهبط الوحي على الصديق ، وكان ينتمي الى الطبقة الوسطى الفقيرة :

دع شركة التأمين تدفع . كل الشركات تدفع ثمن الاشياء المتضررة بالحريق ، على شرط حدوثه في البيت .

فارتاحت المرأة الضئيلة لهذا الاقتراح على الفور، وبعد هنيهةقضتها في تقليب الامور على مختلف الوجوه ، قالت تخاطب زوجها :

اذهب غدا ، قبل ذهابك الى الوزارة ، الى شركة ماترنيل للتأمين واخبرهم عن حالة مظلتك واطلب تعويضا .

فقال مسيو اوريول : لن اجرؤ . انها مجرد ثمانية عشر فرنكا ذهبت سدى . هذا مجمل الامر . ولن تتسبب في افلاسنا .

وفي اليوم التالي ، خرج مسيو اوريول ، وفي يده عصا ولحسن الحظ كان الطقس صافيا لا ينذر بمطر .

شعرت مدام أوريول ، وهي في وحدتها في البيت ، بخيبة أمل للخسارة التي حلت بها لفقدانها ثمانية عشر فرنكا . كانت قد وضعت المظلة فوق المنضدة في غرفة الطعام ، فاخذت تدور حولها مرة بعد أخرى ، غير قادرة على أن تحزم رأيها على شيء أم تستطيع أن تبعد شركة التأمين عن خاطرها . ولكنها شعرت بأنها لا تجرؤ على مواجهة نظرات السخرية من الرجال الذين ستقابلهم . انها ستذوب خجلا وتشعر بالضيق والاضطراب ان اضطرت للتحدث مع الاغراب . والا فان حسرتها على ثمانية عشر فرنكا ، كانت كجرح لا يندمل ، فكان مجرد التفكير في خسارتها يدعوها الى الالم والحزن . ولكن ، ماذا عساها تفعل ؟

مضت ساعات ، ولم تستطع أن تقرر شيئا . وفجأة ، استقر رأيها على أمرها ، كالجبان اذ ينقلب في لحظات الى عنتر مغوار .

ـ سأذهب بنفسي وسأرى !

كان عليها أولا أن توسع الخرق في المظلة ليبدو الامر مقنعا . فأخذت نارا من الموقد واحدثت خرقا واسعا بين أضلاع المظلة ، يتسع لادخال قبضة يد . ثم طوت ما بقي من الحرير بكل عناية واحكمت شده برباط من المطاط . ثم ارتدت شالها وقبعتها وأسرعت الى شارع ريفولي حيث تقع دائرة التأمين .

واذ اقتربت من الشارع أخذت تسير بخطوات بطيئة متثاقلة . أية قصة سترويها على مسامعهم ؟ وماذا سيقولون ؟

ونظرت الى تسلسل الارقام المعلقة على واجهات المباني . لا يزال هناك ثمانية وعشرون رقما قبل أن تبلغ مبنى شركة التأمين . عظيم ! كان لديها

متسع من الوقت لتفكر في الامر • فأبطأت في خطوها أكثر من ذي قبل • وفجأة تسمرت في مكانها • كانت تقف عند باب كتب عليه بحروف مذهبة لامعة : شركة ماتر نيل للتأمين ضد الحريق •

أهكذا ، وبمثل هذه السرعة ! وتوقفت لحظة ، وهي تشعر بالضيق والخجل ، ثم تجاوزت الباب ثم مرت به ثانية ثم عادت أدراجها كرة اخرى • وأخيرا خاطبت نفسها • ينبغي أن أتشجع • والسرعة خير ما يضع الامور في نصابها ! لكنها حينما ولجت البناية شعرت بقلبها يدق بعنف • وسارت في قاعة فسيحة ذات نوافذ صغيرة تحيط بها من جميع الجهات • وبدا لها رأس رجل يطل خلال احدى النوافذ بينما كان جسمه مختفيا خلـــف شباك صغير •

وظهر أحدهم يحمل أوراقا بين يديه • فتوقفت وسألته بخجل : اسمح لي ، سيدي : أتستطيع ارشادي الى حيث أتقدم بطلب تعويض عن بعض الحوائج المتضررة بالحريق ؟ فأجاب الرجل بصوت جهوري ملؤه الثقة : الطابق الاول ، الى يسارك ، في قسم الحوادث الفجائية !

فزادت كلماته في اضطرابها ، وودت لو أنها ابتعدت هاربة وولت الادبار مضحية بالثمانية عشرة فرنكا • ولكن ما أن طرأ في خاطرها ذكر هذا المبلغ حتى استعادت شيئا من رباطة جأشها ، وصعدت الدرج وهي تلهث وتستريح بعد كل درجة •

وفي الطابق الاول شاهدت بابا فطرقته ، فسمعت صوتا يقول بوضوح ادخل !

وولجت الباب واذا بها في غرفة فسيحة وقف فيها ثلاثة رجال يحملون بعض الاوسمة يتحدثون بجد ووقار • فسألها أحدهم : ماذا تريدين ياسيدتي ؟

فانعقد لسانها وتلجلجت : جئت ، جئت ••• بخصوص حادث • فأشار الرجل بأدب الى كرسي وقال : اجلسي من فضلك • سأكون في خدمتك بعد دقيقة • ثم استدار الى السيدين واستأنف الحديث :

ـــ الشركة ملزمة أن تدفع أكثر من أربعة الاف فرنك • ولا يسعنا أن نأخذ بعين الاعتبار طلبكم التعويض عن المئة الف فرنك الاخرى • هذا مع أن التقديرات •••

فقاطعه أحد الرجلين : كفى ، سيدي سنحسم الامر في المحاكم • اننا نضيع وقتنا عبثا في هذا المكان •

ثم غادروا الغرفة بعد أن انحنوا عدة مرات بطريقة رسمية •

لو أنها جرؤت على الخروج خلفهم ! لو أنها تبعتهم ! كان في مقدورها أن تنفض يدها من كل شيء وتنفذ بجلدها • كم ستكون سعيدة لو فعلت ! لكنها لم تستطع • كان الرجل قد رجع ، فقال : أية خدمة استطيع اداءها يا سيدتي ؟

فقالت وهي تنطق بصعوبة : جئت من أجل هذا • فنظر المدير الى

الشيء الذي كانت تمسك به ، نظرات مشبعة بالدهشة والسخرية معا ٠
كانت تحاول حل الرباط المطاطي بيدين مرتجفتين ٠ وبعد محاولات عديدة ، نجحت ونشرت هيكل المظلة البالية ٠
فقال الرجل مشفقا : حقا ، انها في حالة يرثى لها !
فقالت معلنة بشيء من التردد : لقد كلفتنا عشرين فرنكا ٠
فبانت الدهشة على الرجل : حقا ! وكل هذا المبلغ أيضا !؟
ـ نعم ٠ لقد كانت من الطراز الفاخر ٠ لقد أردت أن تروا ما هي عليه الآن ٠
ـ حسنا ! حسنا ! لكنني لا أرى لي علاقة بالموضوع ٠
وفجأة اعتراها قلق شديد ٠ فلعل الشركة لا تعوض عن تضرر امثال هذه الحوائج الصغيرة ٠
وقالت : ولكنها احترقت ٠
فقال الرجل مؤمنا : أجل ٠ ذلك واضح ٠
ففغرت فاها ، لا تدري ما تقول بعد هذا ٠ وفجأة ، بان لها خاطر كان قد غاب عنها ، فأسرعت تضيف : انني مدام أوريول ٠ نحن مشتركان في التأمين عندكم ، وقد جئت هنا أطلب تعويض عن هذا الضرر ٠
ثم أردفت مسرعة ، خشية أن يرفض : انني أطلب منكم استرجاع ثمنها فقط ٠
فقال المدير وقد بدا عليه الضيق : لكن ، سيدتي ، اننا لا ندير حانوتا لبيع المظلات لذلك لا أرى كيف يمكننا أن ندبر أمر اصلاحها ٠
فتمالكت السيدة الضئيلة قواها ٠ كان عليها أن تكافح ! حسنا ، ستفعل ذلك !
فقالت وقد عاودها الهدوء : انني أطلب فقط تحمل مصاريف الاصلاحات ٠ وسأتولى ذلك بنفسي ٠
فبدا على الرجل شيء من الارتباك : الواقع ، سيدتي ، انها حاجة بسيطة للغاية ، ولسنا مخولين بالتعويض عن الضرر الواقع على مثل هذه الحوائج التافهة ٠ كما أنه لا يمكن أن يتوقع أحد ، كما قد توافقيني ، أن نقوم بالدفع عن المناديل والقفازات ، والمكانس والقباقيب أو أي من هذه الحوائج الصغيرة المعرضة في كل يوم الى خطر النار ٠
فاحمر وجهها حنقا وبدأت تضيق ذرعا ، سيدي : في شهر كانون الاول الماضي شب حريق في مدخنة المطبخ ، وقد تضررنا بسببه خمسماية فرنك على الاقل ، ولم يطالب مسيو أوريول الشركة بالتعويض عنه ، لذلك فان من العدل أن أعوض عن هذه المظلة ٠
فلاحت على المدير ابتسامة ، اذ شعر أنها تكذب عليه وقال : لا شك انك تعترفين سيدتي ، انه أمر يدعو الى العجب ألا يطالب السيد اوريول

بتعويض عن الضرر البالغ خمسماية فرنك ، ثم يطالب الان بخمسة أو ستة فرنكات لترقيع مظلة .

فردت دون خجل أو ارتباك : أرجو المعذرة سيدي ، فخسارة خمسماية فرنك نزلت بحافظة مسيو اوريول ، بينما الضرر الحالي البالغ ثمانية عشر فرنكا ، حل بمدام اوريول . وليس من العدل النظر اليهما بمنظار واحد .

فأدرك انه لن يستطيع منها خلاصا دون اضاعة يومه برمته . فقال وقد بدا عليه الرضوخ والاستسلام : هلا اخبرتيني عن كيفيــــة وقوع الحادث ؟

فبدأت تقص عليه ، وقد شمت رائحة النصر : حدث ذلك كما يلي : فقد اعتدت ان أضع المظلات وبعض عصي الخيزران في صندوق برونزي مفتوح . ويوم أمس بعد أن عدت الى البيت ، دسست هذه المظلة فيه . ينبغي أن أوضح أن احد الرفوف يقع مباشرة فوق الصندوق ونحن نضع عليه علب الكبريت والشمع . وحدث أن مددت يدي لآخذ بضعة أعواد من الكبريت . فحاولت اشعال الاولى ولكنني لم أفلح . وحاولت الامر مع الثانية فاشتعلت ثم انطفأت في الحال . ثم أردت اشعال الثالثة ففشلت .

فقاطعها المدير وقد حبكت عنده النكته : ــ كبريت حكومي حتما !

فلم تفقه معنى ذلك ، واستمرت تقول : ربما كان كذلك لن أطيل عليك فقد اشتعلت الرابعة . واستطعت اضاءة شمعة ، ثم غادرت الغرفة الى حيث أنام ، لكنني ظننت بعد حوالي ربع ساعة انني شممت رائحة احتراق ، لقد كنت دائما أخاف الحريق ولئن حدث شيء من هذا القبيل فلن يكون الخطأ مني ، خصوصا وأن النار التي اشتعلت في المدخنة والتي ســـبق ذكرها ، أرعبتني كثيرا ، لذلك قمت من الفراش ونزلت ففتشت هنا وهناك وأخذت أتشمم المكان كالكلب وأخيرا وجدت مظلتي وقد أحترقت ، ها أنت ذا تجد ان الحالة هذه تدخل تحت اختصاصكم .

كان المدير قد صمم على التخلص منها ، فسألها قائلا : بكم تقدرين الاضرار ؟

فلم تجب ولم تجرؤ على ذكر رقم أو تقدير .

ثم قالت وهي تبدي كرما بالغا .. لكم أن تصلحوها بأنفسكم ، انني مستعدة لوضع ثقتي فيكم .

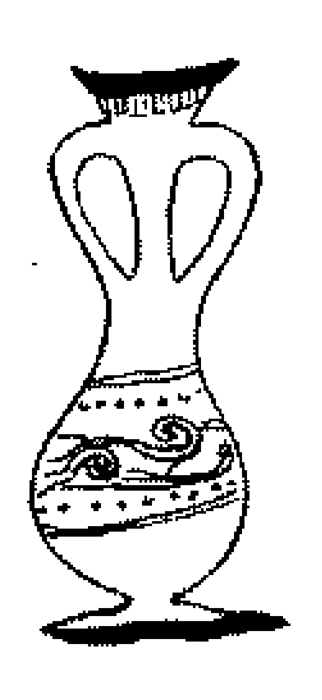
فقال المدير : كلا ، سيدتي ، لا يسعني أن أفعل ذلك فقولي كم تطلبين تعويضا .

ــ حسنا ، يبدو لي ... لاحظ يا سيدي ، انني لا أريد ابتزاز نقودكم، سندبرها على هذا الوجه . سآخذ المظلة الى أحد الحوانيت وأقوم بتغليفها مجددا بحرير فاخر ثم أبعث اليكم بقائمة الحساب . هل يرضيك هذا ؟

ــ بكل تأكيد ، سيدتي ، اتفقنا ، هذه تذكرة الى المحاسب ليدفع لك ما تصرفين .

وناول مدام أوريول وريقة فانتصبت واقفة وأسرعت نحو الباب خشية أن يغير المدير رأيه ٠

وفي هذه المرة نزلت الى الشارع بمرح وخيلاء تبحث عن محل راق لبيع المظلات ، فدلفت الى متجر من تلك المتاجر الارستقراطية الفاخرة ٠ وقالت بنغمة ملؤها الثقة والاعتماد : أحب أن تجددوا قماش هذه المظلة بأجود ما لديكم من أصناف الحرير ٠ انني لن ابالي كم سيكلفني ذلك !



بيتي

محمد طالب محمد

اصرخي ايتها الريح فقد ابصرت بيتي
هوذا الشباك .. يستغرق اشواقي وصوتي
ضارعا .. مرتعش الايدي .. اصفري في غور صمتي
انه بيتي .. جراحات ابي .. آماق اختي ..
انه موطن ترحالي اذا التيه طواني
ومتاعي ان ذوى جفن وجفت شفتان

انه بعضي .. حكاياتي التي ذابت شحوبا
ههنا الموقد .. هل تذكر أمي والطيوبا ..
والضحيكات التي تنداح في خطوي هروبا
في مساء لاهث الاعماق يجتر الهبوبا
ينفض الاغبرة التعبى ويستبكي جناني
ويدوي كانذياح الصمت في اصغاء آن .

*

لا تمت في خاطري يا أمس فالاجفان سكرى
والمتاهات التي جاءت بها الاعوام تترى
في شرود جاحظ الاعين يستوحيك ذعرا ..
لا تخف .. اني سدى ينصاع في نجواك قبرا
مكفهر الدرب .. لا الوي على طيف حنان ..
.. لا أزف البصر الزائغ للقبر المهان .

.. والخطى اثقلها السير فباءت بالرجوع
وايابي نهب تضييع عتي وخشوع
والدجى المرتاع يستنزف ابعاضي .. دموعي
لست بالمستصرخ الوهم خيالات شموع

فلقد انهيت ترحالي وعانقت مكاني
فاطمئني نفسي الحيرى فقد زاغ هواني ٠

*

منزلي في مهبط الشمس تناجيه الليالي
يرتمي في الغسق الناعس اطراق خيال
ويصلي في حناياه الدجى صمت جلال
انه معبد اطياف جنون وجمال ٠٠
والتفاتات تدانت من قرابين الزمان
واحتمت في مذبح الايام في ذعر افتتاني

حينما كنت أناجيها فتنساب لهمسي
نغمة في ليلي المقمر في انصات حسي
في قصيدي وانغماراتي واعماقي وطرسي
انها بؤرة الهامي واشراقة نفسي
وهواي العابق المورق في دوح جناني
وانتظاري يا لها انشودة اعيت لساني

وهنا والحزن يقصيني عن الامس المندى
فأراها بسمة ذابت على الاغساق سهدا
فلقد شطت لتستغفر قرب العيش بعدا
وانبرى اعصاري المفجوع خوفا مستبدا ٠٠
٠٠ ينهش الايام من قلبي ويستمطر حناني
اكؤسا تقضم اعصابي وتعتو بامتهاني

كم تغنيت بلقياها واغدقت سنيني
موغلا في زحمة الذوب واجفان الحنين
حيث يغفو لحني الغارق في ليلي الحزين ٠٠
٠٠ لسرى الاغساق ، اذ تكشف عن فجر سجين
ويمر العام ٠٠ والعام ٠٠ وتنوى مقلتان
ويصوم الحب في قلب الرجاء المتفاني

*

قهقهي يا لعنتي الغضبي ونوحي في شرودي
فخيالاتي تنزت عبثا يفري قيودي
واستشاط الهون ينقض على الامس البعيد ٠٠

•• بمدى محمومة الآجـــال كالجوع الطريـــد
فتلاشـــت من شرايبني طبول الغليـــان
وتعفـــرت بتـــرب الانصيـــاع المتـــداني

وغدا ان جفـــت الغدران واكتظ جفـــاقي
وأتـــت اعوامي الغرثى على بقيـــا مطـــاقي
واســـتبيح الحقـــل للريح وأزرت بالضفـــاف
فستنســـاق الخطـــى مجنونـــة حيث انعطـــافي
لـــرؤى منزلـــي الرابـــض في قلـــب حنـــاني
لمراميـــه التي ألوي لهـــا الـــف عنـــان ••

•• للـ«سوى»(١) المبصر آلامي يواسيني لموتي ••
•• لاغترابي في ظلام الغيب •• اذ ينضب زيتي
اذ سراجي جمرة تلـــدغ اطراقـــي وكبتـــي ••
فأدوي صارخا بالصمت ، قل لي أين بيتي ؟•
ثم ابكي – والصدى – مستغرقـــا في غثيـــاني
وتلـــوذ الغصة الثكلى بربـــض في كيـــاني •••

•
•
•

---

(١) ان السوى أو الخير لا يبصر الآلام الذاتية ، ولكنه هنا بعض من شخصية القصيدة المتمزقـــة •

حكاية تعريب الإلياذة

يعرب السعيدي

الرجال الذين أرسوا أسس النهضة الادبية في بلاد العرب كثيرون ، جالدوا الصعاب بارادة وانفة فرسموا للاجيال مثالا رائعا للاديب الفاضل ، ونحن .. حينما نتقدم بدراسة هؤلاء ، ونعرض طرفا من كفاحهم المجيد فلأننا نشعر أن في اعناقنا دينا لهم .. وانهم أولو الفضل والقدوة الخيرة لكل شخصية ادبية تنمو ، فما أحرانا ، اذن ، أن نتفحص تجاربهم ، ونهنه جراحهم القديمة بالبر والوفاء ، لذلك أخذتني رغبة في عرض صفحات مجيدة من قصة كفاح رجل عربي قدم لامته ، يوما ، تعريبا كاملا لاروع دلالة حضارية انسانية ، ذلك هو سليمان البستاني معرب الياذة هوميروس نظما .. وشرحا .. وأمانة .

لكن ما اكتبه عنه ليس تأريخا لحياة ، ولا هو حصرا لجهاده الشاق ودأبه المستمر في خدمة المكتبة العربية ، انما هي نبذ اعتمدت في استخلاص اكثرها على ما ورد في كتابه وعن لسانه .. في اروع قصة كفاح من أجل أدق واصدق تعريب للالياذة الخالدة .

فلقد كان الرجل مولعا منذ صغره بمطالعة الشعر القصصي خاصة ما تعلق منه بالخيال والعبادات القديمة ، حتى انه نظم ، قبل ان يتم العقد الثاني من حياته ، بعض قصائد كانت على حد تعبيره تثير الضحك كلما خطرت على باله من بعد . وهو ، بذلك ، لم يكن يستقي المياه من مواردها انما هي نبذ كان يلتقطها من كتب التدريس ، أو ما سقط عرضا من أفواه اساتذته ، وحين فهم مغاليق كثير من اللغات الاجنبية ، راح يطبق ما وصل اليه مع « الاصول » فرأى أن هزءه بنفسه شيء دونه هزء الاخرين اذ ان كل منظوماته التي ضمنها هاتيك النبذ كانت اشبه بيم مختبط اختلطت فيه عبادات الهند بعبادات مصر وآلهة الكلدان بالهة اليونان والرومان فالتبست اعلام افرنجية باعلام يونانية ، لهذا بدأ يشعر بخطورة موقفه ازاء كل نظم او تعريب وغدا يحس وعورة المسلك وهو مازال بعد فتى لم يتعد العشرين عاما .

لم يكن البستاني يريد التطاول على فن فيدخله من النافذة او السطح ،

كان يجتهد ، طاقته ، من اجل ان يسير بخطى واثقة فيلج الميدان من بابه الصريح •

كان اعجابه بالالياذة يزداد كلما قرأ منظومة قديمة او حديثة ، وكان يرى فيها ، شأن كل ذواقة ، رونقا يتجدد رغم قدم عهدها ، ورواء لذيذا وبلاغة تفوق ما عليه المنظومات الاخرى بجلائها ووصفها الشعري الرائق• لقد كان يفكر بصدق ليضيف « الدرة اليتيمة » كما اطلق التسمية •• الى اللغة العربية ، اذ كان يرى ان شعر الافرنج ولغاتهم لم يكن فيها ما يوفر للالياذة اسباب البروز بحلة اروع مما تهيئه اللغة العربية كما انه كان يؤكد بأن في الملحمة الخالدة من المعاني والحكمة والوصف ما ينطبق ومعاني الشعر العربي المتقدم ، وأن الشبه واضح تماما بين اللغتين اذ ان في كلتيهما قربا الى الفطرة ، وجاهلية متقاربة •

كانت الالياذة تلح عليه في أن تدخل المكتبة العربية بحرا لاينضب معينه من السحر ، ومثالا ينسج الشعراء على منواله ، وكان هو أول من روض نفسه بها ، فبدأ يعمل ، وحين نظم اول بيت منها لم يهدأ حتى أتم عمله الكبير •

وفي اخريات سنة ١٨٨٧ كانت البداية لنظم أول أبيات منها ، توكل الرجل على الله ، وبدأ عمله في القاهرة ، حيث اعتمد الترجمات الفرنسية والانجليزية والايطالية كبداية • وحين أتم ثلاث قصائد كاملة حمل مسوداتها وجعل يعرضها على من عاصره من الادباء والشعراء ، فقرأ لهم ، فاستحسنوا رغم اختلاف مشاربهم في المذهب الشعري ، فزاد هو نشاطا بما وجد فيهم من تشجيع • كان عنده أن يعرض انتاجه ليتعرف وقعه في النفوس، وليتبين ، اذا ، مواطن الخلل ، لانه ما كان يريد التوغل بعمل كحاطب ليل• وحين آنس من اصدقائه الخوف عليه من القنوط في متابعة عمله الشاق لما فيه من تعب أكيد وكثرة ما يستلزمه من نفقات مالية لطبعه واخراجه الى حيز الوجود •• لم يجزع ، ولم يتشاءم ، كان متفائلا بحق •• ليس به جشع للربح •• وهو راض بالخسارة • كان يقول بأن ليس ذلك ترفعا عن الكسب ولكن لغرام في النفس تستسهل الصعب في سبيله ، ولا شك بأن صدق الرجل فيما ذهب اليه كان عظيما اذا ما رأينا كتابه الذي يعد ستا وخمسين ومائتين والف صفحة من القطع الكبير المطبوع بمطبعة الهلال بمصر سنة « ١٩٠٤ » ، ان عملا كهذا لا يمكن ، بحال ، ان يدر ربحا ماديا في حين يجب الا نغفل ما عاناه من خسارة اضافة الى عمله المرهق الذي استنزف منه أكثر من ثماني سنوات حافلة بالجهد والعرق والسهر •

ان الامانة في التعريب ، والصدق في نقل المضمون دفعا شاعرنا الى ان يقابل ما أكمل نظمه بالترجمات الانكليزية والايطالية والفرنسية بعضها ببعض ، فرأى ، حينئذ ، فرقا كان يصعب عليه معه أن يلمس بوضوح الشيء الاكثر وثوقا لترجمة دون أخرى ، لذلك فكر بأن يوقف النظم ورأى أن لا خلاص

الا بالرجوع الى الاصل اليوناني الذي يقطع الشك ويؤكد اليقين • لكن معرفته باللغة اليونانية كانت بسيطة لا تتعدى القسراءة وبعض المفردات السهلة ، فوطد العزم على أن يدرس اليونانية فراح يبحث عن استاذ متفرغ فلم يهتد ، انما ارشدوه الى أب يسوعي تفرغ له أشهرا والقى عليه دروسا خاصة في اللغة اليونانية وآدابها ، وفسر له فصولا من الالياذة وهو مكب على الدرس بالحاح الى أن استطاع اخيرا ان يستتم درسه لوحده ، فعاد للتعريب ثانية مستعينا بكتب اللغة وتفاسيرها ومطالعتها دائما من أجل ان يجيء التعريب بعيدا عن مواطن الضعف • حينئذ عاد الى ما ترجمه سابقا وراح يقابله مع أصله فوجد ما ألجاه الى التصحيح والتنقيح ، حتى أنه أعاد نظم مقاطع كاملة ، وراح يحكم نظم البيت بامعان وترو •

وفي عام « ١٨٨٨ » غادر شاعرنا القاهرة متجولا في بلاد الهند واقاصي بلاد العجم ثم استقر به المطاف في العراق حيث اقام فيه سنتين ، وكان يعرض ما أنجزه من التعريب على ادباء العراق وشعرائه فكان يرى هـزة الطرب تأخذ سامعيه وكان كما قال يرى في ادباء العراق ولعا بسماع الشعر ، ثم شخص الى الاستانه واستقر فيها سبع سنوات سافر خلالها سفرات متقطعة الى سوريا واوربا وامريكا ، وكان في كل ذلك يختلس الاوقات لاتمام مهمته ، ولعله توخى من سفرته الى الاستانة الاستفادة من اهلها حيث اتصل ببعض أدباء اليونان الذين يعشقون هوميروس فاجتمع بكاستافريسدس وكاروليندس الاستاذ بكلية خلكي اليونانية بالاستانه ، وكان يشاورهم الرأي في بعض ما يغلق فهمه ، وحين كان يقرأ لهم ما انجزه من المنظوم العربي كانوا يستبشرون فرحا وفخارا •

وفي صيف « ١٨٩٥ » خـرج بعائلته الى مصيف فنار باغجه قرب الاستانة ولبث اربعة اشهر فرغ خلالها من التعريب • ولكن نداء الحنان كان يلح عليه بالرجوع الى القاهرة ، فشد الرحال عائدا سنة « ١٨٩٦ » ، وهناك تفرغ لكتابة الشروح ثم باشر بالطبع سنة « ١٩٠٢ » وفي نهاية ربيع « ١٩٠٣ » تم طبع الكتاب وهكذا فقد كان الفراغ منه حيث كان الشروع فيه بالقاهرة •

لقد انجز المرحوم سليمان خطار سلوم نادر البستاني عملا كبيرا ستذكره الاجيال بفخر وتذكر معه قصة كفاح رجل كان يحس بمسؤوليته تجاه امته فترك تراثا ادبيا شريفا توخى فيه تحري الصدق فقدم الينا هوميروس شعرا عربيا شامخا وتعريبا أمينا •

ولا أجد في نهاية البحث خيرا من قولته « فان احسنت وفيه منتهى جهدي فذلك من حسنات الاجتهاد والا فحسبي أن افتحه بابا يلجه من وفقه الله الى سبيل السداد » •

أثر الحديث في نشأة التاريخ عند المسلمين

بشار عواد معروف

لا مراء في ان الباحث حينما يريد تتبع اثر علم الحديث في علم التاريخ عند المسلمين ، لابد له ان يتتبع بدقة وامعان تطور هذين العلمين ، مبينا العلاقة التي لازمت كلا منهما ، واثرها – سلبا أو ايجابا – في تطور العلم الاخر • وهذا الامر يحتم على الدارس ان يلقي نظرة عجلى على منشأ علم التاريخ عند المسلمين ، وعلاقته من هذا الوجه بالحديث النبوي ، ومن ثم تبيان تطور الفكرة التاريخية عند المؤرخين الاوائل ، ودراسة اساليبهم في الكتابة التاريخية ، وفحوى كتبهم في هذا العلم ، والعوامل التي دفعتهم الى الكتابة بالشكل الذي وضعوا فيه مدوناتهم •

ولا يشك الباحث لحظة في ان معرفة الغاية من كتابة التاريخ عند المسلمين ، ودراسة الاتجاهات المختلفة في الكتابات التاريخية في مختلف العصور ، ستأخذ بايدينا نحو الفهم الصحيح لمعنى التاريخ عند المسلمين ومن ثم اثر علم الحديث فيه •

ولسنا هنا بحال يسمح لنا بدراسة الجذور التاريخية لعلم التاريخ عند المسلمين ، ولاسيما ما يتعلق بالعصر الجاهلي ، ويمكننا في مثل هذا المجال ان نحيل القارىء الى بعض البحوث الحديثة في هذا الباب[1] • على ان الامر الذي يبدو أكثر أهمية هو تبيان العوامل التي دفعت المسلمين الى الاهتمام بالتاريخ من جهة ، وتتبع الاساليب التاريخية التي سادت عصر صدر الاسلام ، وتطورها فيما بعد من جهة أخرى • ونحن حينما نستطيع تتبع هذه الدوافع ، ونبين ما انقرض منها ، وما استمر ، سنستطيع ان نعطي احكاما اكثر دقة ، وربما اقرب الى الواقع •

عوامل اهتمام المسلمين بالتاريخ :

١ – ان فكرة توالي الانبياء وان محمداً (ص) خاتم النبيين ، وهي الفكرة التي جاء بها الاسلام ، دفعت الكثير من العلماء المسلمين الى الاهتمام بدراسة هذا التسلسل التاريخي ، ومن ثم دفعهم هذا الامر الى دراسة التاريخ منذ الخليقة (المبتدأ) ، واعتمدوا في ذلك كثيرا على كتب الديانات السماوية • وبرز في هذا الميدان عالم عظيم لعب دورا مهما هو وهب بن منبه المتوفى سنة ١١٠ هـ[2] ، كما برزت أسماء آخرين مثل كعب الاحبار ،

ومحمد بن كعب القرظي(*) وغيرهما ٠

على ان الذي يلاحظ في هذه الكتابات انها كانت مقتصرة على عصر ما قبل الاسلام من جهة ، ثم انها لم تعد تظهر الا في مقدمة كتب الحوليات كتاريخ الرسل والملوك لمحمد بن جرير الطبري ، والمنتظم في تاريخ الملوك والامم لابن الجوزي ، والكامل في التاريخ لابن الاثير والبداية والنهاية لابن كثير وغيرها ، يتناولها كتاب الحوليات هؤلاء الواحد عن الآخر ، ولذا فان أهميتها قلت ولم تعد ذات أثر بالغ في تطور الكتابة التاريخية عند المسلمين ٠

٢ - وجاء القرآن بكثير من القصص واخبار الانبياء ، توسع في بعضها ، وأشار اشارات عابرة الى البعض الآخر ؛ فكان لا بد ان يتجه المسلمون نحو تقديم معلومات أوسع عن هذا القصص ، ويكونوا من الاشارات التي جاء بها القرآن عن الانبياء سيرا طويلة(٣) ، اعتبرت حينا جزء من تفسير القرآن ، ومادة للسمر حينا آخر ٠ على ان هذه المادة التي يصعب ان تطلق عليها «مادة تاريخية» ظلت تنتقل في كتب التفسير ، وقلما انتقلت الى كتب التاريخ اللهم الا كتب الحوليات ، وبعض الكتب الاخرى ، باعتبارها مادة مكملة للقسم الخاص بما قبل الاسلام ، وكان المسلمون يضطرون الى قبول بعض الروايات ، في موضوعات خاصة ليس في ذكرها وتدوينها ضرر كبير ، حينما لا يجدون الا هذه المادة التاريخية ٠ ومن هنا ارتضوا لانفسهم ان يأخذوا عن بعض الاشخاص التفسير في الوقت الذي لم يأخذوا عنهم الحديث ؛ فتكلم يحيى القطان مثلا عن جويبر بن سعيد البلخي ، ومحمد بن السائب الكلبي ، والضحاك بن مزاحم وهم تلامذة سعيد بن جبير المتوفى سنة ٩٥ هـ(٤) وقال : « هؤلاء لا يحمل حديثهم ، ويكتب التفسير عنهم(٥) » ٠ ولا مراء في أن هذا النقد لم يكن متأتيا عن « اختصاص » هؤلاء الاشخاص في التفسير ، وعدم معرفتهم برواية الحديث ، لكن للحديث أهميته في التشريع ، وليس في تفسير بعض ما ورد في القرآن من اشارات عن « اساطير الاولين » ، أو الخليقة مما يدخل في الحياة الاسلامية بصورة حادة ٠ وقد عبر عن ذلك المؤرخ المحدث المفسر عماد الدين ابن كثير الدمشقي المتوفى سنة ٧٧٤ في مقدمة كتابه « البداية والنهاية » فقال : « ٠٠٠ ولسنا نذكر من الاسرائيليات الا ما أذن الشارع في نقله مما لا يخالف كتاب الله ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ٠ وهو القسم الذي لا يصدق ولا يكذب ، مما فيه بسط لمختصر عندنا ، أو تسمية لمبهم ورد به شرعنا مما لا فائدة في تعيينه لنا ، فنذكره على سبيل التحلي به لا على سبيل الاحتياج اليه والاعتماد عليه ٠ وانما الاعتماد والاستناد على كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما صح نقله أو حسن ، وما كان فيه ضعف نبينه»(٦) ٠ ومع ان ابن كثير قد تكلم على الخليقة والمستقبل وضمن كثيرا من هذه الاخبار كتابه كخلق العرش والكرسي والسموات ، والأرضين وما فيهن وما بينهن من الملائكة والجان والشياطين ، وكيفية خلق آدم عليه السلام ، وقصص النبيين ، وما جرى

مجرى ذلك الى أيام بني اسرائيل وأيام الجاهلية وغير ذلك(٧) ، لكنه اشتكى من كثرة ما أورد الذين كتبوا من قبله عن هذا الموضوع فقال : « وقد قص الله على نبيه صلى الله عليه وسلم خبر ما مضى من خلق المخلوقات ، وذكر الامم الماضين ، وكيف فعل بأوليائه ، وماذا حل باعدائه . وبين ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم لامته بيانا شافيا ، سنورد عند كل فصل ما وصل الينا عنه ، صلوات الله وسلامه عليه ... وقد يستوعب نقله طائفة من علمائنا ، ولسنا نحذو حذوهم ، ولا ننحو نحوهم ، ولا نذكر منها الا القليل على سبيل الاختصار . ونبين ما فيه حق مما وافق ما عندنا ، وما خالفه فوقع فيه الافكار . »(٨)

ومن هنا يلاحظ أيضا ان هذه المادة نفسها كانت تتكون من الاحاديث النبوية ، ولا يهمنا في هذا المضمار سواء كانت هذه الاحاديث من الاحاديث الصحيحة أو الموضوعة ، وغالبها كذلك بالطبع ؛ اذ ان المهم هو انها كانت الاساس الذي قام عليه التفسير في مثل هذا المجال ، كما كانت الاساس الذي قامت عليه كتب « المبتدأ » والتي دخلت كقسم أول في كتب الحوليات .

٣ ـ وقد لقيت أحاديث الرسول (ص) اهتماما بالغا عند العلماء المسلمين نظرا لدخولها في التشريع ؛ فاهتموا بها ، وتدارسوها ، ورتبوها باشكال مختلفة حسب الحاجات ، وتفكير الاشخاص . ووضعوا لها علوما اعتبرت بحق أعظم ما انتج الفكر الاسلامي . وهي الى جانب كونها ذات الاثر البين في تطور الكتابة التاريخية عند المسلمين ، تكون بحد ذاتها مادة تاريخية واسعة عن القرن الاول الهجري خاصة . وسنتطرق فيما يأتي من مباحث عن هذا الامر بتفصيل اذ ان مدار بحثنا مرتكز عليه بالدرجة الاولى .

٤ ـ ولما توفي الرسول (ص) وجاء الخلفاء الراشدون الى الحكم اهتم المسلمون باعمالهم ، وتنظيماتهم ، يدفعهم الى ذلك المركز العظيم الذي تمتع به هؤلاء الخلفاء الاجلاء ، واعتبارهم المثل الاعلى للخلق القويم والسيرة الصالحة ، ومن ثم اعتبر الكثير من الفقهاء ـ فيما بعد ـ ان اعمال الخلفاء الراشدين تأتي بعد أعمال النبي ، كما اهتموا باقوالهم واحاديثهم ، بله أقوال واحاديث الصحابة أجمعين ، نظرا لاعتماد الكثير من المسلمين عليها في التشريع ، ولا يشك المرء لحظة في ذلك عند دراسته لكتب اصول الفقه(٩) والكتب التاريخية التي تعنى بالامور الفقهية والاخلاقية والاقتصادية .

٥ ـ وكانت الفتوح الاسلامية مادة طيبة لتدوين التاريخ ؛ فهي ذات أهمية في تقرير احوال الشعوب المفتوحة تبعا لنوع الفتح ، كما انها تقرر نوع المعاهدات والاتفاقات التي عقدت بين العرب الفاتحين وسكان البلاد المفتوحة ، وأخيرا فانها تكون جزء من المادة « الفقهية » التي يترتب عليها الكثير من أمور التشريع ؛ فمن ذلك آداب الحرب ، وما يعامل به غير المحاربين من النساء والاطفال والعجزة والرهبان ، وتوسعت بذلك البحوث التي

تتناول العلاقات بين الدولة الاسلامية وغيرها من الدول • كذلك تنظيم أمور الخراج والجزية والعشور وما الى ذلك من الامور • ولذلك لاحظنا تأليف كتب كثيرة في هذا الموضوع لعل أشهرها كتب علي بن محمد المدائني « ت ٢٢٥ هـ » وكتاب يحيى بن جابر البلاذري « ت ٢٧٩ هـ » « فتوح البلدان » الذي رتبه على الاقاليم ، تناول في كل منها : فتحه ، ونوع الفتح، وما عمل الفاتحون به •

٦ — وقامت تنظيمات الدولة الاسلامية في القرن الاول الهجري على أساس التنظيمات القبلية ،(١٠) بغض النظر عن التعديلات أو التبديلات التي أدخلت زمن الخلفاء الراشدين ، وخاصة أيام الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ، على هذه القبائل من حيث تقسيماتها واعدادها ؛ فكان العطاء (الرواتب) يوزع على أساس القبائل حيث يعطى عطاء القبيلة الى رئيسها ويوزع بعد ذلك على أفرادها ، ولذلك قسمت المجتمعات الاسلامية في القرن الاول الهجري على أساس القبائل أيضا • وكان العطاء وتنظيماته تعتمد على أمور مختلفة ، على أن أهمها السبق في الاسلام ، وهو أمر يرتبط أيضا بالقبائل بشكل واسع ، اذ غالبا ما كان اسلام القبائل عاما ، أي ان معظم القبيلة ، أو العشيرة ، تسلم مرة واحدة وذلك عندما يدخل شيخها في الاسلام • كما أخذت القرابة من الرسول (ص) بنظر الاعتبار ، وكذلك الخدمات التي قدمتها القبائل أو العشائر أو الافراد للاسلام • ومن هنا كان أن ظهرت الكتب التي تهتم بهذه الامور ، وغالبا ما ظهرت على شكل كتب « انساب » • ولعل خير ما يصور هذا الامر هو كتاب « النسب الكبير » لابن الكلبي ، الذي اعتمد عليه الكتاب الذين وضعوا كتبا في هذا المضمار مثل محمد بن حبيب السكري ، وابن حزم ، والسمعاني وغيرهم •

٧ — ولما كان تنظيم الدولة قد قام على أساس قبلي ، ونظمت المجتمعات الاسلامية على أساسها ، لذلك انبرى كتاب القبائل الى تأليف الكتب والرسائل التي تظهر أمجاد قبائلهم ومفاخرها ، ومكانتها في الجاهلية ، وفي الاسلام بصورة خاصة ، ويبدو ذلك واضحا في الكتب التي ألفها مصعب الزبيري ، والزبير بن بكار ، وأبو عبيدة ، وغيرهم(١١) •

٨ — وكان الصراع السياسي ، في القرن الاول الهجري خاصة ، مادة غنية استمد منها بعض الكتاب مادة لكتبهم ، كالصراع بين العلويين والامويين مثل كتاب « صفين » لنصر بن مزاحم المنقري ، وكتاب « مقتل حجر بن عدي » لابي مخنف(١٢) ، أو موضوعات أثارت فضول الناس ، كأعمال الحجاج بن يوسف الثقفي الذي ألف المدائني كتابا في اخباره ووفاته(١٣) ، أو عبدالله بن الزبير الذي ألف أبو مخنف كتابا في مقتله(١٤) ، لما عرف عن قصته من التضحية والشجاعة والوفاء ، وما فعله الامويون عند حصاره ••• الخ • وكانت هذه الكتب وامثالها مادة طيبة للسمر في ليالي الصيف العليلة ، وليالي الشتاء الباردة الطويلة ، يتداول الناس فيهما

الطرائف والاخبار ، وهي أنس للانيس والمجالس ٠

٩ ــ وكان للصراع الذي نشأ بين الاسلام وغيره من الـــديانات ، ولا سيما المجوسية ، والامور التي ترتبت عليه من ظهور الشعوبية ، ومبدأ التسوية ، قد دفع الكثيرين ممن يعطفون على دياناتهم ــ المستورة ــ أو ديانات آبائهم واجدادهم ، الى وضع الكتب التي تبين مجدهم وفضائلهم ، وتقلل من شأن العرب ــ وهم مادة الاسلام ــ فظهرت لنا عند ذلك الكتب الكثيرة في أخبار الفرس ، وملوكهم ، ووزرائهم ، وعقلائهم ، ومثالب العرب ٠ وانتج رد الفعل المعاكس كتبا تناولت مفاخر العرب ، وفضائلهم ، وفضلهم على العجم ، كما تناولت ايامهم ومآثرهم(١٥) ٠

١٠ ــ وفي القرن الثاني الهجري بدأت الدولة الاسلامية بالتعقد ، وازداد نفوذ السلطة الحكومية ، وأصبحت تنظيمات الدولة على درجة كبيرة من الاتساع والتعقيد ، الامر الذي دفع ، من لهم صلة بهذه الناحية واهتمام بهذا الامر ، من الكتاب والمؤلفين ، الى وضع الكتب التي تبحث في الادارة بغية تسهيل مهمة الموظف الحكومي ؛ فوضعت الكتب في الادارة عموما مثل كتـــاب الخـــــراج لابي يوســــف القــــاضي ، وكتـــــاب « الخــــراج وصنعـــة الـكتابة » لقدامـــــة بن جعفر الـكاتب البغــــدادي ، الـــذي تناول في كتابه دواوين الدولة العباسية وبحثها بحثا مسهبا وبين العلاقة بين هذه الدواوين ، ودوائر الدواوين نفسها ، وكيفية العمل فيها ، وأورد نماذج من التوقيعات في تعيين موظفيها ، كما تطرق الى موضوعات كثيرة أخرى(١٦) ٠ أو انها تناولت موضوعا خاصا كالوزارة مثل كتاب « الوزراء » للثعالبي ، « والوزراء والكتاب » للجهشياري ، والقضاء مثل كتاب « أدب القاضي » لابي عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة ٢٢٤ هـ ، وكتاب « أدب القضاة » للخصاف(١٧) ، أو كتاب « روضة القضاة وطريق النجاة » لابي القاسم علي بن محمد بن أحمد السمناني الحنفي المتوفى سنة ٤٩٩هـ(١٨) الذي احتوى على معلومات مفصلة عن صفات القاضي ، وشروطه ، وأحكامه ، وكاتبه ، وبوابه ٠ كما تكلم فيه عن « صاحب الحبس » وأورد معلومـات فريدة في بابها عن « ديوان الحكم » سماه « قبض ديوان الحكم وتسلمــــه وكيف العمل في ذلك »(١٩) ، أو في الحسبة وفيها كتب كثيرة ٠

ان هذه الكتب لا تدخل كلية في الكتب « التاريخية » اذ انها كتب « ادارية » ، اذا صح التعبير ، أكثر منها تاريخية ، على الرغم من احتوائها على حوادث تاريخية ٠ ثم انها الى جانب ذلك قليلة نسبيا اذا ما قيست بالكتب الهائلة التي وضعت في التاريخ الاسلامي بشتى الصور التي كتب بها ٠ كما ان التأليف في مثل هذه الكتب أصبح قليلا أو كاد ينعدم بعـد القرن الخامس الهجري ، اذا استثنينا بعض الموسوعات التي اعتمدت في جل مادتها على الـكتب الاولى مثل كتاب « صبح الاعشى في صناعة الانشا » للقلقشندي ٠

١١ ـ ووضعت بعض الكتب كتاريخ سياسي ، يوضح تجارب الامة ، ويدون الاحداث والوقائع الخطيرة دون أن يحوي تراجم أو يهتم بها ، الا في القليل النادر . وكانت الغاية من تأليف أمثال هذه الـكتب ، تسـجيل الاحداث التي تمر بها الامة الاسلامية وفائدتها البالغة لأولي الامر قال ابن الاثير : .... فاذا طالعها فكأنه عاصرهم ، واذا علمها فكأنه حاضرهـم ؛ ومنها ان الملوك ومن اليهم الامر والنهي اذا وقفوا على ما فيها من سـيرة أهل الجور والعدوان ورأوها مدونة في الكتب يتناقلها الناس فيرويها خلف من سلف ونظروا الى ما أعقبت من سوء الذكر وقبيـح الاحدوثة وخراب البلاد ، وهلاك العباد ، وذهاب الاموال ، وفساد الاحوال ، استقبحوها وأعرضوا عنها واطرحوها ، واذا رأوا سيرة الولاة العادلين وحسنها وما يتبعهم من الذكر الجميل بعد ذهابهم وان بلادهم وممالكهم عمرت وأموالها درت ، استحسنوا ذلك ورغبوا فيه وثابروا عليه وتركوا ما ينافيه ، هذا سوى ما يحصل لهم من معرفة الآراء الصائبة التي دفعـوا بها مضرات الاعداء وخلصوا بها من المهالك واستصانوا نفائس المدن وعظيم الممالك .. ومنها ما يحصل للانسان من التجارب والمعرفة بالحوادث وما تصـير اليـه عواقبها فانه لا يحدث أمر الا قد تقدم هو أو نظيره فيزداد بذلك عقـلا ويصبح لأن يقتدى به أهلا .»(٢٠) ، وأكد الكتاب المسلمون على « العبرة » و « الاتعاظ » في مثل هذه الكتب ولعل العنوان الذي وضعه الذهبي لكتابه « العبر في خبر من عبر » يصور هذا الامر أحسن تصوير . وكانت الغاية من هذه الكتب السمر أيضا ؛ فهي مادة طيبة مؤنسة في المجالس ، قال ابن الاثير عند ذكره لفوائد التاريخ : .. ومنها ما يتجمل به الانسان في المجالس والمحافل من ذكر شيء من معـارفها ، ونقل طريفـة من طرائفها ، فترى الاسماع مصغية اليه ، والوجوه مقبلة عليه ، والقلـوب متأملة ما يورده ويصدره ، مستحسنة ما يذكره(٢١) . ومما يصور لنا التجربة في مثل هذه الكتب تصويرا دقيقا العنوان الذي وضعه مسكويه لكتابه اذ اطلق عليـه « تجارب الامم وتعاقب الهمم » .

على ان هذه الكتب وان استمرت لفترة معينة لكنها أخذت بالاضمحلال والضمور والتقلص ، وحينما سيطرت الفكرة الدينية في كتابة التاريخ مرة أخرى ، نرى هـذه الكتب وامثـالها تعود فيصـبح فيها الاهتمام بالتاريخ السياسي أقل كثيرا من الاهتمام بالتراجم ، وهو أمر يدل على أثر علـم الحديث في مثل هذا النوع من الـكتب(*) .

هذه هي الخطوط العـامة التي دفعت العلماء المسـلمين الى الاهتمام بالتاريخ ، الى جانب العامل الاكبر ، وهو الحديث النبوي . وسنوضح فيما يأتي ان الحديث وعلومه اخترع فنونا جديدة في صور الكتابة التاريخية ، وترك أثرا عظيما في الصور الاخرى .

بقي علينا الآن ان نوضح اتجاهات الكتابة التـاريخية التي لازمت

تطور علم التاريخ عند المسلمين ، ونحاول ان نوضح الصلة بين هـــذه الاتجاهات التي تناولناها وبين دراسة الحديث وعلومه ٠

كانت المراكز العلمية الرئيسة في صدر الاسلام هي المدينة ، والعراق ــ البصرة والكوفة ــ ، وفي هذه المراكز قامت الحركة الفكرية وانتعشت وأصبحت أساسا للدراسات التي ظهرت فيما بعد في الانحـاء الاخرى من العالم الاسلامي ٠ وكان طابع الحركات الفكرية في هذه المراكز قد تأثر الى حد كبير بالحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية ٠ ففي البصرة والكوفة مثلا كانت التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية وحتى السياسية تقوم عـلى أساس التنظيم القبلي ؛ فقسمت البصرة الى أخماس لكل قبيلة من القبائل النازلة فيها مكان خاص بها يسمى « ربع » ٠ كما قسمت الكوفة الى أربعة أقسام حسب القبائل النازلة بها أيضـــا ٠ وكانت الاحـــوال الاجتماعية مرتبطة ارتباطا كليا بالتنظيم القبلي هذا ، كالدية والعاقلة وما الى ذلك ٠ ومن هنا بقي سكان هذه المناطق طوال القرن الاول الهجري على طبيعتهـم القبلية ، ومن ثم فان دراسة التـاريخ اتخذت هي الاخرى اتجـاها قبليا ، فكانت استمرارا لاسلوب « الايام »عند العرب ٠ وبالطبع كانت الموضوعات التي تناولها هؤلاء العلماء ذات اتجاه مرتبط بالقبـــائل بالدرجة الاولى ؛ ولذلك اهتموا باخبار القبائل ، وايامهـا ، وانســـابها ، وشعرائها وكل ما يتعلق بها ويدور حولها ٠ واتسمت الكتابات في هذين المصرين ــ البصرة والكوفة ــ بنوع من الاختصـاص ، فظهـر كتاب اختصـوا بالاخبار ، أو الانساب ، أو الشعر ، أو اللغة وهلم جرى ٠

وغالبا ما كانت الاخبار في القرن الاول الهجري تروى شفاها يتناقلها الرواة بعضهم من بعض ، دون تدوين لها في الاغلب الاعـــم ٠ كمـــا ان « الاختصاص » الذي ذكرناه في الاخبار أو الانساب أو الشعر أو اللغة كان يتداخل في بعض الاحيان ؛ فنجد الرواة يتنـــاولون موضوعات هي ، في الحقيقة ، مكملة لمواضيعهم متممة لها ، فلابد لراوية الاخبار مثلا ان يتعاطى الشعر أو يرويه ، أو يستعمل اللغة لتوضيح بعض الغريب في الخبر أو الشعر الذي يرويه ٠ ومن مؤرخي هذه المدرسة خاصة عوانة بن الحكـــم المتوفى سنة ١٤٣ هـ(٢٢) ، وأبو مخنف لوط بن يحيى « ت ١٥٧ » (٢٣) وسيف بن عمر«ت١٨٠هـ»(٢٤) ونصر بن مزاحم المنقـــري «٢١٢هـ»(٢٥) وعلي بن الحسن المدائني «ت ٢٥٢ هـ»(٢٦) وغيرهم ٠

كانت هذه المدرسة بعيدة نسبيا عن تأثيرات علم الحديث في البداية ، لكنه أثر عليها أثرا واضحا في اضطرارها الى أخذ الاسناد ٠ ومن ثم يضاف الى ذلك انها أخذت تضمحل وتضمر أمام مدرسة المدينة التي قامت عـــلى الحديث ودراساته ، وأخذت الاخيرة تضم تحت جناحها معظم الصور التي كتب بها التاريخ الاسلامي ٠ هذا من جهة ، ومن جهة أخرى يلاحظ ان علم الحديث بدأ الى جانب اثره في الاسناد يؤثر على طريقة عرض الرواية عند

هذه المدرسة ، بله واصبح كثير من هذه الاخبار يدخل ضمن الكتب التي وضعت لتكون من كتب « اللغة » و « الادب » أكثر من دخـــولها في كتب « التاريخ » • ويبدو هذا الامر اكثر وضوحا وانجلاء في كتب الاسـمار ، والمجاميع، مثل « عيون الاخبار » لابن قتيبة الدينوري وبعض كتب الجاحظ وكتـاب « الاغـاني » لابي الفـرج الاصفهـاني ، والعقـد الفريـد لابـن عبد ربه الاندلسي وغيرها • والحق ان هذا النوع من الكتب نفسه تطور فيما بعد ، وأصبح يحتوي على « تراجم » بشكل اكثر مما كان عليه ، وهو بحد ذاته مظهر آخر من مظاهر تأثير علم الحديث في علـم التاريخ عنـــد المسلمين •

المغــــازي :

ونشأ الاتجاه الآخر في الكتابة التاريخية وتطور في المدينة ، وظهر بأول صوره على شكل « مغازي » الرسول (ص) ، والتي لم تكن في الواقع تتناول غزواته فقط ، انما امتدت لتشمل حياته كلها • ولست أبغي هنا ان اتكلم على المغازي ومؤلفيها ، وطبيعتها ، وأهميتهـــا في دراسة عصـــر الرسالة(٢٧) ، لكني سأتناول الموضوع من جانب واحد ، هو علاقة الحديث بكتابة المغازي •

ولعلنا في تتبعنا الاسباب التي دفعت كتاب المغازي الى الاهتمام بها ، والاساليب التي كتبت بها ، وطبيعة ما تضمنته من اخبار ، يلقي بعض الضـوء على هذه العلاقة التي نحن بصددها ، ويقودنا الى تبيان الاتصال بصورة اكثر وضوحا ، وأوضح انجلاء ، ومن ثم أقرب الى الواقع •

١ ـ جاء القرآن الكريم وفيه الكثير من الاحكام التي تنظم الحيـاة الانسانية ، والاخروية ، لكنه جاء في بعض الاحيان شاملا وفيـــه نوع من التعميم ، كما انه اضافة الى ذلك لم يتناول كل مظاهر الحياة الصغـيرة والكبيرة ، ولذلك اعتبرت أقوال الرسول(ص) وأعماله والامور التي أقرها، وهي السنة ، الاساس الثاني في التشريع الاسلامي ، ومن ثم كان الاهتمام باقوال الرسول (الحديث) وحياته وأعماله وما جرى في زمانه من غزوات وحروب (السيرة)(٢٨) •

٢ ـ وفي الوقت نفسه ، كانت أقوال الرسول واعمـاله هي المثـــل الاعلى للدين الاسلامي في جميع نواحيه الروحية والمادية ، فكان لا بد من جمعها وروايتها ، ثم تدوينها ، للاقتداء بها ، والسير على خطاها •

٣ ـ ولا مراء في أن الرسول (ص) هو المبعوث بالحق من الله هدى ورحمة للعالمين ، وهو الذي اختاره الله من بين كل هذه البشرية ليكون المبلغ لرسالته السماوية ، والمبين لهداه وصراطه المستقيم • ثم هو اكرم الخلق وأحبهم الى الله تعالى ، لذلك فان المسلمين حينما يتحدثون عن الرسـول

وأقواله وافعاله ، كانوا يشعرون بالفخر والاعتزاز ٠

٤ ـ وكان الذي يروي حديث رسول الله (ص) واعماله وافعاله ، ويسرد سيرته الزكية ينال احتراما كبيرا ، وتبجيلا كثيرا عند مستمعيه ، وهو في الغالب ذو مكانة مرموقة عند العام والخاص ٠ ومن هنا لاحظنا ان أبناء الصحابة ساهموا مساهمة كبيرة في المغازي حتى كادت تقتصر عليهم ، وقلما دخل فيها أحد غيرهم ٠ والواقع ان اتصال هؤلاء بآبائهم ، واتساع معلومات الآباء جراء اتصالهم بالرسول (ص) ، قد سهل عليهم الكثير من العناء في معرفة حياة الرسول الكريم (ص) ٠ هذا الى جانب ان ابناء الصحابة واحفادهم قد عاشوا في بيئة كانت مملوءة بمثل هذه الاحاديث والاخبار ٠

٥ ـ ولا يخفى على القاريء ماكان لمن اشترك مع الرسول (ص) في غزواته ، واعماله ، وفعالياته ، من المنزلة الاجتماعية المرموقة عند المسلمين عامة ؛ ومن هنا كان اظهار اعمال هؤلاء الاشخاص ومساهمتهم في الدعوة الاسلامية ، وتثبيت اركان الاسلام ، وارساء قواعده ، أمورا تجعل من أسلافهم يبحثون وينقبون ، ومن ثم يروون ، عن هذه المآثر الطيبة ، رفعا لمكانتهم الاجتماعية ، وتدعيما لمراكزهم التي يتمتعون بها عند الناس ، وتمييزا لهم عن بقية المسلمين ٠ هذا الى جانب من كان يحاول اظهار مركز عائلته ودورها الكبير الذي لعبته في عصر الرسالة ، لاغراض أخرى ؛ من مركز ، أو سلطان ٠

٦ ـ ولم يكن الرسول وحده قدوة للناس ، انما اصبح الصحابة رضي الله عنهم ، هم الآخرون بدورهم قدوة يقتدى بهم ، ومثلا يحتذى ٠ ومن هنا لاحظنا دخول الكثير من اعمال الصحابة في اطار « المغازي » أو « السيرة » ، ومن ثم اعتبرت احاديثهم وفتاواهم وأعمالهم في كثير من الاحيان جزء لايتجزأ من السنة ٠

٧ ـ والى جانب التشريع ، كان التنظيم الاداري في العصر الاموي ، ومحاولة تثبيت الانظمة الراسخة للدولة الاسلامية من العوامل الاساسية التي أدت الى الاهتمام بالسنة ككل والحديث بصورة خاصة ؛ فكان الخلفاء مثلا يتوجهون بالاسئلة لمن عرف بعلمه في هذه الامور ليجيب عليها ؛ فقد طلب عبد الملك بن مروان ايضاحا لبعض الامور من عروة بن الزبير « ت بين ٩٥ ـ ١٠٥ هـ » ، كذلك فعل الوليد بن يزيد بواسطة احد رجال بلاطه ،وهو ابن ابي هنيدية(٢٩) ٠ولا يغرب عن بالنا اهتمام الخليفة عمر بن عبدالعزيز بالتنظيمات الادارية ومحاولاته في هذا المجال ، ولعل طلبه الذي وجهه الى عامله على المدينة ابن حزم هو خير ما يصور ما ذهبنا اليه ٠ وأمر خالد بن عبدالله القسري عامل العراق محمد بن شهاب الزهري ان يكتب له السيرة(٣٠) ٠ كل هذه الامور ، يضاف اليها المتعة الزائدة بالاستماع الى اخبار الرسول (ص) وأقواله ، قد أدت ، ولا شك ، الى الاهتمام العظيم

بأعماله وأقواله وفعالياته وكافة الامور المتعلقة به وبأصحابه •

وبعد أن بينا الدوافع التي أدت الى الاهتمام بحياة الرسول ، وحاولنا أن نقدم لذلك صورة ، نأمل أن تكون على شيء من الوضوح ، ننتقل الى أمر آخر لا يقل في أهميته عما تكلمنا عليه قبل قليل ، وهو المادة التي كونت « المغازي » ، والشكل الذي وضعت فيه واتخذته • وهو أمر سيحتم علينا القاء نظرة عجلى على كتاب المغازي وصلتهم بالحديث •

فأول ما ظهرت كتابة المغازي في المدينة كانت متصلة اتصالا وثيقا بدراسة الحديث(٣٢) ، ولم تكن في الواقع الا جزء من هذه الدراسة ـ أي دراسة الحديث ـ ، ويبدو ذلك أكثر جلاء ووضوحا حينما يستعرض الباحث كتابها والمشتغلين بها • وأول محاولة من هذا النوع كانت محاولة ابان بن عثمان بن عفان(٣٣) ، الذي كان محدثا قبل ان يبدي اهتماما بالمغازي • ولم تصلنا من كتابات ابان في المغازي الا اشارة اشار اليها اليعقوبي(٣٣) ، وخبر آخر يتعلق بمعاوية بن ابي سفيان(٣٤) • وقد روت كتب الصحاح كثيرا من الاحاديثعن ابان • وأشار ابن سعد الى مغازي ابان بن عثمان بن عفان في ترجمة المغيرة بن عبدالرحمن بن الحارث بن هشام فقال : قال محمد بن عمر (الواقدي) : خرج المغيرة بن عبدالرحمن الى الشام غير مرة غازيا ، وكان جيش مسلمة الذين احبسوا بارض الروم حتى اقفلهم عمر بن عبدالعزيز ، وذهبت عينه ، ثم رجع الى المدينة فمات بالمدينة ••• وقد روي عنه ، وكان ثقة قليل الحديث الا مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذها من ابان بن عثمان ،فكان كثيرا ما تقرأ عليهويامرنا بتعليمها(٣٥) وذكر ابن سعد في ترجمة ابان بن عثمان انه كان ثقة يروى الحديث(٣٦) وذكره البخاري في تاريخه وذكر انه سمع من والده عثمان بن عفان ، وروى عنه الزهري(٣٧) وذكره ابن حجر في تهذيب التهذيب وذكر أنه روى عن أبيه ، وزيد بن ثابت ، واسامة بن زيد • وروى عنه ابنه عبدالرحمن ، وعمر بن عبدالعزيز ، وابو الزناد ، والزهري ، ونبيه بن وهب وغيرهم • ونقل ابن حجر عن عمرو بن شعيب انه قال : ما رأيت اعلم بحديث ولا فقه منه • وعده يحيى القطان من فقهاء المدينة • وقال العجلي : ثقة من كبار التابعين(٣٨) • وهكذا فقد كان أبان محدثا وفقيها ، قادته هذه العلوم الى الاشتغال بالمغازي كجزء من عمله هذا في الحديث والفقه •

أما عروة بن الزبير بن العوام « ت ٩٤هـ » فيقول حاجي خليفه انه أول من ألف في المغازي(٣٩)• وقد وصلتنا بعض من مغازيه مبثوثة في الكتب التي نقلت عنه • كان عروة بن الزبير محدثا ، وقد روت له كتب الصحاح عددا كبيرا من الاحاديث ، وقلما تجد بابا من ابواب الحديث في هذه الكتب ولا تجد لعروة حديثا فيه • ومعظم هذه الاحاديث رويت عن طريق ابنه هشام(٤٠) والاسناد الذي يتكرر في كتب التاريخ والحديث هو :

هشام عن عروة عن عائشة .

وكان عروة يهتم اهتماما بالغا بالحديث ، وكان يعتز بمعرفته هذه . روى ابنه هشام عنه انه قال : يا بني سلوني فلقد تركت حتى كدت أن أنسى ، واني لاسأل عن الحديث فيفتح حديث يومي(٤١) .ووصف الزهري عروة بانه « بحر لا ينزف »(٤٢) . وقال ابنه هشام : والله ما تعلمنا منه جزء من الفي جزء من احاديثه(٤٣) وهو أمر يدل على سعة اهتمامه بالحديث الذي كان يطلق عليه « العلم » قال : تعلموا العلم تسودوا بـه قومكم ويحتاجوا اليكم(٤٤) . وكان عروة تقيا ورعا زاهدا ، روى ابنه هشام ان اباه كان يصوم الدهر كله الا يوم الفطر ويوم النحر ، ومات وهو صائم(٤٥) ، كما انه لم يلعب دورا في الحياة السياسية وظل معتزلا ويبدو ذلك من النص الذي أورده ابن سعد قال : اخبرنا اسماعيل بن عبدالله بن ابي أويس ، قال : حدثني أبي ، عن عبدالله بن حسن انه قال : كان علي بن حسين بن علي بن ابي طالب يجلس كل ليلة هو وعروة بن الزبير في مؤخر مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد العشاء الآخرة ، فكنت اجلس معهما ، فتحدثنا ليلة فذكر جور من جار من بني امية والمقام معهم ، وهم لا يستطيعون تغيير ذلك ، ثم ذكرا ما يخافان من عقوبة الله لهم ، فقال عروة لعلي : يا علي ! ان من اعتزل اهل الجور والله يعلم منه سخطه لاعمالهم فان كان منهم على ميل ثم اصابتهم عقوبة الله رجي له أن يسلم مما اصابهم ، قال : فخرج عروة فسكن العقيق(٤٦) .

والواقع ان الذي يجمع النصوص التي وردت عن عروة بن الزبير ، ويلقي عليها نظرة فاحصة يجدها في الاغلب الاعم ، احاديث مرتبة بشكل مترابط يكون وحده موضوعية متماسكة متجانسة ، ومن هنا يتضح لنا ان دراسة المغازي ما هي في الواقع الا تبويب جديد للاحاديث النبوية ، تطورت فيما بعد ودخلت فيها رواية الاحداث المتعلقة بالرسول والصحابة ومن عاصرهم . وحتى هذه الاخيرة فانها ظلت تروى وتدون بطريقة أهل الحديث ، اي استعمال الاسناد ، واقامة النقد عليه .

لقد اكتملت هذه الخاصية في دراسة المغازي بظهور شخصية عظيمة ساهمت بشكل واسع في دراستها ، هو محمد بن مسلم الزهري المتوفى سنة ١٢٤هـ ، الذي اعتمد على عروة بن الزبير كثيرا في هذا المجال ، وأخذ الزهري علمه من اعاظم المحدثين في زمانه أمثال سعيد بن المسيب ، وابان بن عثمان ، وعبيد الله بن عبدالله بن عتبة ، وعروة بن الزبير وغيرهم .

وكتب الدكتور الدوري بحثا مسهبا عن الزهري(٤٧) ، أثبت فيه اثباتا لا يقبل الشك ان الزهري « قام ببحث واسع عن روايات المدينة وأحاديثها ، وكتب ما كان يسمع ليعين ذاكرته . وقد محص تلك الروايات ووضعها في اطار متين واضح . ودراسة رواياته التي وصلتنا تجعلنا نميل الى أنه كان أول من أعطى « السيرة » ــ وهو التعبير الذي استعمله ــ هيكلا

محدودا ورسم خطوطها بوضوح . وتبدأ خطته للسيرة بذكر بعض المعلومات عن قبل الاسلام والتي تتصل بحياة النبي محمد (ص) . ثم يتناول النواحي الهامة من الفترة المكية من حياة الرسول ، ثم الهجرة الى المدينة ، ويتناول المغازي وفتح مكة ، وبعض السفارات التي ارسلها الرسول والوفود التي قدمت عليه ، ويتحدث عن فعاليات أخرى للرسول ثم مرضه وانتقاله من هذه الحياة . وراعى الزهري التسلسل التاريخي في حوادث السيرة وأعطى تواريخ الحوادث المهمة .

وقد أخذ الزهري جل مواده عن السيرة من الحديث ، ولا نجد الا أثرا بسيطا للقصص فيما كتب ، كما اننا نجد صدى ضعيفا في مادته لقصص الانبياء التي اهتم بها كما يبدو . ومع ان الزهري كان يحب الشعر مثل أبناء عصره ، بل كان ضليعا في الشعر ، الا ان استعماله له محدود في مغازيه ، فهو بعيد عن اسلوب الايام في كتابته .»(٤٨) وبهذا رد الدكتور الدوري على النظرية القائلة بان اصول المغازي ترجع الى القصص الشعبي(٤٩) وابان خطلها ، واثبتت في دراسته المستفيضة تلك الى انها ترجع الى الدراسات الاصيلة التي قام بها المحدثون وتلامذتهم .

وحينما انقضى جيل الزهري ظهر تلامذته الذين ساروا على النهج الذي وضعه علماء المدينة المحدثون في كتابة المغازي ، ومن هؤلاء موسى بن عقبة بن أبي عياش الاسدي المتوفى سنة ١٤١هـ(٥٠) . وقد وجدت قطعة من مغازيه في المكتبة الرسمية البروسية ترجمها الى الالمانية الاستاذ ادورد سخاو . والذي يلاحظ من دراسة النصوص التي وردتنا عن موسى بن عقبة تأكيده على الاسناد ، وهو أمر يعكس الى حد ما اهتمام المحدثين بالاسناد ابان هذه الفترة ، كما انه يفسر بنفس الوقت تأثير الحديث على التاريخ . والواقع ان موسى في مغازيه اعتمد كثيرا على الزهري ، ولكنه في الوقت نفسه أضاف معلومات جديدة ومهمة ، كما أنه استعان ببعض المدونات ، ومن المحتمل أنه استعان بالكتب التي تركها استاذه الزهري ، والتي روي انها كانت كثيرة جدا(٥١) .

ثم نجد بعد ذلك ظهور شخصية فذة في تاريخ المغازي ، هي شخصية محمد بن اسحاق بن يسار مولى عبدالله بن قيس بن مخرمة بن المطلب المتوفى سنة ١٥١هـ(٥٢) وهي شخصية اثارت الكثير من المناقشات قديما وحديثا دارت حول صحة المعلومات الواردة في السيرة عموما(٥٣) ، لاسيما وان الشكل الذي وضعه ابن اسحاق لم يصلنا ، انما الذي بين ايدينا هو تهذيب وضعه ابن هشام ، وقطعه من كتاب ابن اسحاق الاصلي .

ولا نعرف بالضبط ما حذفه ابن هشام عندما هذب السيرة ، على أنه في المقدمة التي كتبها لهذا التهذيب قد بين خطته في الحذف والعرض ، قال : وانا ان شاء الله مبتدىء هذا الكتاب بذكر اسماعيل بن ابراهيم ، ومن ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم من ولده ، وأولادهم لاصلابهم ،

الاول فالاول ، من اسماعيل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما يعرض من حديثهم ، وتارك ذكر غيرهم من ولد اسماعيل ، على هذه الجهة ، للاختصار ، الى حديث سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتارك بعض ما ذكره ابن اسحاق في هذا الكتاب ، مما ليس لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيه ذكر ، ولا نزل فيه من القرآن شيء ، وليس سببا لشيء من هذا الكتاب ، ولا تفسيرا له ، ولا شاهدا عليه ، لما ذكرت من الاختصار ، واشعارا ذكرها لم ار احدا من أهل العلم بالشعر يعرفها ، وأشياء بعضها يشنع الحديث به ، وبعض يسوء بعض الناس ذكره ، وبعض لم يقر لنا البكائي بروايته ، ومستقص ان شاء الله تعالى ما سوى ذلك منه بمبلغ الرواية له ، والعلم به ٠ »(٥٤)

ويرى الاستاذ يوسف هوروفتس ان ابن اسحاق قد ألف كتابه في ثلاثة أقسام هي : المبتدأ ، والمبعث ، والمغازي(٥٥) ، على أن الدكتور الدوري يرى انهما كانا كتابين مستقلين احدهما في المبتدأ والاخر في السيرة ، وتبدو الادلة التي أوردها في بحثه عن محمد بن اسحاق قوية ومقنعة الى حد بعيد خاصة بعد أن درس قطعة متبقية من سيرة ابن اسحاق الاصلية(٥٦) ، وكان الاستاذ العابد الفاسي قد ذكرها في مقالته عن « خزانة القرويين ونوادرها ، وذكر انها تشمل الاجزاء ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ كتبت سنة ٥٠٦هـ ، عليها عدة سماعات نقلت من الاصل المنتسخ منه (٥٧) ٠ وقدم لنا الدكتور الدوري مقارنة طريفة بين تهذيب ابن هشام والاجزاء الباقية من سيرة ابن اسحاق ، من ناحية الشعر والروايات الاخرى(٥٨) ، وهي امور تلفت النظر وتستحق الاهتمام بشكل اكبر ٠

ويبدو ان خروج محمد بن اسحاق عن اسلوب المحدثين من أهل المدينة ، بتناوله « المبتدأ » في دراسته والتطرق الى امور ، هي خارج حدود الحديث النبوي ، بعيدة عن نطاقه ، قد اثار عليه سخطا كبيرا عند علماء عصره من أهل الحديث خاصة ٠ وانت ان تمعنت في التهم التي وجهت لابن اسحاق تجدها تدور في هذا الاطار ، وان زيد فيها بعض الاحيان ، أو اتخذت اشكالا خفية أخرى ، ثم تناولتها ايدي المتأخرين المتأثرين بمدرسة المدينة ، وربما زادوا عليها بعض الشيء ٠ ونجد هذه الاتهامات مبثوثة في الكتب التي ترجمت له ، وحاول ابن سيد الناس » ت ٧٤٣هـ «(٥٩) في كتابه « عيون الاثر في فنون المغازي والشمائل والسير » أن يجمع هذه التهم(٦٠) ، ويرد عليها(٦١) ومع كل ذلك فقد مدحت « مغازيه » مدحا زائدا ، فقد روي عن الزهري انه قال : من اراد المغازي فعليه بمولى قيس بن مخرمة عنها(٦٢) ، وقال الشافعي : من أراد ان يتبحر في المغازي فهو عيال على محمد بن اسحاق(٦٣) ، كما أوصى بالاخذ منها(٦٤) ٠ ويبدو مما ذهبنا اليه ان أهل الحديث — أهل المدينة — حاربوه وجانبوه ، اكثر وضوحا في عبارة ياقوت الحموي حينما يقول : « وأصحاب الحديث

يضعفونه ، ويتهمونه »(٦٥) ، ومن هنا تبدو الدلالة واضحة ، فالهجوم العنيف الذي لاقاه ابن اسحاق من مالك بن انس وهشام بن عروة وغيرهما من علماء المدينة ، ثم من الكتاب الاخرين كالخطيب البغدادي ، والذهبي ، ممن عرف عنهم شدة التعصب لاهل الحديث ، كلها امور تشير صراحة الى خروجه عن اطار هذه المدرسة التي سيطرت على كتابة « المغازي » حتى ذلك العصر ، ولم يدخل بين ظهرانيهم أي واحد ينافسهم ، أو يغير في منهجهم، واسلوبهم ، وما تعودوا عليه ، فمجيء ابن اسحاق وتقديمه لونا جديدا من المغازي لم يألفه أهل المدينة ، ولا يقوم كله على الحديث،أثار سخطا واسعا عليه ؛ فتوجهوا اليه بالتهم الكثيرة ، كان منها الحق ، وكان الكثير منها باطلا ، وهو أمر يستعمله الخصم دائما للتقليل من شأن خصمه وتأليب الناس ، او العامة ، عليه . والا فالتهم التي وجهت لابن اسحاق كالرواية عن المجاهيل ، وأهل الكتاب .. الخ كان الواجب أن توجه أيضا الى محمد بن جرير الطبري الذي ضمن الكثير من هذا تفسيره وتاريخه ، وقل مثل هذا عن ابن الاثير وابن كثير الدمشقي ، وكلهم كتبوا في المبتدأ ، وكلهم رووا عن أشخاص ضعفهم أهل الحديث .

لقد كانت صدمة قوية لاهل المدينة ذلك الذي قام به ابن اسحاق ، لكنه قدم مادة ظلت تتناقلها امهات الكتب ، ولم تجد في أغلب الاحيان خيرا منها لتقدمها وتعتمد عليها ، فكانوا يشتمونه وينقلون عنه في الوقت نفسه .

وظهر هذا الكره الشديد الذي اضمره اهل المدينة لابن اسحاق في الكتاب الذي وضعه الواقدي « ت ٢٠٧ »(٦٦) والذي كان بلسما لجراح أهل المدينة من محمد بن اسحاق ، فحاول الواقدي ، جهد طاقته ، الرجوع في كتابه « المغازي » الى اسلوب أهل المدينة نفسه ، وهو اسلوب المحدثين ، فكتب مغازيه على هذه الصورة ، ولهذه الغاية ، ولم يجعلها في اطارها تخرج عن الفترة المدنية ، كما انه استعمل الاسناد بشكل اكثر دقة ، كما انه أورد اشعارا قليلة جدا بالمقارنة مع ما أورده ابن اسحاق ، وكان متخوفا دقيقا عند ايراده للشعر ، وكأنه يشعر بالهجوم العنيف الذي لقيه ابن اسحاق ، فكان يخلص نفسه ويوثق شعره بعبارات يوروها لهذا الغرض نحو قوله : « ما رأيت من اصحابنا احدا يدفعه » أو « سمعت أصحابنا يثبتونها »(٦٧) . ولم ينقل الواقدي عن محمد بن اسحاق ، وقدم لنا بذلك مثلا جليا لمقاطعة مدرسة المدينة لابن اسحاق وعدم الاخذ منه .

لقد استقرت كتابة المغازي عند ابن اسحاق ، ومن جاء بعده كان عيالا عليه ، لم يزد سوى الترتيب والتبويب ، وفي بعض الاحيان التعليق على بعض الحوادث ، سواء اعتبروا أنفسهم معلقين أم مهذبين كما فعل ابن هشام مهذب سيرة ابن اسحاق « ت ٢١٨هـ » ، أو عبدالرحمن بن عبدالله بن أحمد بن أصبغ بن الحسين الامام السهيلي الاندلسي صاحب كتاب « الروض الانف » والمتوفى سنة ٥٨١هـ ، وقطب الدين عبدالكريم الجماعيلي

المتوفى سنة ٧٥٣هـ ، ام اعتبروا أنفسهم « مؤلفين » وان لم يعرف لهم في كتبهم سوى التبويب والترتيب وبعض التعاليق ، فوضعوا كتبا في السيرة النبوية كما فعل ابن فارس اللغوي المتوفى سنة ٣٩٥ ومحمد بن علي بن يوسف الشافعي الشامي المتوفى سنة ٦٠٠هـ وغيرهم كثير ٠

ونحن حينما نقدم هذا العرض البسيط الوجيز لم تكن غايتنا الا القاء نظرة سريعة على أصول المغازي وعلاقتها من حيث النشأة والتطور بالحديث النبوي الشريف ٠ وانك ان امعنت النظر بالنصوص السالفة قد تستطيع ان تلاحظ ، ان كتاب المغازي كانوا محدثين قبل أن يكونوا مؤرخين ، وان اهتمامهم بالحديث ودراسته وروايته هو الذي دفعهم الى الاهتمام بالمغازي كجزء من الحديث وروايته ، وحتى حينما اطلق لفظ « السيرة » لتكن أوسع شمولا ظل الحديث الركن الركين والدعامة الاساسية في تكوين المسادة التاريخية للسيرة النبوية الزكية ، وهكذا كانت متصلة بالحديث ، بل هي جزء منه ، نشأت بنشوئه وتطورت على هذا الاساس ، ولعل خير دليل يثبت ما ذهبنا اليه الهجوم العنيف الذي لقيه ابن اسحاق حينما حاول تعدي اطار هذه المدرسة والخروج على تقاليدها ٠

المحدثون المؤرخون :

لم يكتف هؤلاء الكتاب ومن جاء بعدهم بتأليف الكتب في المغازي ، أو حياة الرسول (ص) عموما ، انما تعدوا ذلك ، وتوسع أفقهم وامتد ، فوضعوا كتبا تناولت تاريخ الخلفاء الراشدين ، وفتوحهم ، واعمالهم ، والاحداث المهمة التي كانت في عصرهم ، والخلفاء الذين جاءوا بعدهم ، فابن اسحاق مثلا كان قد وضع كتابا في « تاريخ الخلفاء »(٦٨) ، وتناولت دراسات الزهري من قبله تاريخ الخلفاء الراشدين أيضا ، وكتب الواقدي في موضوعات شتى من التاريخ ، فوضع في الفتوح ، مثل كتاب « فتوح الشام » وكتاب « فتوح العراق » ، كما وضع كتابا في أخبار مكة ، وألف في تاريخ الراشدين مثل كتاب « سيرة ابي بكر ووفاته » ، وكتاب « مداعي قريش والانصار في القطائع ووضع عمر الدواوين وتصنيف القبائل ومراتبها وانسابها » ، وكتبا في الاحداث الاسلامية المهمة مثل كتاب«السقيفة وبيعة ابي بكر » ، وكتاب « الردة » وكتاب « الجمل » وكتاب « صفين » وكتاب « مقتل الحسين » ٠ وفي الوقت نفسه الف كتبا عامة في التاريخ الاسلامي مثل كتاب « التاريخ الكبير » ، كما تذكر له كتب في التراجم مثل « تاريخ الفقهاء » وكتاب « الطبقات » ، هذا الى جانب كتبه في الحديث مثل كتاب « غلط الحديث » ، وكتاب « السنة والجماعة وذم الهوى وترك الخوارج في الفتن » ، وتناولت كتبه التي وضعها في الفقه امورا شتى متنوعة(٦٩) ٠

ومن هنا نرى ان الواقدي كان ذا أفق واسع لم تقتصر دراسته على الامور المتعلقة بالحديث أو الفقه أو الدين عموما ، انما استطرد وتوسع فشملت كتبه وتآليفه موضوعات كثيرة تناولت احوال الدولة الاسلامية ، من المحتمل انها امتدت الى عصره .

ونحن ، في الواقع، اذا ما دققنا النظر ببعض الرواة والمؤرخين نستطيع أن نتلمس بسهولة ويسر اهتمامهم بالجانبين ، الحديث والتاريخ . ولا يخفى ان دراسة الحديث هي من مقومات الثقافة العامة في العصور الاسلامية ، فكان لابد ، على الاغلب الاعم ، ان يتجه الطالب أول ما يتجه وهو لما يزل في عهد الصبا والشباب نحو دراسة القرآن والحديث وعلومهما، ثم يطلب التاريخ بعد ذلك ، ليعينه في ضبط الحديث ، فاذا ما تعمق فيه ، وأصبح متمكنا منه ، مسيطرا عليه ، قادرا على فهم غوامضه ، ووجد هوى في نفسه ، اتجه تفكيره عندئذ تجاه هذه الناحية فينصرف اليها أو يكاد ، ويبلغ من أمره ان يقل تبعا لذلك اهتمامه بالحديث وروايته ودراسته ، فيصبح حينئذ الاصل فرعا والفرع اصلا . وهذه ، لا ريب ، هي الحال بالنسبة لعدد ليس بالقليل من الذين كتبوا في التاريخ الاسلامي ، سواء أكانوا قد كتبوا ليستعينوا على الحديث ، أم رغبة دفعتهم ، وانما أخذ بمجامع قلوبهم لسماع الاخبار وروايتها ، أم فخرا بمعرفتها وارضاء لمن يحب هذا النوع من العلم ويهواه ، وهاك بعض النماذج التي تثبت هذا الرأي وتوضحه :

فاسماعيل بن عياش بن سليم العنسي الحمصي المتوفى سنة ١٨١هـ كان ممن اشتهر برواية الحديث ، فروى عن أئمة هذا العلم ، كالاوزاعي ، وابن جريج ، ويحيى بن سعيد الانصاري ، وموسى بن عقبة ، وسفيان الثوري ، والاعمش وغيرهم . وكان من أعاظم حفاظ الحديث . قال أحمد بن حنبل لداود بن عمرو الضبي : هل كان اسماعيل يحدثكم .. من حفظه ، فقال له : نعم ما رأيت معه كتابا قط ، فقال له : قد كان حافظا ، كم كان يحفظ ؟ قال شيئا كثيرا ، فقال له : كان يحفظ عشرة آلاف ، فقال : عشرة آلاف وعشرة آلاف وعشرة آلاف ، فقال أحمد : كان هذا مثل وكيع . وقال أحمد بن حنبل أيضا : ليس أحد اروى لحديث الشاميين من اسماعيل ابن عياش(٧٠) . وروى له الطبري في تاريخه(٧١) .

وكان الوليد بن مسلم الاموي الدمشقي المتوفى سنة ١٩٥هـ(٧٢) ، عالم الشام في عصره ، روى عن اعلام المحدثين مثل حريز بن عثمان ، وصفوان ابن عمرو ، والاوزاعي ، وابن جريج ، وابن عجلان ، وابن أبي ذئب ، وسعيد بن عبدالعزيز ، والثوري ، وعبدالله بن العلاء بن زبر ، وزهير ابن محمد التميمي ، وخالد بن يزيد بن صبيح ، وشيبان النحوي ، وخلق كثير . وروى عنه أعلام أئمة الحديث ، كأحمد بن حنبل ، واسحاق بن راهوية ، وعلي بن المديني ، وابو خيثمة ، واسحاق بن منصور الانصاري ،

وصدقة بن الفضل المروزي[٧٣] واضرابهم . ووضع كتبا كثيرة بلغت سبعون كتابا . ووضع الى جانب ذلك كتابا في المغازي قال عنه ابو زرعة الرازي : كان الوليد أعلم من وكيع بامر المغازي[٧٤] . وروى له الطبري في تاريخه[٧٥] .

ومن مشاهير الرواة والمحدثين محمد بن بشار بن عثمان بن كيسان العبدي البصري،أبو بكر المعروف ببندار[٧٦] المتوفي ببغداد سنة ٢٥٢هـ[٧٧] كان من المشاهير القلائل في رواية الحديث .

روي انه ولد سنة ١٦٧هـ[٧٨] . ونشأ في البصرة ، ولم يخرج من البصرة في طلب الحديث اكثر عمره ، فلم نجد له ذكرا في البلدان الاخرى غير بغداد[٧٩] وربما بعض المناطق القريبة الاخرى . وكانت والدته لا تستطيع فراقه ولهذا لم يسافر برا بها وحبا لها . سمع ابن بشار من محمد بن جعفر غندرا ، ومحمد بن أبي عدي ، وعبدالوهاب الثقفي ، ووكيع بن الجراح ، وعباد بن موسى ، وعبدالرحمن بن مهدي ، ويحيى ابن سعيد القطان ، وخالد بن الحارث ، وروح بن عبادة . وروى عنه ابراهيم ابن اسحق الحربي ، وأبو بكر بن أبي الدنيا ، وعبدالله بن أحمد بن حنبل ، وعبدالله بن محمد بن ياسين ، وقاسم بن زكريا المطرز ، وعبد الله بن محمد البغوي ، ومحمد بن اسماعيل البصلاني ، وابو بكر بن ابي داود ، ويحيى ابن محمد بن صاعد ، وغيرهم . وأخذ عنه الحديث وهو لما يزل شابا لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره[٨٠] ، وذكر ابو داود انه كتب عن بندار نحوا من خمسين ألف حديث[٨١] ، وذكر ابن حجر ان البخاري روى له خمسة ومائتين حديثا، وروى عنه مسلم ستين واربعمائة حديثا[٨٢]، ويبدو أنه كتب الكثير من احاديثه ، ويبدو ذلك من اعتذار الخطيب عنه حينما قال : بندار وان كان يقرأ من كل كتاب ، كان يحفظ حديثه[٨٣] .

روى الطبري أحاديث وأخبارا عن محمد بن بشار في « المبتدأ » فروى عنه في بدء خلق العالم[٨٤] ، وخلق الليل والنهار[٨٥] والقمر[٨٦] ، وكيفية خلق آدم[٨٧] وخبرا عن اخراج آدم من الجنة ونزوله الى الارض[٨٨] ، وقابيل وهابيل والنزاع بينهما[٨٩] ، وحواء وولدها عبدالحارث[٩٠] والنبي داود[٩١] ، وأسباب بعث الانبياء[٩٢] ، وسام وحام ويافث[٩٣] ، ونبي الله ابراهيم وزواجه من هاجر ومولد اسماعيل وحفر بئر زمزم[٩٤] ، وأول ظهور الحج الى الكعبة زمن ابراهيم[٩٥] ، وقصة فداء اسماعيل[٩٦] ، وشيئا عن موسى[٩٧] ، وقارون[٩٨] ، وأصحاب الكهف[٩٩] وملوك الطوائف[١٠٠] والمدة بين آدم ونوح عليهما السلام[١٠١] .

ونقل الطبري عنه اخبارا تتعلق بالفترة الاسلامية ، كزواج عائشة من رسول الله صلى الله عليه وسلم[١٠٢] وعدد المسلمين في بدر[١٠٣] ، وعن موقعة احد[١٠٤]،وفرض الصلاة[١٠٥] ويوم الخندق وسلمان الفارسي[١٠٦] وفتح حصن خيبر[١٠٧] ، وخبرا عن بناء البصرة وسببه[١٠٨] ، كما أورد له

الطبري أشياء كثيرة عن عمر بن الخطاب ؛ من ذلك خطبة له(١٠٩) ،وكيف كان رضي الله عنه يعس بنفسه ، ويرتاد منازل المسلمين ، ويتفقد احوالهم بيديه(١١٠) ، ومحاولته أخذ فضول أموال الاغنياء وتقسيمها على الفقراء(١١١) وحرصه وتشديده في معاملة عماله(١١٢) ، وتناولت رواية الطبري عنه امورا أخـرى(١١٣) .

وروى الطبري كل هذه الاخبار عن محمد بن بشـــار مباشرة ، وفي الوقت نفسه روى عنه اخبارا أخـرى في التفسير(١١٤) وتناولت ذلك الكتب التاريخية الاخرى(١١٥) .

ويبدو لي من الاخبار التي رواها الطبري وغيره عن محمد بن بشـــار انه كان صاحب تأليف ، أو أنه على الاقل قد دون بعض مروياته ، ويبدو ذلك من السبك والتسلسل الواضح في رواياته والتسلسل الزمني الذي أخذ عنه الطبري • ومما يلاحظ أيضا أنه تناول فترات مختلفة من التاريخ الاسلامي وقدم بذلك دليلا على ترابط الحديث والتاريخ • واني مورد لك فيما يأتي نصا رواه الطبري عن محمد بن بشار حول غزوة الخندق ، قد نستطيع منه أن نبين اسلوب محمد بن بشار وطريقته وعرضه للمـــادة : فحدثنا عن محمد بن بشار ، قال : حدثنا محمد بن خالد بن عثمة ، قال : حدثنا كثير بن عبدالله بن عمرو بن عوف المزني ، قال : حدثني ابـــي ، عن أبيه ، قال :

خط رسول الله صلى الله عليه وسلم الخندق عام الاحزاب من أجـم الشيخين(١١٦) طرف بني حارثة ، حتى بلغ المذاد(١١٧) ثم قطعه أربعين ذراعا بين كل عشرة ، فاحتق المهاجرون والانصار في سلمان الفارسي ـ وكان رجلا قويا ـ فقالت الانصار : سلمان منـــا ، وقـــالت المهاجرون : ســـلمان منا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سلمان منـــا أهل البيت • قال عمرو بن عوف : فكنت انا وسلمان ، وحذيفة بن اليمان ، والنعمان ابن مقرن المزني ، وستة من الانصار في أربعـين ذراعا ، فحفرنا تحت ذو باب حتى بلغنا الندى ، فاخرج الله عز وجل من بطن الخندق صـــخرة بيضاء مروة فكسرت حديدنا ، وشقت علينا • فقلنا : يا سلمان ، ارق الى رسول الله عليه وسلم فأخبره خبر هذه الصخرة ، اما ان نعدل عنها فان المعدل قريب ، واما أن يأمرنا فيها بأمره ، فانا لا نحب أن نجاوز خطه •

فرقي سلمان حتى اتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ضارب عليه قبة تركية ، فقال : يا رسول الله ، بأبينا انت وأمنا ! خرجت صخرة بيضاء من الخندق مروة ، فكسرت حديدنا ، وشقت علينا حتى ما نحيـك فيها قليلا ولا كثيرا ، فمرنا فيها بأمرك ، فانا لا نحب ان نجاوز خطـك • فهبط رسول الله صلى الله عليه وسلم مع سلمان في الخنـدق ، ورقينـا نحن التسعة على شقة الخندق ، فأخذ رسول الله صلى الله عليــه وســـلم

المعول من سلمان ، فضرب الصخرة ضربة صدعها ، وبرقت منها برقة أضاء ما بين لابتيها (١١٨) — يعني لابتي المدينة — حتى لكان مصباحا في جوف بيت مظلم . فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم تكبير فتح ، وكبر المسلمون . ثم ضربها رسول الله صلى الله عليه وسلم الثانية ، فصدعها وبرق منها برقة أضاء منها ما بين لابتيها ، حتى لكان مصباحا في جوف بيت مظلم ، فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم تكبير فتح وكبر المسلمون . ثم ضربها رسول الله صلى الله عليه وسلم الثالثة فكسرها، وبرق منها برقة اضاء ما بين لابتيها ، حتى لكان مصباحا فيجوف بيتمظلم، فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم تكبير فتح وكبر المسلمون ، ثم أخذ بيد سلمان فرقى ، فقال سلمان : بابي انت وامي يا رسول الله ! لقد رأيت شيئا ما رأيته قط ! فالتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم الى القوم ، فقال : هل رأيتم ما يقول سلمان ؟ قالوا : نعم يا رسول الله ، بأبينا انت وأمنا قد رأيناك تضرب فيخرج برق كالموج ، فرأيناك تكبر فنكبر ولا نرى شيئا غير ذلك . قال : صدقتم ، فضربت ضربتي الاولى ، فبرق الذي رأيتم ، أضاءت ليمنها قصور الحيرة ومدائنكسرى، كأنها انياب الكلاب ، فاخبرني جبريل أن امتي ظاهرة عليها ، ثم ضربت ضربتي الثانية، فبرق الذي رأيتم ، اضاءت لي منها قصور الحمر من أرض الروم ، كأنها أنياب الكلاب ، فاخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها ، ثم ضربت الثالثة، فبرق منها الذي رأيتم ، اضاءت لي منها قصور صنعاء كأنها انياب الكلاب ، فاخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها ، فأبشروا يبلغهم النصر ، وابشروا يبلغهم النصر ، وابشروا يبلغهم النصر ! فاستبشر المسلمون ، وقالوا : الحمد لله موعد صادق بار ، وعدنا النصر بعد الحصر . فطلعت الاحزاب ، فقال المؤمنون : « هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم الا ايمانا وتسليما»(١١٩) وقال المنافقون : ألا تعجبون ! يحدثكم ويمنيكم ويعدكم الباطل ! يخبركم انه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى ، وانها تفتح لكم ، وانتم تحفرون الخندق ولا تستطيعون أن تبرزوا ! وانزل القرآن : « واذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله الا غرورا »(١٢٠) (١٢١)

ونحن حينما نستعرض معظم المؤرخين نجدهم ممن عنوا بالحديث وبرزوا فيه ، وكان الاساس الذي دفعهم الى الاهتمام بالتاريخ ، ويكفي ان نتذكر الخطيب البغدادي « ت ٤٦٣ هـ » وأبا سعد السمعاني « ت ٥٦٢ هـ » ، وعبدالرحمن بن الجوزي « ت ٥٩٧ هـ » وابن الدبيثي الواسطي « ت ٦٣٧ هـ » ومحب الدين ابن النجار « ت ٦٤٣ هـ » وزكي الدين عبدالعظيم المنذري الشافعي « ت ٦٥٦ هـ » وابن الساعي البغدادي مؤرخ العراق العظيم « ت ٦٧٤ » وابن كثير الدمشقي « ت ٧٧٤ هـ » ومؤرخ

العراق ابن الفوطي البغدادي « ت ٧٢٣ هـ » وشمس الدين الذهبي « ت ٧٤٨هـ » وابن حجر العسقلاني « ت ٨٥٢ هـ » وجلال الـدين السيوطي « ت ٩١١ هـ » ... الخ .

---

(١) انظر مثلا : جواد علي : تاريخ العرب قبل الاسلام ج٧ ص ٣٦ فمابعد ، الدوري : بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب ص ١٢–١٨ . ونجد فيه فكرة واضحة عن الموضوع ، روزنثال : علم التاريخ عند المسلمين ص ٢٩–٣٨ ، حسين نصار : نشأة التدوين التاريخي عند العرب .

(٢) تناول الاستاذ سيدرسكي ، عضو الجمعية الاسيوية ، موضوع القصص الوارد في القرآن والاحاديث النبوية بالبحث في أحد كتبه ، وحاول ان يرجع اصولها ، وقدم بذلك دراسة مقارنة ، فتكلم عن آدم ، وابراهيم ، ويوسف ، وموسى وداود وسليمان وغيرهم ، انظر :

D. Sidersky: Les Origines des L'egendes Musulmanes Dans le coran et dans les vies des Prophetes. Paris 1933.

(*) البخاري : التاريخ ج١ قسم ١ ص ٢١٦–٢١٧ ؛ ابن القيسراني : الجمع ج٢ ص ٤٤٨–٤٤٩ ؛ الذهبي : اهل المائة فصاعدا : الورقة ٤ (نسخة دار الكتب الظاهرية) ابن حجر : تهذيب التهذيب ج٩ ص ٤٢٠–٤٢٢ .

(٣) انظر : ابن سعد : الطبقات ج٥ ص ٣٩٥ ، ابن حجر : تهذيب التهذيب ج ١٥ ص ١٠٦ .

(٤) ابن سعد : الطبقات ج ٦ ص ١٧٩ ، الذهبي : تذكرة الحفاظ ج ١ ص ٦٥ ، ابن العماد : شذرات الذهب ج ١ ص ١٠٨ .

(٥) ابن حجر : تهذيب التهذيب ج ٢ ص ١٢٤ .

(٦) ابن كثير : البداية والنهاية ج ١ ص ٦ .

(٧) استغرق ذلك الجزئين الاول والثاني وقسم من الجزء الثالث من تاريخه ، ومع ذلك فهو مختصر لكثير من الاخبار .

(٨) ابن كثير : البداية والنهاية ج ١ ص ٦ .

(٩) أثارت مشكلة اخذ قول الصحابي وفعله في التشريع مناقشات طويلة في كتب الفقه وأصوله ، فذهب البعض الى القول بحجيته ومن هؤلاء ابن القيم في كتابه اعلام الموقعين ج ٣ ص ٣٧٧ – ٤٠٥ ، وأورد أقوالا لابي حنيفة والشافعي تؤيد رأيه ، قال الشافعي : « ما كان الكتاب والسنة موجودين فلا عذر في العدول عنهما ، فان لم يكونا ، صرنا الى أقاويل الصحابة أو واحد منهم ، وقول الائمة ابي بكر وعمر وعثمان احب الينا اذا صرنا الى التقليد ، لان قول الامام مشهور يلزم الناس به . » وانظر أيضا الآمدي : الاحكام ج ٣ ص ١٠٣ . وعلي حسب الله : أصول التشريع الاسلامي . ط ٣ القاهرة ١٩٦٤ ص ٦١ – ٦٣ .

(١٠) أنظر كتاب الدكتور صالح العلي : التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الاول الهجري بغداد ١٩٥٣ . وكذلك مقالته عن « استيطان العرب في خراسان » المنشورة في مجلة كلية الآداب والعلوم ، العدد الثاني .

(١١) انظر ابن النديم : الفهرست ص ١٣٩ ، ١٥٩ ، ١٦٦ « المناظرات بين القبائل وأشراف العشائر » لابي الحسن النسابة ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٨٤ « مفاخرة القبائل في النسب » لابي الوزير عمر بن المطرف .

(١٢) الفهرست ص ١٣٦ .

(١٣) نفس المصدر ص ١٥٠ .

(١٤) نفس المصدر ص ١٣٧ .

(١٥) انظر مثلا الفهرست ص ١١٦ ، ١٥٢ ، ١٦١ ، ١٧٩ ، ١٨٥ ، ١٩٦ ، ٢١٠ . وانظر الرسالة التي تقدم بها الصديق الاستاذ عبدالله السلوم عن الشعوبية لنيل درجة الماجستير في التاريخ الاسلامي من جامعة بغداد ١٩٦٥ . ومظاهر الشعوبية في الادب العربي لنبيه حجاب . والفصل الذي كتبه الدكتور طه الحاجري في كتابه عن الجاحظ .

(١٦) اعتمدت على النسخة المصورة في المكتبة المركزية في بجامعة بغداد . ومنه نسخة مصورة عند الاستاذ حسام السامرائي صورها من استانبول .

(١٧) منه نسخة ممتازة في مكتبة الاوقاف ببغداد .

(١٨) السمناني : روضة القضاة وطريق النجاة مخطوطة دار كتب مدينة مونيخ . رقــم Cod. arab 260 .

(١٩) روضة القضاة . الورقة ١٧ ب فما بعد .

(٢٠) ابن الاثير : الكامل ج ١ ص ٤ ـ ٥ .

(٢١) المصدر السابق ج ١ ص ٥ .

(*) لمعلومات اوسع راجع مقالتي : مظاهر تأثير علم الحديث في علم التاريخ عنــد المسلمين . المنشورة في مجلة الاقلام البغدادية . العدد الخامس من السنة الاولى .

(٢٢) ابن النديم : الفهرست ص ١٣٤ .

(٢٣) ابن النديم : الفهرست ص ١٣٦ ، الطوسي : الفهرست ص ١٢٩ ـ ١٣٠ ، ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ج ٢ ص ١٤٠ ـ ١٤١ ، الذهبي : ميزان الاعتدال ج ٢ ص ٣٦٠ ، ابن حجر : لسان الميزان ج ٤ ص ٤٩٢ ـ ٤٩٣ .

(٢٤) انظر دائرة المعارف الاسلامية مادة « سيف بن عمر » .

(٢٥) ابن النديم : الفهرست ص ١٣٧ ، الطوسي : الفهرست ص ١٧١ ـ ١٧٢ ، النجاشي : كتاب الرجال ص ٣٠١ ـ ٣٠٢ .

(٢٦) انظر مقالة خالد العسلي عن المدائني المنشورة في مجلة كلية الآداب العدد الخامس .

(٢٧) للتوسع في دراسة المغازي أنظر كتاب يوسف هورفتس : المغازي الاولى ومؤلفوها . ترجمة الدكتور حسين نصار ، القاهرة ١٩٤٩ ، الدوري : بحث في نشأة علم التأريخ عند العرب (بيروت ١٩٦٠) خاصة ص ٦١ فما بعد . كما كتب الدكتور الدوري بحثا عن ابن اسحاق قدمه لمجمع اللغة العربية المنعقد ببغداد في تشرين الثاني ١٩٦٥ ، حسين نصار : نشأة التدوين التاريخي عند العرب . ومادة « سيرة » في دائرة المعارف الاسلامية . وهناك بحوث كثيرة أخرى .

(٢٨) لمعلومات أوسع أنظر :

C. Snouck Hurgronie: Selected works of C. Snouck Hurgronie ed. by G.H. Bousqnet and J. Schacht, Leiden 1959 pp. 48 ff.

(٢٩) وصلتنا بعض هذه الرسائل مدونة في سيرة ابن اسحاق ، ومغازي الواقدي ، وتاريخ الطبري . انظر تفاصيل ذلك في بحث الدكتور نصار : نشأة التدوين التاريخي ص ٣١ فما بعد ، والدوري : بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب ص ٦٢ فما بعد ، ص ١٣٧ ـ ١٥١.

(٣٠) الاصفهاني : الاغاني ج ١٩ ص ٦٩ (ساسي) .

(٣١) الدوري : بحث في نشأة علم التاريخ ص ٣٠ .

(٣٢) ابن سعد : الطبقات ج ٥ ص ١١٢ ـ ١١٣ ، ابن حجر : تهذيب التهذيب ج ١ ص ٩٧ .

(٣٣) اليعقوبي : التاريخ ج ١ ص ٣ .

(٣٤) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ص ١٠٦ ، حسين نصار : نشأة التدوين التاريخي ص ٢٩ ـ ٣١ .

(٣٥) ابن سعد : الطبقات ج ج ٥ ص ١٥٦ .

(٣٦) نفس المصدر ج ٥ ص ١١٣ ٠

(٣٧) البخاري : التاريخ الكبير ج ١ ص ٤٥٠ ـ ٤٥١ ٠

(٣٨) ابن حجر : تهذيب التهذيب ج ١ ص ٩٧ ٠

(٣٩) حاجي خليفة : كشف الظنون ج ٢ ص ١٧٤٧ ٠

(٤٠) كان هشام بن عروة بن الزبير من أئمة الحديث ٠ حدث عن أبيه ، وعمه عبدالله ابن الزبير ، وأكثر أسرة آل الزبير ، وجماعة كثيرة أخرى ٠ ثم زار الكوفة ، وحدث هناك بالكثير عن أبيه ، ودخل بغداد وافدا على المنصور حيث توفي بها سنة ١٤٦ هـ ٠

ويبدو من الروايات الكثيرة التي أوردها الطبري ، وهي في ٣٤ موضعا (انظر : فهرس تأريخ الطبري ص ٦١٢) ، والاحاديث التي أوردها له أصحاب الصحاح ، وهي قرابة الاربعمائة حديث ، انه قلما كان يروي عن غير والده ، ولذلك يبدو انه كان ينقل من كتب أبيه عروة ، وعلى هذا فمن المحتمل انه وضع كتبا على نسق كتب والده ، اعتمد فيها على كتب أبيه وأضاف من عنده معلومات جديدة ٠

انظر : نسب قريش ص ٢٤٨ ، الخطيب : تاريخ بغداد ج ١٤ ص ٣٧ ، اليافعي : مرآة الجنان ج ١ ص ٣٠٢ ، ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ٢ ص ١٩٤ ، الذهبي : ميزان الاعتدال ج٣ص ٢٥٥ ، جواد علي موارد تأريخ الطبري في مجلة المجمع العلمي العراقي ج ١ مجلد ٣ ص ٤٧ ـ ٤٨ ٠

(٤١) ابن سعد : الطبقات ج ٥ ص ١٣٣ ٠

(٤٢) ابن سعد : الطبقات ج ٥ ص ١٣٤ ، البخاري : التأريخ الكبير ج ٤ ص ٣١ ، الذهبي : تذكرة الحفاظ ، ج ١ ص ٥٨ ٠

(٤٣) البخاري : التأريخ الكبير ج ٤ ص ٣٢ ٠

(٤٤) نفس المصدر والجزء والصفحة ٠

(٤٥) ابن سعد : الطبقات ج ٥ ص ١٣٤ ٠

(٤٦) نفس المصدر ج ٥ ص ١٣٥ ٠ وكتب مسلم بن الحجاج بن مسلم النيسابوري المتوفى سنة ٢٦١ هـ رسالة في رجال عروة بن الزبير ٠ منه نسخة خطية بالمكتبة الظاهرية بدمشق ٠ الرقم : مجموع ٥٥ من الورقة ١٣٩ الى ١٤٧ ٠

(٤٧) الدوري : بحث في نشأة علم التأريخ ص ٧٨ ـ ١٠٢ ٠

(٤٨) نفس المصدر ص ٢٣ ٠

(٤٩) دائرة المعارف الاسلامية مادة « سيرة » ٠

(٥٠) ابن أبي حاتم الرازي:الجرح والتعديل ج٤ قسم١ ص١٥٥ ، الذهبي : تذكرةالحفاظ ج ١ ص ١٤٠ ، ابن حجر : تهذيب التهذيب ج ١٠ ص ٣٦٠ ، حسين نصار : نشأة التدوين التأريخي ص ٥٣ ـ ٥٦ ٠

(٥١) ابو نعيم : حلية الاولياء ج ٣ ص ٣٦١ (القاهرة ١٩٣٣) ٠

(٥٢) ابن سعد : الطبقات م ٧ قسم ٢ ص ٦٧ ، البخاري : التأريخ ج ١ قسم ١ ص ٤٠ ، ابن النديم : الفهرست ص ٩٤ ، الخطيب : تاريخ بغداد ج ١ ص ٢٢٣ ـ ٢٢٤ ، ياقوت : ارشاد ج ٦ ص ٣٩٩ ـ ٤٠١ ، ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ١ ص ٤٨٣ ، الذهبي : تذكرة الحفاظ ج ١ ص ١٦٣ ، ابن حجر : تهذيب التهذيب ج ٩ ص ٣٨ ٠

(٥٣) من القدماء المصادر التي ذكرناها ، اضافة الى قضية الشعر الموضوع التي تناولها ابن سلام الجمحي في طبقات الشعراء ، كما أورد ياقوت أقوال طائفة من النقاد عن شعره ، وتجد ذلك معروضا في مقال الدكتور وليد عرفات « الناقدون الاولون لشعر السيرة » الذي ترجمته ونشرته في مجلة الاقلام البغدادية العدد الثالث السنة الاولى ٠ ومن المحدثين تناول ابن اسحاق عدد هائل من الباحثين نذكر منهم كايتاني ، وميور ، ولامنس ، وبيكر ، ونولدكة وليفي دي لافيدا ، وادورد سخاو ، وجب ، وبلاشير ، وفستنفلد ، وبروكلمان ، ومرغليوث

وفيك ، وهي أوسع دراسة باللغة الالمانية ، وهوروفتس ، ومونتغمري وات وغيرهم ومن العرب : احمد أمين في ضحى الاسلام ، وحسين نصار في نشأة التدوين التاريخي ، وجواد علي في مواد تاريخ الطبري ، والدوري في نشأة علم التاريخ عند العرب ، وأخيرا مقاله الذي قدمه لمجمع اللغة العربية المنعقد ببغداد ١٩٦٥ بعنوان : « دراسة في سيرة النبي ومؤلفها ابن اسحاق » .

(٥٤) ابن هشام : السيرة ج ١ ص ٤ .

(٥٥) هوروفتس : المغازي الاولى ومؤلفوها . ترجمة الدكتور حسين نصار ص ٨٢ .

(٥٦) الدوري : دراسة في سيرة النبي (ص) ومؤلفها ابن اسحاق . بغداد ١٩٦٥ ص ١١ ــ ١٤ .

(٥٧) مجلة معهد المخطوطات العربية . المجلد الخامس ج ١ ص ١٤ ــ ١٥ . وكنت قد اشرت الى هذا الخبر في تعليقي على مقال الدكتور وليد عرفات « الناقدون الاولون لشعر السيرة » الذي ترجمته ونشرته في مجلة الاقلام العدد الثالث من السنة الاولى (ص ١٣٩ هامش رقم ١١) وبينت أهمية هذه الاجزاء لو قورنت مع النسخة الحالية من ابن هشام .

(٥٨) الدوري : دراسة في سيرة النبي ص ٢١ ــ ٢٤ .

(٥٩) الحسيني : ذيل تذكرة الحفاظ ص ١٦ ، السيوطي : ذيل طبقات الحفاظ ص ٣٥٠ ، ابن العماد : شذرات الذهب ج ٦ ص ١٠٨ .

(٦٠) عيون الاثر ص ١٠ ــ ١٣ (القاهرة ١٣٥٦ هـ) .

(٦١) نفس المصدر ص ١٣ ــ ٢١ .

(٦٢) البخاري : التاريخ الكبير ج ١ قسم ١ ص ٤٠ .

(٦٣) الخطيب : تاريخ بغداد ج ١ ص ٢٢٦ ، ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ١ ص ٦٨٧ ، الذهبي : تذكرة الحفاظ ج ١ ص ١٦٢ .

(٦٤) عيون الاثر ص ٨ ــ ٩ .

(٦٥) ياقوت : ارشاد ج ٦ ص ٤٠١ .

(٦٦) أنظر : ابن قتيبة : المعارف ص ١٧٦ ، ابن النديم : الفهرست ص ١٤٤ ــ ١٤٥ ، الخطيب : تاريخ بغداد ج ٣ ص ٣ ــ ٢١ ، السمعاني : الانساب ص ٥٧٧ ب ، ياقوت : ارشاد ج ٥ ص ٥٥ ، ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ١ ص ٥٠٦ ، ابن سيد الناس : عيون الاثر ج ١ ص ١٧ ، الذهبي : تذكرة الحفاظ ج ١ ص ٣١٧ ، ميزان الاعتدال ج ٣ ص ١١٠ ، ابن حجر : تهذيب التهذيب ج ٩ ص ٣٦٣ ــ ٣٦٨ ، السيوطي : طبقات الحفاظ ج ١ ص ٧٤ ، ابن العماد : شذرات الذهب ج ٢ ص ١٨ .

(٦٧) أنظر : الناقدون الاولون لشعر السيرة . ترجمتي ص ١٣١ .

(٦٨) ياقوت : ارشاد ج ٦ ص ٤٠١ . وقد وجدت قطعة صغيرة من تاريخه هذا مكتوبة على البردي انظر :

N. Abbott: Studies in Arabic Literary Papyri Vol. I pp. 80-100 (Chicago 1955).

(٦٩) أنظر عن كتبه مثلا : ابن النديم : الفهرست ص ١٤٤ ــ ١٤٥ ، ابن قتيبة : المعارف ص ١٧٦ ، الخطيب : تاريخ بغداد ج ٧ ص ٣ ــ ٢١ ، ياقوت : ارشاد ج ٥ ص ٥٥ الخ . وانظر أعلاه في مظان ترجمته .

(٧٠) ابن عساكر : تهذيب تاريخ دمشق ج ٢ ص ٣٩ ــ ٤٠ ، الذهبي : تذكرة الحفاظ ج ١ ص ٢٣٣ .

(٧١) راجع فهرست تاريخ الطبري ص ٣٨ .

(٧٢) الذهبي : تذكرة الحفاظ ج ١ ص ٢٧٨ ، وميزان الاعتدال ج ٣ ص ٢٧٥ ــ ٢٧٦ ، ابن حجر : تهذيب التهذيب ج ١١ ص ١٥١ ــ ١٥٥ ، الجزري : غاية النهاية في طبقات القراء

ج ٢ ص ٣٦٠ ، طبقات المدلسين ص ٢٠ ، البغدادي : هدية العارفين ج ٢ ص ٥٠٠ .

(٧٣) ابن حجر : تهذيب التهذيب ج ١١ ص ١٥١ ــ ١٥٢ .

(٧٤) ابن حجر : تهذيب التهذيب ج ١١ ص ١٥٢ ، الذهبي : ميزان الاعتدال ج ٣ ص ٢٧٥ .

(٧٥) فهرس تاريخ الطبري ص ٦٢٩ .

(٧٦) لقب « بندار » لجمعة حديث مالك . وبندار ، مفرد « بنادرة » وهم التجار الذين يخزنون البضائع للغلاء ، وقال السمعاني : البندار : بضم الباء الموحدة وسكون النون وفتح الدال المهملة وفي آخره الراء . هذه النسبة الى من يكون مكثرا من شيء (الانساب ، الورقة ٩٢ أ) .

(٧٧) ابن ابي حاتم : الجرح والتعديل ج ٣ قسم ٢ ص ٢١٤ ، الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج٢ ص ١٠١ـ١٠٥ ، ابن القيسراني : الجمع ج٢ ص ٤٣٥ ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٦٧ ، ج ٢ ص ١٢٩ ، ج ٣ ص ١٠ الذهبي : ميزان الاعتدال ج ٣ ص ٣٠ ، ابن حجر : تهذيب التهذيب ج ٩ ص ٧٠ .

(٧٨) الخطيب : تاريخ بغداد ج ٢ ص ١٠٢ .

(٧٩) نفس المصدر ج ٢ ص ١٠١ .

(٨٠) نفس المصدر ج ٢ ص ١٠٢ .

(٨١) نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٨٢) ابن حجر : تهذيب التهذيب ج ٩ ص ٧٤ .

(٨٣) الخطيب : تاريخ بغداد ج ٢ ص ١٠٤ .

(٨٤) الطبري : تاريخ ج ١ ص ١١ ، ٣٤ ، ٥١ (ط . ابو الفضل ابراهيم) .

(٨٥) نفس المصدر ج ١ ص ٦١ ــ ٦٢ .

(٨٦) نفس المصدر ج ١ ص ٧٦ .

(٨٧) نفس المصدر ج ١ ص ٩١ ــ ٩٢ .

(٨٨) نفس المصدر ج ١ ص ١٢٧ .

(٨٩) نفس المصدر ج ١ ص ١٤١ ــ ١٤٢ .

(٩٠) نفس المصدر ج ١ ص ١٤٨ .

(٩١) نفس المصدر ج ١ ص ١٥٧ .

(٩٢) نفس المصدر ج ١ ص ١٧٨ .

(٩٣) نفس المصدر ج ١ ص ١٩٢ .

(٩٤) نفس المصدر ج ١ ص ١٩٢ .

(٩٥) نفس المصدر ج ١ ص ٢٦١ ــ ٢٣٨ .

(٩٦) نفس المصدر ج ١ ص ٢٦٧ ، ٢٧٧ .

(٩٧) نفس المصدر ج ١ ص ٣٦٦ ، ٤٣١ .

(٩٨) نفس المصدر ج ١ ص ٤٤٣ .

(٩٩) نفس المصدر ج ٢ ص ٥ .

(١٠٠) نفس المصدر ج ٢ ص ٣١ .

(١٠١) نفس المصدر ج ٢ ص ٢٣٥ .

(١٠٣) نفس المصدر ج ٢ ص ٤٣٢ .

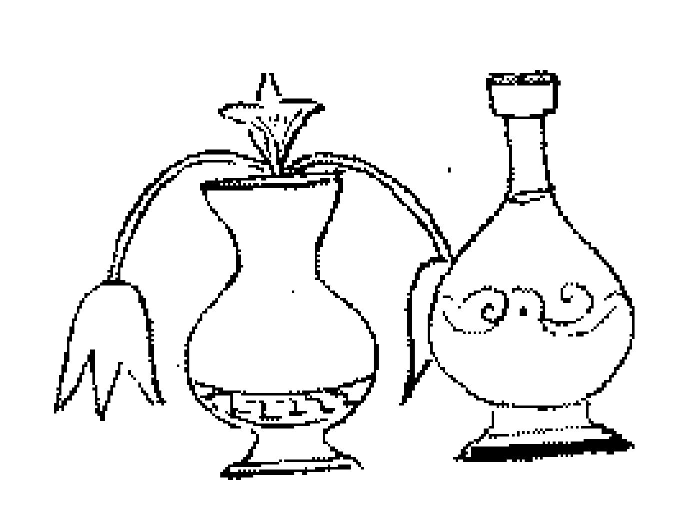
(١٠٢) نفس المصدر ج ٢ ص ٣٩٩ .

(١٠٤) نفس المصدر ج ٢ ص ٥١٥ .

(١٠٥) نفس المصدر ج ٢ ص ٥٥٧ .

(١٠٦) نفس المصدر ج ٢ ص ٥٦٧ ــ ٥٧٠ .

(١٠٧) نفس المصدر ج ٣ ص ١١ – ١٢ ٠
(١٠٨) نفس المصدر ج ٣ ص ٥٩١ – ٥٩٢ ٠
(١٠٩) نفس المصدر ج ٤ ص ٢٠٣ – ٢٠٤ ٠
(١١٠) نفس المصدر ج ٤ ص ٢٠٥ ٠
(١١١) نفس المصدر ج ٤ ص ٢٦٦ ٠
(١١٢) نفس المصدر ج ٤ ص ٢٦٦ ٠
(١١٣) انظر الطبري : التاريخ الحلقة ٣ ص ٢٣٧٣ ، ٢٣٧٥ ، ٢٣٧٦ ، ٢٣٨٥ ، ٢٣٩٣ ، ٢٣٩٦ ، ٢٤١٥ ، ٢٤٢٦ ، ٢٤٦٥ ، ٢٤٦٦ ٢٤٧٢ (ط ٠ الاوربية) ٠
(١١٤) الطبري : جامع البيان في تفسير القرآن ج ٣ ص ٦٨ ، ج ٤ ص ٢٧٥ ، ج ٩ ص ٢٩ ، ١٣٢ ، ج ١٠ ص ٢٠٢ ، ٢١٤ ، ج ١٣ ص ١٩٠ ، ٢٤٠ ، ج ١٥ ص ٣٨ ، ١٥٠ ، ج ١٧ ص ١٠٦ (بولاق) ، ج ٢١ ص ٨٥ – ٨٦ (بولاق) ٠
(١٠٥) أنظر مثلا : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٣٣٦ ٠
(١١٦) الاجم : الاطم وهو الحصن ، والشيخان : موضع بالمدينة ، كان فيه معسكر الرسول (ص) ليلة خرج لقتال المشركين باحد ٠
(١١٧) المذاد : موضع بالمدينة مكان الخندق ٠
(١١٨) اللابة : الحرة ، والمدينة تقع بين حرتين اي لابتين ٠
(١١٩) الاحزاب ٢٢ ٠
(١٢٠) الاحزاب ١٢ ٠
(١٢١) الطبري : تاريخ ج ٢ ص ٥٦٧ – ٥٧٠ وأنظر : الطبري تفسير ج ٢١ ص ٨٥ – ٨٦ (بولاق) ٠



بحوث أدبية

هل الدعوة جادة

الشعر في عهديه : الموزون وغير الموزون

سعيد زايد

ارتفعت في العشر سنوات الاخيرة ، دعوة في الشعر ، تهد من كيانه، وتعمل على تقويض دعائمه ، وان كانت قد ظهرت خافتة في الثلاثينيات من هذا القرن .

والواقع ، أنه من الصعب ان نحدد مفهوم هذه الدعوة ، او نحيط بكنهها ، فهي غالبا ، تقوم على انتصار مذهب على مذهب ، او الوقوف على ساق وقدم مع الشعر القديم الذى يحرص على القافية ، ويزاول نشاطه، وتجتمع أغراضه فيه ويرعى جانبه الشعراء منذ ان كان الشعر بمضمونه وقوالبه والروى الذى يلازمه ، والقافية التي تجمل انصبابه وانسيابه ، وتعطى له من « الرتوش »ما يتيه به على جل الشعر في مختلف الامم .

وليس شك في ان الدارس لمدارس الشعراء الحديثين ، يرى عجبا ، وتحز في نفسه هذه الاتجاهات التى سلكها اكثر هؤلاء الشعراء في وصولهم الى المبتغى ، وزعمهم في تقويض عمود الشعر ..!

فالمدرسة التي تقول بالعامية في الشعر ، وتنكر الفصحى ، انما تعمل على هدم القومية ، وتطمس معالم شعب عربي أصيل ، توافر على بناء لغته قرونا عدة ، وأجيالا متطاولة .. وان كان هؤلاء الشعراء يسمون انفسهم بشعراء الشعب ، والناطقين بلغته ، والمعبرين عن خلجاته ..

ومن العجيب انه انحشر في هذه الزمرة ، الزجالون الذين يهمهم أن يستفيدوا من وراء هذه الحركة القاضية ..!!

يزعم الزجالون ، وسط هذه الدعوة ، ان شاعر اليونان « سيفيريس » قد حاز جائزة نوبل ، مما يؤكد ، أن الشعر العامي في العالم ، يظفر بالنصر المؤزر والاعتراف به من اكاديميات العالم ، فضلا عن ان هذا الشعر يستطيع نقل الاحاسيس الصادقة ، وتوصيلها في يسر وسهولة وجمال !

لم يدر الزجالون ، أو الذين يتكلمون لغة الشعب ، أن « سيفيريس » نفسه ، قد ترجم ليسيفريس شعرا الى اللغة الفصيحة ، ولم يترجمه الى اللغة التي نظم بها ، وهي العامية ، أو لغة الشعب !!

والشواهد كثيرة على نقض هذه النظرية ، او تقويض هذا المـــذهب الذي جرى وراءه العاجزون عن اللحاق بركب العربية الاشم ..

فدون ما ريب ، في ان ليس لكل شـعب من الشعوب العربيـــة التي تمتد من الخليج الى المحيط ، لغة عامية واحدة ، ولا لهجة متحدة ، وانما هناك لغتان في كل شعب من هذه الشعوب : احداهما العربية الفصيحة ، والاخرى العامية الشعبية التي تتقهقر دائما ، أمام العربية في كل الميـادين، وتنكمش في بعض بلاد العرب ، لدرجة كبيرة ، فضلا عن عدم الاعتراف بها في جل أطوار الحياة المعاشية والرسمية ، والتخاطب بهـــا في كثـير من الاحيـــان ..

لذلك يبين بطلان هذه اللغة ، وعدم صلاحيتها ، اذا نظرنا اليها على أنها لهجة محلية جيلية يتعامل بها بعض الناس في جيل واحد من الاجيال ، وفي بقعة واحدة من بقاع الوطن العربي المترامي الاطراف ..

على أننا نستطيع أن نقول : ان سيادة العامية ، او تغليب لغة الشعب، معناه : أن يحصر الانتاج الادبي في دائرتين ضيقتين ، هما : دائرة العصر الذي يعيش فيه الشاعر ، ودائرة القطر الذى يتجاوب معه الاديب ، ويمشي بين مدنه وقراه ..

والواقع ، ان الذى شجع الزجالين على أن يبرزوا في هذا الميدان ، هم الشعراء الذين لا يطيقون الشكل الشعرى القديم ، وهو تقسيم البيت الى شطرين ، وان كانوا هم ، على خلاف بينهم واعوجاج في مذهبهم ، يكتبـــون شعرهم على نمط « الخليل بن احمد » وكما نظمه الشعراء في كل العصور وان كانوا يكتبونه سطورا ، ويرفضون أن يكتبوه شطورا ، ضاربين بالشكل القديم عرض الحائط أو كأنهم بمخالفتهم لهذا الشكل مبتدعون أو ناصبون او معطلون ..

صنعت اديبة عراقية مشهورة هذا الصنيع ، واحتـــذاها أكثريـــة الشعراء والشاعرات في مذهبها وصنيعها ، ومخالفتها للواقع الشـــــعرى والشكل القديم ·

ولقد ترجمت هذه الشاعرة قصيدة « لتوماس جراى » وهي مرثيته في ساحة مقبرة ريفية ولم تزد في قصيدتها ومخالفتها على ان وضعت الاشطار كلها مرتبة تحت بعضها ، ولو لم تأخذ المخالفة بخناقها ، لوضعت القصيدة اشطرا على النمط القديم : صدرا وعجزا ، وفي هذا ما فيه من الاستقامـة والنسج السليم على المنوال الصحيح ·

يقول توماس جراى : وتترجم الاديبة العراقية المشهورة :

وسع الكون كله قلبه الخفاق

بالود والحنان الدفوق

ولقد كافأته آلهة الشعر

على قلبه النبيل الرقيق
منح البائسين اكثر ما يملكه
عبرة انفعال عميق
فحبته السماء أنبل ما تمنحه للاحياء
قلب صديق

* * *

آه يا عابر السبيل
دع الشاعر في مرقد الردى مطمئنا
لا تحاول كشف الستار عن الخير
ودع مقلة المساوىء وسنى
فوراء التراب قلب
له في رحمة الله مأمل ليس يفنى
ما مل الخافق الذى ضمه الله الى عدله
فاغمض عينا

وما ضر الشاعرة لو قالت بهذا الترتيب :

وسع الكون كله قلبه الخفا ق بالود والحنان الدفوق
ولقد كافأته آلهة الشعـ ـر على قلبه النبيل الرقيق
منح البائسين أثمن ما يمـ ـلكه : عبرة انفعال عميق
فحبته السماء أنبل ما تمـ ـنحه للاحياء : قلب صديق

* * *

آه يا عابر السبيل دع الشا عر في مرقد الردى مطمئنا
لا تحاول كشف الستار عن الخيـ ـر ودع مقلة المساوىء وسنى
فوراء التراب قلب له في رحمة الله مأمل ليس يفنى
مأمل الخافق الذى ضمه الله الى عدله فاغمض عينا

والامثلة على هذه المخالفة واضحة لا تحتاج الى بيان .. فما ورد في كثير من دواوين هؤلاء ، يغني في هذا التعسف ، ويقوم شاهدا على هذا التفرد المعيب ..

يقول صاحب ديوان : « طفولة نهد » في قصيدة له بهذا الديوان ، بعنوان : « على الدرب » :

زر مرة
ما أصبحك
وابسط على
أجنحك
هيأت قلبي

فالتصق
تعرف أنت
مطرحك

ومن قصيدة أخرى بعنوان : « الضفائر السود » :

يا شعرها
على يدي
شلال ضوء أسود
ألمه
سنابلا
سنابلا لم تحصد
لا تربطيه
واجعلي
على المساء مقعدي
من عمرنا
على مخدات الشذا
لم يرقد

ولو كتب هذا الشعر هكذا ما رمينا صاحبه بهذا التعسف :

زر مرة ما أصبحك ... وابسط على اجنحك
هيأت قلبي فالتصق ... تعرف انت مطرحك

* * *

يا شعرها على يدي ... شلال ضوء أسود
ألمه سنابلا ... سنابلا لم تحصد
لا تربطيه واجعلي ... على المساء مقعدي
من عمرنا على مخـ ... ـدات الشذى لم نرقد

على أنه لم تفت المغالاة بعض أصحاب هذا الجديد ، فركبوا الشطط ودعوا الى ترك القواعد شكلا وموضوعا بحجة ان الشعر وليد أحداث الحياة، وليس للحياة قاعدة معينة ، تسير عليها في ترتيب احداثها ، ولا نماذج ثابتة للالوان التي تتلون بها احاسيسها .

ولقد ذهب ببعضهم هذا الغلو الى درجة اهمال قواعد اللغة ومقاييسها اذا حزب الامر ، ووقع الشاعر بين حتمية هذا الاهمال ، ووحي هذه الفلسفة المعابة !!

يقول بعضهم :

« قد يخرق الشاعر باحساسه المرهف ، وسمعه اللغوي الدقيق ، قاعدة من قواعد اللغة ، مدفوعا بحسه الفني ، فلا يسيء الى اللغة ، بل

يشدها الى الامام » .

لم يدر دعاة هذا الخرق ، واهدار قواعد اللغة ، واهمال الاصـــول والبنايات التي رست عليها اللغة ، اننا ننتهي الى اللا قاعدية التي يصعب معها فهم أسرار بلاغة اللغة ، او الكتابة بها لشيء يمكن فهمه او يكون لاجيال تخلفنا في حفاظ هذا التراث الذي يجب ان يكون ذا نظام دقيق ، وقاعدة صحيحة ، لايخرج عنها قيد شعرة :

والذى يتتبع ثورة المجددين في قوالب الشعر ونظمه ، يهوله الثـورة التي جنحت بهم الى القافية وتعدتها الى نعتها بالراية الحمراء التي تعترض نفس الشاعر ، وتخرس لسانه ، وتقضي على اندفاعاته التي يضرب فيهـــا حين يتحلل من هذا الالتزام ، ويخرج من ذلك السجن الذي فرضته عليه لزوم الاولين لما لايلزم !!

أما آية الدفاع : فالقافية ما كانت يوما بحابسة لنفس الشاعر ، ولا ممسكة باندفاعاته ، ولا معطلة له عن السير في طريقه ، ولا مقيدة لـه في الاغلال ، ولا هي بالراية الحمراء كما يقولون .. وليس كظلمهم ظلم ، ولا كجنايتهم جناية ..!! فنظام الشعر العربي واحتواؤه على الالف الليـنـــة التي تجعل الشاعر لاتنفد ذخيرته من الكلمات مهما طالت قصيدته ، يغنى في هذا المقام عن أى دفاع .. فمقصورة ابن دريد ، ومقصورة ابي صفوان الاسدى ، هما خير شاهد على طول باع الشعر وشموله على شتى اغراض القول على مر العصور ، فضلا عن تكرار الكلمة الواحدة أكثر من مرة بعد سبعة أبيات وهو تكرار مباح لم يعبه ناقد ، ولم يغض من قيمة شاعر ، ولم يضعه موضع العيب ، أو النقد المباح !!

وليس ابلغ في الدفاع من مثالين بارزين ، عاصرهما المجددون ، وقرأوها قراءة مستأنية : هما شكرى أحد شعراء مدرسة الديوان وعبدالعزيز فهمي القاضى الاديب ..

نظم شكرى الشعر الحديث ولكن على قاعدة ، ثم عدل عنه الى عمود الشعر ورجع الى موسيقى القافية ونظم عبدالعزيز فهمي قصيدة من سبعمائة بيت على قافية واحدة ، وهو رجل لم يشتهر بالشعر ، ولم يكتب له أن يعد من بين الشعراء ..!!

ونظم عادل الغضبان قصيدته التي بلغت أبياتها المائتين ، على روى واحد ، وهي من وحي الاسكندرية ، لم تكرر فيها كلمة واحدة مرتين ، وهذا دليل قدرة ، وآية على البراعة وامتلاك ناصية اللغة ..

ولا يغرب عن ذهننا في هذا المقام ، ما صنعه ابن الرومي في مرثيتـه المشهورة لاحد العلويين على روى الجيم ، وتبلغ عدتها تسعين بيتا ، ليس بينها بيت واحد ذا قافية قلقة ، أو روى ناب في موضعه ، غير ما صنعه : المتنبي والبحتري وأبو تمام والاخطل وجرير والفرزدق وغيرهم من فحول الشعراء ..

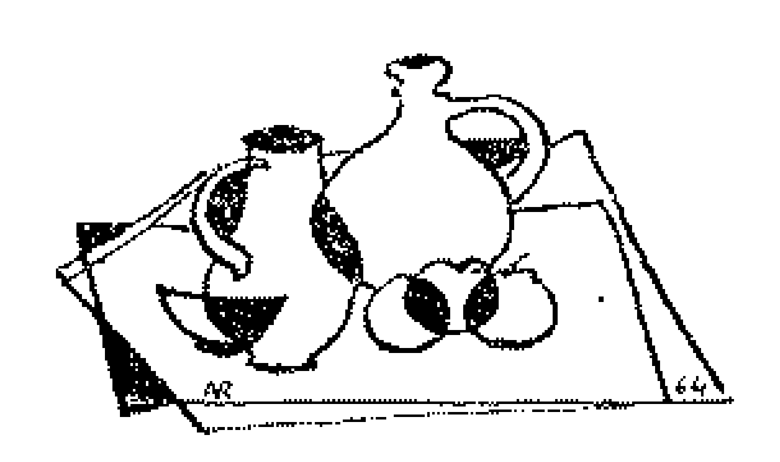
ولست أجانب الصواب اذا قلت : ان الشعر في مذهب المجـــددين، مجرد لهو ، وازجاء فراغ ، والا ما وقف منه المجددون هذا الموقف ، وما حاربوه هذه الحرب الضروس !!

يقول شاعر مجدد :

« يجب الا نطلب من الشعر أكثر من هذا ، ويتجنى على الشـــعر الذين يريدون منه أن يغل غلة ، وينتج ريعا ، فهو زينة وتحفة باذخـــة فحسب ، كآنية الورد التي تستريح على منضدتي ، لست أرجو منها اكثر من محبة الاناقة ، وصداقة العطر » .

هذه هي رسالة الشعر ومضمونه في عرف المجددين ومذهبهـم الذى جيشوا له الجيوش في كل بلد ، وأقاموا له الحلبات في كل ناد ، للسخرية من عمود الشعر القديم، والنيل من رويه وقوافيه ، وما يحمل من أغراض وما يتيه به على شعر الامم عامة ، وشعر اليوم خاصة ..

وحسبي أن آتي بأمثلة جديدة لشعراء جدد بعد تبيان وجهة نظرهم ومذهبهم الذى لا يقوم على منطق أو عقل في مقال تال ، ان شاء الله ..



الرمز في الفن التشكيلي العراقي

شوكة الربيعي

تترتب على كل عمل فني « تشكيلي » على وجه الخصوص عوامل تركيبية تميز الطرق التبصرية التي استطاع الفنان النفاذ من خلالها ٠

وتلك العوامل التركيبية تعتمد في تحقيقها على مدى الابعاد التي تتركها في نفس المشاهد ، وعلى مدى صلاحيتها في التأثير على سلوك الآخرين ، وعلى مجهود الفنان نفسه بما تؤتيه رؤيته الفنية وما تنفذه بصيرته في الحقائق المحسوسة واللامنظورة ٠

والرمز ، من بين تلك العوامل التركيبية ، يعتمد على أساس من التجربة السابقة للمعترك الذي يخوضه الفنان معتمدا على اعتقاد يشفع بخبرة «قبلية» لا تخضع الا لنتائج كانت اسبابها مطروحة ومتداولة ومتفاعلة في داخل الفنان ، لها حدودها التي تربطه اليها بعنف ، لا يستطيع أن يتصدى لها بالنسيان ، ولا يستطيع ابرازها بوضوح أو تحقيقها تحقيقا نابعا من ذاتها باصرار مشروع ، لو قدر للزمن يفهمها أن يظهرها على صورتها الاصلية بمطامحها التي لا يثقلها بطلان ، لكانت هي الجديرة بالتخليد وفي نفس الوقت المعبر عن صلاحية الطبيعة الفنية الخاضعة لقانون نقائي عادل ٠ وعند ذلك تضمن لنفسها التجديد « كالخلايا الحية » ومن ثم الاستمرار ٠

والصدق من بين العوامل التركيبية : طالما كانت هناك دوافع منبعثة من دقائق لابد لها من تنفس يعينها على عكس أية نزعة شعورية تكتنف الفرد « الفنان » ٠

واذا كان الصدق متأتيا من حتمية معينة ، فيعني أنه صدر عن عقل لا يتنازل في أية حال عن موقفه ٠٠ وان كانت الاسباب كليلة والنتائج الوليدة عنها أكثر تلائما مع معنى « النية المغالطة » ٠ وفي ظرف معين يترتب بعده الحاح يدعو الى المواربة ٠٠ فعند ذلك تفقد ميزة الصدق صفاءها ويتطرف الفرد نحو قتل الاعتقاد بالملكات البشرية التي لا تخضع الا لامتحان نقدي موجه من العقل ٠٠ وعند ذلك أيضا ، نحاول التمسك بالرمز ما دام المتنفس التركيبي لمضمون العمل الفني قد تهيأ بشكل تفرضه الصيغة التي يسير عليها الفنان نفسه ٠

والشكل من العوامل التركيبية في النتاج الفني ، ويعني ذلك أن الفنان اعتمد على طوعية الشكل النهائية وتجاوبها مع مضمونه ومشاعره بطبيعة الحال

ورمزه ، لكي تبرز المعجزة الفنية » [وهي ليست سهلة التحقيق ولا طيعة الا لمقتدر عبقري يفرض عبقريته في الفن على المشاهد فرضا لا يستطيع الانفكاك من قوته وغزارة وعمق تجربته] » .

والمعجزة الفنية غير عادية في بنائها وامتداد تأثيرها ، وقد لا يفهمها مشاهد عادي من أول نظرة .

والا لما استعان الفنان الآشوري على اختيار الرمز القاسي كطبيعة الفرد في المجتمع الآشوري ، الحاد كانفعالات الرجل العادي ، القلق كبيئة الفنان في ذلك الزمن .

فعندما تستسلم الأسود ، فهي لم تعد بعد خدعها الصورة التي كانت رهيبة في قوتها وتأثيرها قبل الطعن .. الملك الآشوري اقتنع بعد أن عرضت أمام عقله ردود وأفعال خارجية ، بأنه يستطيع الغلبة على قوة الأسد الواحد المخدوع بالارهاق والضنى . أو نقول بالزيف ، ليكن بعد ذلك الضعف ما نسميه بالموت . ومع ذلك فقد كانت جرأة الملك الآشوري ، حازمة لا ترضى الا كبرياء بشري ، نهايته مأساة رصينة القالب يحددها رمز بديع في اخراج بطولي ، وهي كما يقول : الكسندر اليوت (Alexander Eliot) « حقيقة نارية رهيبة في عذابها ومأسوية في موتها » وأعمال الفنان العراقي المعاصر « التشكيلي » امتداد لتجربة لا أقول تابعة من « ديكارتية في المفهوم » عن البداهة والتحليل والتركيب والاحصاء أو الاستقراء العقلي ، ولكن أجدها رمزا لبواعث تدفع الى التعبير عن الارادة الخيرة في مكان وزمان يحددان من حريته في اصدار حكم الحقيقة التي تصورها برؤية أصيلة ، أعمال الفنان التشكيلي في العراق . ولهذا يجد الفنان الواحد من الصعوبة المنحدرة ، الى زم الشفاه ، أن يكون قد خلق في زمن سبق عمله أبعاده .

ومادام ذلك الفنان قد دخل معترك الرمز في عمله الفني فمعنى هذا أنه حدد فضاءه الارادي وأنه اقتنع ورضي بما يناسب تكوين مجتمعه لقيادته بصورة سليمة — لا أبت في صحة تحقيق الذوق السليم خلال فترة لم تتضح فيها معالم الرؤية التبصرية الواحدة — مادام يمتلك عقلا يحدد موقفه من الامور ويحدد بالتالي الشكل الذي يعطيه بصدق لأعماله الفنية ، ويحدد الرمز الدال على كل شيء . ولن تتحقق تلك الصورة لكي تستكشف الانفعال الحقيقي وتستثيره الا من التوازن بين الاسباب والنتائج للافعال الخارجة عن الفنان والمحيطة به ، وبين الافعال الداخلة ذاتيا ، لكي تعطي أبعادا تؤمن في النهاية بطبيعة العمل الفني كحكم ارتضاه الفنان بمحض ارادته النازعة الى أسمى الدرجات .

ولن يتوقف التحقيق في اظهار الرمز على المدى البعيد لظواهر وقتية تخدم حاجة ضرورية تموت نتائجها بموت أسبابها ، وانما يتوقف طالما امتدت الرموز تحمل أفكارا خيرة تجدها في زمانك وأنت بحاجة اليها وتتصورها في غير زمانك والحاجة ما زالت ملحة اليها ، كأن تقول في زمن المتنبي :

يؤذي القليـل من اللئـام بطبعه   من لا يقل كما يقـل ويلـؤم

وتستطيع أن تتفرد أمام حاجة ملحة تدفعك الى استشهاد كهذا في زمننا الحاضر وقد يكون فيما بعد لآماد عديدة .

أو كأني أجدك وأنت في لحظة غارقة تشير الى معيار اليقين في رمزية المعاني التي يصورها أبو العلاء في هذا البيت :

تعب كلهـا الحياة فمـا أعـ   جب الا من راغب في ازديـاد

والرمز يخدم الفنان بوسيلته وغايته المتلاحمتين ، فكان أن استطاع التعبير عن الصدق ، وأن استطاع تطابق الشكل والمضمون وتسخيرهما لخدمة أسمى من وقع الحاضر المرتبط « قبليا » بالمستقبل ... وان اسـتطاع التمسك بما أصدرته مشاعر الفنان السامية المتناهية في القصد الخير . الواثقة من الحقيقة الكامنة في الحرية .. واقصد في أبعادها .

رمز الفنان الفني ، مظهر يعتقده وباصرار جدير بالتحقيق فهو مقولة يتصورها امامه واضحة ، مركبة متفاعلة مستمرة ، جديرة بأن تعبر عن زمنه وفكره ، عن طاقته كفرد أو كعنصر متداخل في تكوين مجتمع كامل يمثل فيه جزءا يؤثر عليه .. ولهذا يريد الاخذ بمواده — من وجهة نظره — ويتفحصها ثم يعيد بنائها بشكل جديد يقتنع به . هذا ما تريده الرؤية الفنية .. ما يريده الرمز الذي عني به الفنان وعندما أتناول هذا الموضوع فانني أتصور بتقدير ، أعمال الفنان العراقي جواد سليم في كل ما رسمه ونحته ، فهي في الواقع عصر كامل لمأساة زرعت فيها رموز الفن الذي يحتاج الى بصـيرة واعية ، ويحتاج مقابل ذلك الى من يستجيب بانفعال صادق للتجربة .

وأتصور [مايكل انجلو ، (Michel-Ange) ١٤٧٥—١٥٦٤] في عبقريته ورؤياه الفنية النابعة بصدق من امتداد بشري متطـور نام . و « گويا » (Goya) ، ١٧٤٦—١٨٢٨ في تحقيقه لرمز المحبة من خلال الكراهية ولرمـز الحرية من خلال الموتى في الشارع .

أو أتصور « محمود المختار ١٨٩١ — ١٩٣٤ » وأحمد صبري . أو سلفادور دالي أو فائق حسن ورودان وسيزان وبراك وبيكاسو . عندما أتذكر دفي ١٨٧٧—١٩٥٣ ، (Dufy) أو مونشـسي ١٨٦٣ — ١٩٤٤ — (Munch) فانني أقف مذهولا أمام الرمز الفني الذي يعتصر الفكرة من مدارها المغلق !

هناك مضمون وشكل وهناك تفاعل تداخلي فلسفي ، استجابة لمعان لا يشكلها الفنان بسهولة ولا يحل الغازها مشاهد بلا عمق . ان الفنان يشعر بحاجة ماسة الى تصويرها بالشكل الذي تقبله ذاته وانه فوق كل هذا منطلق لصب المسلك المنطبع في أعماقه بصورة صادقة ، ولهذا يخرج عمله نافذا الى داخل المشاهد في أي زمان ومكان مصرحا بما يحمله من روائع لا يفهم منهـا شيئا .. وقد يفهم منها الوقع الخارجي في الاحتمـال الاخـير ، كالموسيقى تماما . فأنت تشعر بتوافق عناصر المقطوعة التكويني الرائع فتهتز طربا ،

ولكنك في الحقيقة ما توصلت الى فك رموزها التي تكونت عن تزاحمها المقطوعة
ولكنك في الحقيقة ماتوصلت الىفكرموزها التي تكونت عن تراحمها المقطوعة ..
وهي على أية حال قد أطربتك .

المعجزة التي تحمل رمز حيويتها وعظمتها تنفرد بميزات غاية في الدقة ، قد لا يفهمها ــ كما كررت ــ المشاهد العادي وقد لا يفهم ما تحمله الروائع من رموز هي في قيمتها الاصل في أسباب معجزتها ! ذلك لانه لم يتوصـــل الى الافهام التام لمستواه العقلي . ولكن العفوية في طبيعة تكوينه السايكولوجي تغلب على ميوله .. ويأتي العجب من اندفاع غريزي لا يفهم قيمته الاصلية . ولكن الالتقاء من خلال تلك الرؤى المتعددة (أيضا) ، يلملم نهايته من بؤرة الكشف عن الرمز الذي تحمله المعجزة الفنية التي لن يتوصل اليها أحد بسهولة قبل أن يفهم أجزاءها فهما تدريجيا متداخلا مع أحكام تجريبية عقلية أو استدراكية أو افتراضية .

وهذا ما تبدو خطوطه واضحة في الرؤية الفنية وخاصة عند الوقوف على رموز الفن التشكيلي في العراق .



بين أطلال الحضر

عبود احمد الخزرجي

أنا ورفاقي وشوق اشتياقي
حضرنا الحضر
ودسنا جبين الخطر
مخرنا عباب الصحارى
كفرسان (دارا)
لنحضى بنات الدلال
عروس الجزيرة مرقى الخيال
وبعد غبار وبعد نصب
بلغنا الارب
فجسنا خلال الرحاب
وطفنا بتلك القباب
فلم نلق غير الخراب
وجدنا مواطىء خيل الزمن
وطعن رماح السنين
وقد عصفت بالقطين
لمسنا تماثيل جوف
لالف اله حقير حجر
ينام قميئا بقاع الحفر
وقد جدع الدهر انفه
وهدم رفه
فخر صريعا كباقي الحجر
تدوس عليه نعال البشر
هناك انطفا من قرون سناء حضارة
وبات خليل الرمال عبير غضارة
عبير حسان وحور
تعطر جو القصور
تنير الليالي بكأس ذهب

تطوف وتسقي بها من رغب
فبالخد كأس وبالكف كأس
وبالثغر أشهى رحيق العنب
تحط بحضن الامير
كحق العبير
يشم ويرشف ما طاب له
ففي ذا خبير
وخلف حصون المدينة
تكد قلوب حزينة
لالف اسير يجر حديد
ويمسح عنه الصديد
يقد الحجر
ليبني الحضر
فكانت مدينة
تمج العساكر عبر البطاح
تهز عروش الملوك
فيالق ماجت رماح
وشاء الاله وشاء القدر
فزرت الاثر
فأين الامير وأين الحسان
وأين الكؤوس وأين الدنان
بلت وانتهت ونامت عليها الرمال
ونحات وجه الاله هوى من علاه
وعاد رميما وعاد الاله هشيما
وباد الاسير وباد الامير
وجفت دنان الخمور
وداست عليها الدهور
فلله ربي الخلود
ولي ولغيري اللحود
وطول الهمود

●

فصل من ايام التشرد بين باريس ولندن

للكاتب الانكليزي
جورج اورويل ١٩٠٥ – ١٩٥٠

ترجمة
احمد حازم يحيى

شارع الديك الذهبي (ري دي كوك دور) في باريس ، والساعة السابعة صباحا ، وسلسلة من الصرخات المحتبسة الهائجة ترتفع من الشارع ، فقد خرجت مدام مونس ، صاحبة الفندق الصغير أمام فندقي ، الى الرصيف ، بعد أن حشرت قدميها العاريتين في حذاء خشبي ، وانحل شعرها الاشيب ، لتخاطب احدى قاطنات الطابق الثالث على هذا النحو :

« ساقطة ! ألم أقل لك عشرين مرة الا تسحقي الحشرات على ورق الجدار ؟ هل تظنين انك قد اشتريت الفندق ؟ .. ساقطة ! »

فردت المرأة في الطابق الثالث : « بقره ! »

واذا بالنوافذ قد فتحت على عجل من كل صوب ، وانطلقت منها جوقة كاملة مختلفة الصرخات ، واشترك في الشجار نصف الشارع . ثم سكت الجميع بغتة ، بعد عشر دقائق ، لينظروا الى احدى فرق الخيالة تمر من هناك .

وانما رسمت هذا المنظر لانقل شيئا من روح الشارع . فمن النادر ان يأتي الصباح دون ان يتكرر مشهد من هذا القبيل . الشجار والنداءات الموحشة التي يطلقها الباعة المتجولون ، وصرخات الاطفال وهم يلعبون بقشور البرتقال على الرصيف ، وفي الليل الغناء العالي والابخرة الحامضة المتصاعدة من عربات الزبل — من هذا كله يتكون جو الشارع .

وهو شارع ضيق جدا — بل منخفض ، بيوته طويلة مجذومه ، يميل احدها نحو الآخر في اوضاع غريبة كما لو كانت قد تجمدت وهي في حركة السقوط . وجميعها فنادق غصت بالنازلين حتى انهم حشروا فيها حشرا ، ومعظمهم من الاجانب .

وفي أسفل هذه الفنادق حانات صغيرة جدا تسكر فيها بما يعادل « الشلن » الواحد ، فترى الثلث من رجال الحي قد سكروا في ليالي السبت ، وتشهد شجارا بينهم على النساء . ثم تجد عمال الحفر (ويعيشون في ارخص الفنادق) في خصومات مستحكمة لاتعرف سرها ، تدفعهم الى التقاتل بالكراسي ، واحيانا بالمسدسات . ولا يمر شرطي من ذلك الشارع ، اثناء الليل ، الا ومعه آخر ، فالمكان لايهدأ وفي هرج ومرج دائمين .

ومع ذلك كله ، ووسط الضوضاء والقذارة ، تجد هذا النفر المعهود المتمسك بالتقاليد ، من ارباب الحوانيت الفرنسيين ــ الخباز والكواء وما شابههما ــ لا يخالطون احدا ، بل يجمعون في دأب وهدوء ثرواتهم الصغيرة . نعم انه حي يمثل احياء باريس الوبيئة خير تمثيل .

* * *

كانت حانتنا ، في هذا الحي ، غرفة ضيقة على هيئة القبو ، ارضها من القرميد ، انسكب على موائدها النبيذ وعلق على احد جدرانها صورة لجنازة كتب عليها : « البيع بالدين كالموت » . وترى عمالا هناك شدوا في وسطهم زنارا أحمر ، يقطعون سجق اللحم بسكاكين كبيرة . وهذه مدام (ف) ، صاحبة الفندق القذر الذي أعيش فيه ، تشرب نبيذ المالاكا طول النهار « من اجل معدتها » .

وهناك من يلعب بالنرد ليربح كأساً من الخمر ، وآخرون يغنون أغنية « التوت الاحمر والتوت الاصفر » أو أغنية « مادلين » يوم قالت :

« كيف اتزوج جنديا وأنا احب الفرقة أجمعين ؟ » . وتمر بمشاهد فائقة من الغزل واوضاع الحب ..

* * *

وذات يوم انقطع ما كنت أعطيه من دروس في اللغة الانكليزية اعيش عليها ــ فقد استغنى عني احد تلاميذي حين بدأت ايام الحر وشعر بعجزه عن متابعة الدرس ، واختفى آخر من منزله دون اشاره سابقة ، وهو مدين لي باثني عشر « فرانكا » . وهكذا خلفاني (في باريس) وليس معي اكثر من ثلاثين « سانتيما » ، وبدون تبغ . وبقيت يوما ونصف يوم دون ان آكل أو ادخن . هنالك حزمت ما تبقى لي من ملابس ، في حقيبتي واخذتها الى المرهن . وكانت خطوة وضعت حدا لكل تظاهر عندي . فلسم استطع ان اخرج ملابسي من الفندق دون موافقة مدام (ف) . ومع ذلك فلا زلت اذكر ما أصابها من دهشة ، لانني سألتها ذلك بدلا من الخديعة والاستخفاء ، فقد كان الهرب بالمتاع ، تحت جنح الليل ، خدعة جارية في حينا ، للتخلص من الايجار .

كانت المرة الاولى التي اذهب فيها الى مرهن فرنسي ، فأنت تدخل من بوابات صخرية مهيبة (عليها بالطبع شعار : الحرية والمساواة والاخاء) . تدخل من تلك البوابات الى غرفة واسعة عارية كغرف المدارس ، فيها حاجز من الخشب وصفوف من المقاعد . ورأيت اربعين او خمسين شخصا ينتظرون . ثم ناول احدهم ما عنده الى « مخمن المرهن » وجلس . واذا بهذا ينادي ، من وراء الحاجز ، بعد ان قدر قيمة الرهينة : « الرقم كذا وكذا ، هل تقبل بخمسين فرانكا ؟ » .

وقد لا يتجاوز المبلغ خمسة عشر « فرانكا » ــ وأحيانا عشرة او

خمسة[1] . ومهما كان هذا الرقم فلابد ان يعلم به جميع من في الغرفة .
وقبل ان أجلس ،سمعت الصوت ينادي « الرقم ٨٣ » ، ساخطا ، ثم يصفر وهو يشير اليه ، كما لو كان ينادى احد الكلاب . ورايت « الرقم ٨٣ » هذا ياخذ طريقه الى الحاجز . كان شيخا ملتحيا يرتدى معطفا مزررا حتى العنق ، وسروالا تهرأت حافتاه . واذا بالمنادي يرمي الحزمة على الارض دون كلام ـ كانت ولا ريب لاتساوي شيئا . وحين سقطت الحزمة وتبعثر ما فيها ، لم يستطع الحاضرون ان يمسكوا انفسهم عن الضحك ، فقد رأوا اربعة سراويل داخلية من سراويل الرجال .
هنالك جمع « الرقم » البائس سراويله ، وتحامل على نفسه في الخروج وهو يتمتم بكلام مبهم .
أما الملابس التي كنت اريد رهنها ، ومعها الحقيبة ، فقد كلفتني اكثر من عشرين « باونا » ، وكانت في حالة جيدة ، فقلت في نفسي : انها تساوي الان عشرة باونات ، فأنت حاصل ، ولا ريب ، على ربع هذه القيمة ـ اى ما يعادل مائتين وخمسين « فرانكا » .
انتظرت دون قلق وأنا اتوقع قبض مائتي «فرانك» في أسوأ الحالات. واخيرا سمعت الصوت ينادي بالرقم الذى أحمله : « الرقم ٩٧ ! » فوقفت وصحت : « نعم » ، فأردف الصوت يقول : « سبعون فرانكا » .
سبعون « فرانكا » لما قيمته عشرة « باونات » ! ولكن اية فائدة من النقاش ؟ لقد رأيت احدهم يحاول ذلك قبلي ، فرفض المخمن رهينته في الحال . فأخذت النقود وبطاقة الرهن وخرجت .
وقد عدت الان وليس عندي سوى ما ارتديه من الملابس (وها هي سترتي تتهرأ عند المرفق) ومعطف في غرفتي ، قد يصلح هو الاخر للرهن .
وقد علمت ، بعد فوات الاوان ، ان من الحكمة الذهاب الى المرهن بعد الظهر ، فالمخمن هناك ، كغيره من الفرنسيين ، لايفارقه الطبع الحاد حتى يتناول طعام الغداء .
وحين عدت الى الفندق ، كانت مدام (ف) تكنس أرض الحانه ،فمشت الي عند الدرج ، وفي عينيها قلق على « الايجار » . قالت : « خبرني ، كم اعطوك عن ملابسك ؟ ليس كثيرا دون شك ؟ »
فأجبت دون تردد : « مائتي فرانك » فهتفت بعجب : « ها ! مبلغ طيب . لاشك ان تلك الملابس الانكليزية غالية الثمن ! »
وقد انقذتني هذه الكذبة من كثير من المشاكل . والغريب في الامر انها تحققت ، فقد وصلتني ، بعد ايام قلائل ، مائتا فرانك بالضبط ، عن مقال كتبته لاحدى الصحف ، فدفعت المبلغ كله عن ايجار الغرفة وانا صاغر

---

(١) « الفرانك » الواحد هنا يساوي عشرة فلوس .

كان عندي ، على الاقل ، سقف فوق رأسي ، بعد ان اوشكت على الموت جوعا في الاسابيع التي تلت •

اما الآن ، فلابد من ان اجد عملا • وقد تذكرت في هذه الاونة صديقا روسيا يقال له بوريس ، يعمل نادلا في احد المطاعم ، فقد يكون بامكانه مساعدتي • كنت قد التقيت به في الجناح العام من احدى المستشفيات ،حين كان يعالج ساقه اليسرى من داء المفاصل ، وقد سألني ان أقصده عند الحاجة •

ولابد لي ان اقف عند بوريس هذا ، فقد كان شخصا غريب الاطوار حقا • وقد تصاحبنا زمنا طويلا • كان ضخما له هيئة الجنود ، في حوالي الخامسة والثلاثين من عمره ، حسن الوجه لولا بدانة مفرطة • وكانت حياته ، كأكثر اللاجئين الروس ، حياة مغامرة ، فقد قتل أبواه في الثورة ، وخدم هو ، اثناء الحرب ، في فرقة « البنادق السيبيرية الثانية » ــ أفضل فرقة في الجيش الروسي ، على زعمه •

وبعد الحرب ، اشتغل عاملا في مصنع ، ثم بوابا • واستطاع اخيرا ان يرتقي بعمله الى رتبة النادل ، في فندق كان يغسل فيه الصحون من قبل • وحين نزل به المرض ، كان في فندق « سكريب » وكان يحصل من النزلاء على مائة « فرانك » في اليوم ، لقاء الخدمة ، ويطمح ان يدير فندقه الخاص في احد الايام ــ وذلك حينما يدخر خمسين الف « فرانك » ليبني بعد ذلك فندقا صغيرا انيقا على الضفة اليمنى !

كان لبوريس طبع متقلب غريب • لقد ظل يحن الى الجيش ، ولكن نظرته الى الحياة قد عادت الان نظرة النادل ، بعد ان زاول هذه المهنة زمنا طويلا • ومع انه لم يدخر اكثرمن بضعة الاف من الفرنكات ، فقد آمن بأنه سينشيء فندقه في النهاية ويعود غنيا • ولقد وجدت ، فيما بعد ، ان هذا شأن الندل جميعا ، في حديثهم وتفكيرهم ، وهو الذي يمسكهم في وظيفتهم •

كنت احفظ لبوريس هذا مودة وصداقة • وقد قضيت معه اوقاتا طيبة نلعب الشطرنج ونتحدث في الحروب والفنادق • كان يلح علي ان اصبح نادلا ، وقد قال لي ذات يوم : « انتظر ايها الصديق حتى استطيع ان أثني هذه الساق اللعينة • آنذاك تستطيع ان تقصدني اذا ما أعوزك العمل • »

والآن ، وقد اعوزني « الايجار » وأضر بي الجوع ، تذكرت ما وعد به بوريس وقررت ان اعثر عليه في الحال •

ولم اكن اتوقع ان أصير نادلا بالسهولة التي وعدني بها ، ولكنني اعرف ولا ريب ، كيف أغسل الصحون ، وبوسعه ان يساعدني في الحصول على هذه الوظيفة ، فقد علمت انها تتيسر اثناء الصيف •

كان لي في هذه الذكرى راحة عظيمة ، فلم اعد وحدي الان ، بل كان عندي صديق من ذوي النفوذ أرجع اليه •

وكان بوريس قد أعطاني ، قبل زمن من ذلك ،عنوانا في شارع « بلان مانتو » ، ولم يقل في رسالته اكثر من « ان الامور تسير على نحو طيب • » فافترضت انه قد عاد الى فندق « سكريب » وانه يحصل على مائة « فرانك » في اليوم ، كعهده فيمامضى •

كان الامل حيا نشطا في نفسي • وتساءلت أي شيطان أنساني الذهاب الى بوريس قبل هذا • وتصورت مطعما ترتاح اليه النفس ، أشتغل فيه مع طباخين مرحين يتغنون بأغاني الحب وهم يصبون البيض في المقلاة • وتصورت كذلك خمس وجبات دسمة في اليوم • بل لقد انفقت ، دون مبالاة، « فرانكين » ونصف « فرانك » على علبة من السيكاير الجيدة ، بعد ان اطمأن بالي من ناحية المستقبل •

وفي الصباح ، مشيت الى ذلك الشارع ، فكانت دهشتي عظيمة حين وجدته لايقل تأخرا وفسادا عن الشارع الذى أعيش فيه • وكان فندق « بوريس » اقذر الفنادق هناك •

وحين اقتربت منه دخلت أنفي ، من بوابته المظلمة ، رائحة خبيثة حامضة ، هي مزيج من ثمالات الكؤوس وحساء رخيص لا يأكله الا من يتضور جوعا او يكاد • هنالك تولتني الريبة ، فليس من المعقول ان يحصل بوريس على مائة « فرانك » في فندق كهذا •

قال لي مدير الفندق (وكان في المكتب) بلهجة جافة : « نعم ، ان الروسي هنا ـ في غرفة السطح • »

فصعدت الى الطابق السادس ، على درج ضيق ملتو ، ورائحة الحساء الرخيص تزداد شدة كلما امعنت في الصعود •

لم يجب بوريس حين طرقت الباب ، ففتحته ودخلت • كانت غرفة مربعة لا يتجاوز بعدها عشرة أقدام ، ليس فيها ما يضيئها سوى نافذة صغيرة في السقف ، عارية الا من سرير ضيق من الحديد ، وكرسي قديم ، ثم مغسلة لا يسندها سوى ساق كسيحة واحدة • ورأيت سلسلة طويلة ملتوية من الحشرات تزحف ببطء عبر الجدار ، فوق السرير •

كان بوريس نائما وقد تعرى من ملابسه ، وبطنه الواسعة ، كالتل تحت الغطاء القذر • ورأيت على صدره آثارا واضحة من عضات الحشرات• وقد ايقظه دخولي ففرك عينيه وتأوه عميقا ، ثم صاح : « يا الهي ، ان ظهري يؤلمني ، عليه اللعنة ! لابد انه قد انكسر ! » فهتفت به : « ماذا حدث يا بوريس ؟ »

ــ «لقد انكسر ظهري ، بعد ان قضيت الليل بطوله على الارض • »

فصحت به من جديد : « ايها الصديق بوريس ، هل انت مريض ؟ »

ــ « ليس مريضا ، بل جائعا ـ وسأموت حتما ان استمرت هذه الحال • لقد عشت على « فرانكين » في اليوم ، طيلة الاسابيع الماضية • وكنت افترش الارض • انها لحالة مفزعة • واخشى ان تكون قد وقعت علي

في وقت غير مناسب ايها الصديق » .

ولم اسأل بالطبع ان كان بوريس يحتفظ بالوظيفة ، فقد اغناني ما رأيت وسمعت عن السؤال ، بل اسرعت بالنزول ، ثم عدت بعد ان اشتريت رغيفا من الخبز . فما كان من بوريس الا ان القى بنفسه عليه والتهم نصفه، فعاد اليه شيء من النشاط في الحال ، وبدأ يقص علي خبره ، بعد ان اعتدل في سريره .

لقد فشل في الحصول على عمل ، بعد ان غادر المستشفى ، لانه ظل يعرج على نحو واضح . وقد انفق جميع ما لديه من مال ، ورهن كل شيء، وتضور اياما بطولها ، ونام اسبوعا على الرصيف ، تحت جسر «اوسترلتز» بين براميل النبيذ الفارغة . وهو يعيش في هذه الغرفة ، منذ اسبوعين ، في صحبة يهودي من عمال « الكراج » . ويبدو ان هذا اليهودي كان مدينا لبوريس بثلاثمائة « فرانك » ، وانه يسدد دينه الان بأن يسمح لهذا الاخير بالنوم على ارض غرفته ، مع « فرانكين » في اليوم لطعامه . وبالطبع ، لا تستطيع ان تشترى « بفرانكين » اكثر من قدح من القهوة وثلاث قطع صغيرة من الخبز .

كان اليهودي يذهب الى عمله في الساعة السابعة صباحا ، فما ان يغادر الغرفة حتى ينهض بوريس من مكانه هو على الارض (تحت نافذة السطح التى ينزل منها المطر) ويدخل في فراش صاحبه ، ومع ذلك لا يستطيع ان ينام نائما ، لما يلقاه من اذى الحشرات ، ولكنه ، على الاقل ، يريح ظهره بعض الراحة من اثر الارض .

كانت خيبتي عظيمة حين وجدته اسوأ حظا مني ، وانا الذى قصدته اطلب العون . وقد بينت له أن ما عندى من مال ، لايتجاوز الستين فرانكا فلابد ان أجد عملا في الحال . وكان بوريس قد أكل ، في هذه الاثناء ، بقية الرغيف فانتعش وعاودته رغبته في الكلام ، فأجاب دون اهتمام : « ستون فرانكا – انها ثروة ! لماذا القلق يا صديقى ؟ »

— « ولكن هل من أمل في الحصول على عمل ؟ »

— « أمل ؟ بل يقين ، فبعد بضعة أيام سيكون هناك فندق روسي جديد في شارع « دي كومرس » ، وقد اتفقنا على ان اكون أنا مديرا له . آنذاك استطيع ان اجد لك عملا في المطبخ – خمسمائة فرانك في الشهر ، عدا طعامك وما تحصل عليه من « هبه » ، اذا كنت من ذوى الحظ .

— « ولكن ماذا افعل في هذه الاثناء ، فلابد من دفع الايجار بعد زمن قصير ؟ »

— « لا عليك ، فسوف نجد حلا ، فلم العب بعد بالورقة الاخيرة . ثم ان اليهودى قد عزم ، كما قال لى ، على سرقة بعض المولدات الكهربائية، من « الكراج » الذى يعمل فيه ، وسوف يدفع لنا خمسة فرنكات في اليوم لقاء تنظيفها . لاتخش شيئا ايها الصديق ، فلن نموت جوعا . لقد مررت

بما هو اقسى وأمر بكثير • كل ما تحتاج اليه الصمود ـ الصمود والمقاومة • تذكر قول « فوخ » : هاجم ثم هاجم ثم هاجم ! »

وقد انتصف النهار قبل ان ينهض بوريس من فراشه (فراش اليهودي) • ولم يكن لديه من الثياب الان اكثر من بدلة وقميص و «ياقة» ورباط وحذاء بال وجورب مثقب ومعطف احتفظ به ليرهنه ، في اسوأ الظروف ، ثم حقيبه تعسه من الورق المقوى ، لايتجاوز ثمنها عشرين فرنكا، يعتز بها كثيرا ، لان صاحب الفندق يعتقد انها مملوءة بالثياب ، واغلب الظن انه سيطرد بوريس اذا ما اكتشف حقيقة الامر • اما ما تحويه الحقيبة بالفعل فلا يخرج عن الاوسمه والصور وحزم الرسائل وبعض من سقط المتاع •

ومع ذلك كله ، فقد استطاع بوريس ان يحتفظ بمظهر مقبول • كان يحلق ذقنه دون صابون وبشفرة ظل يستعملها اكثر من شهرين ، ويشد ربطة العنق على نحو تختفي معه الثقوب ، ويحشو نعلي حذائه بورق الجرائد وأخيرا ، حين يكون هندامه كاملا ، يأخذ زجاجة حبر من الفندق ليصبغ ما تظهره خروق الجورب من كعب القدم ، فلا تصدق ، بعد ان ينتهي من ذلك ، انه كان ينام تحت جسور السين منذ ايام •

وذهبنا الى مقهى صغير في اعلى « ريفولي » ، وهو ملتقى المشتغلين في الفنادق ـ كبارا وصغارا • ورأيت في صدر المكان غرفة معتمة تشبه الكهوف ، جلس فيها جمع مختلط الاصناف من عمال الفنادق ، بينهم ندل من ذوي المظهر الحسن وآخرون يبدو عليهم الجوع ، وطباخون من ذوي السمنه ، حمر الوجوه ، وعمال تلطخت ملابسهم بالشحم ، ممن يغسلون الصحون ، ونساء هرمات يمتهن مسح الارض •

ورأيت امام كل منهم قدحا لم يمسه من القهوة ، فالمكان مكتب للتوظيف عمولته ، ما يصرف على الشراب • وتجد احيانا رجلا ضخما تشعر بأهميته (صاحب مطعم ولا ريب) يدخل ليكلم الساقي ، فينادي هذا أحد الجالسين في صدر المكان • ولكنه لم يناد احدا منا نحن الاثنين ـ أنا وبوريس • وغادرنا المقهى بعد ساعتين ، فلا يجوز المكوث اكثر من ذلك ، الا اذا طلبت قدحا آخر من القهوة •

وقد علمنا ، بعد فوات الاوان ، ان الاسلوب المتبع هنا هو ان ترشو الساقي ، فتحصل في الغالب على عمل عن طريقه (اذا استطعت ان تدفع عشرين فرانكا) •

وذهبنا الى فندق « سكريب » ، وانتظرنا ساعة على الرصيف ريثما يخرج المدير ، ولكنه لم يخرج • هنالك جررنا أقدامنا الى شارع « دي كومرس » لنجد المطعم مغلقا وصاحبه قد غادر باريس •

كان الليل قد داهمنا في هذه الاثناء ، وقد مشينا اربعة عشر كيلومترا، فأصابنا من التعب ما أرغمنا على ان نعود « بالمترو » ، فننفق فرانكا ونصف

فرانك ، فقد كان المشي عند بوريس ، بساقه الكسيحة ، كقصص الموت. ورأيت ابتسامة التفاؤل تبهت ثم تموت في وجهه شيئا فشيئا ، كلما تقدم النهار . وحين خرج من « المترو » في « بلاس ديتالي » ، كان اليأس قد نال منه . وسمعته يقول ان لا فائدة بعد من البحث ولن يجدي بعد ذلك غير الجريمة . ولكنه طرح الموضوع في النهاية ، لاننا غريبان في هذه البلاد ، ومن السهل ان نتكشف ، كما قال .

وحين وصلنا غرفتي ، أنفقنا « فرانكا » ونصف فرانك ، من جديد، على الخبز وبعض الحلوى . فما ان التهم بوريس نصيبه حتى عاد اليه مرحه وكأنما فعل فيه الخبز فعل الخمر .

ورأيته يخرج قلما ليكتب في قائمة اسماء من يعرفهم ومن نستطيع الرجوع اليهم في أيام العسر . وقال انه يعرف من هؤلاء العشرات : «سوف نجد شيئا في الغد يا صديقي . أنا واثق من ذلك ثقة لا يتطرق اليها الشك. ان الحظ لا يستقر على حال . ثم اننا ــ أنا وانت ــ من ذوي الفكر . ومن كان الفكر حليفه لا يمكن ان يمسه الجوع . ما أكثر ما يستطيع المرء عمله بالفكر ! »

وظل في حال من الامل المهذار بقية المساء . وقد منعه التعب الـذي أصابه من الذهاب الى فندقه ، على بعد ثلاثة كيلو مترات اخرى ، فنام على الارض في غرفتي ، بعد ان جعل من حذائه وسادة لرأسه .

* * *

لم نجد عملا في اليوم التالي ، كذلك . ولم يتغير حظنا قبل ان تنقضي ثلاثة اسابيع . وكانت حالتي قد ساءت حقا . ولولا انني دفعت «الايجار» مقدما لطردت من غرفتي .

وكنا ، أنا وبوريس ، نذرع باريس طولا وعرضا ، يوما بعد يوم ، لانعرف لنا وجهة ، فنسير بمعدل ميلين في الساعة ، بين الزحام ، وقـد أضر بنا الجوع والملل ، دون ان نجد شيئا . واذكر يوما عبرنا فيه السين احدى عشرة مرة .

كنا نتلكأ ساعات بطولها على الابواب ، حيث مكاتب التوظيف ،ونهرع الى المدير باحترام ، حين يخرج ، وقبعتنا في يدنا . ولكن الجواب واحد في جميع الاحوال : لايمكن استخدام من يعرج او من تنقصه الخبرة .

وأوشكنا ذات مرة على النجاح ، فقد كان بوريس يقف منتصبا ،ونحن نتحدث الى المدير ، دون ان يستند الى عصاه ، فلم يكتشف هذا عاهته ، وقال : « نعم ، نريد رجلين للقبو وقد تكونا لائقين ، فهيا معي ! » فلمـا تحرك بوريس لاحظ المدير عرجه وقال : « آه ، انك تعرج ، آسف .. »

وذات مرة أجبنا على اعلان يطلب عمالا « للسرك » ــ عمالا ينقلـون المقاعد وينظفون ما يفرش من يابس النبات تحت الحيوانات ويقفون ،أثناء

العرض ، على برميلين ، ليقفز أسد من بين سيقانهم ! ولكننا حين وصلنا المكان ، قبل ساعة من الموعد ، وجدنا صفا من خمسين رجـــلا ينتظرون قبلنا ! ان للاسود سحرا خاصا ولا ريب ٠

ومرة اخرى ارسلت لي وكالة ، كنت قد قدمت اليها طلبا من قبل ، قصاصة تعلمني ان ايطاليا يريد دراسة اللغة الانكليزية ٠ وقد جـــاء في القصاصة ما يلي : « تعال في الحال ! » ووعد بعشرين فرانكا في الساعة ٠

كان ذلك فرصة عظيمة لنا بعد ان أصابنا اليأس ، أنا وبوريس ٠ ولكنني لا أستطيع الذهاب الى الوكالة الان وسترتي على هذا النحو ـ متهرئة عند المرفق ٠ فارتديت سترة بوريس ٠ بيد ان هذه الاخرى واسعة جدا علي ، فتركتها مطلقة الازرار وجعلت احدى يدي لاتخرج من جيبها ٠ ثم اسرعت بعد ذلك في طريقي الى الوكالة بل لقد قصدت سيارة من سيارات المدينة فانفقت خمسة وسبعين « سانتيما » لاصل في الموعد المعين ٠ولكنني حين وصلت ، وجدت الايطالي قد غير رأيه وغادر باريس ٠

وفي يوم اخر علمت من بوريس ان هناك من يطلب بوابا ٠ وحين وصلت المكان ، في الساعة الرابعة والنصف صباحا (وكان العمل في شدته آنذاك) رأيت رجلا قصيرا بدينا ، عليه قبعة سوداء مستديرة ، يوجه بعض البوابين ويشير عليهم ، فمضيت اليه اعرض خدماتي ، فامسك بيدي اليمنى قبل أن يجيب ، وتحسس راحتها ، ثم قال : هل تتمتع بقوة جسدية ؟ فأجبت كاذبا : « نعم ، انني قوي جدا ٠ » قال : « فارفع اذن هذا الحمل من البطاطس ! » ٠ كان حملا ضخما جدا ، من اغصان مجدوله فلم أفلح حتى في تحريكه ٠ وكان الرجل ذو القبعة السوداء يرقبني ، فهز كتفيـه واعرض عني ٠ فغادرت المكان دون كلام ٠ وحانت مني التفاتة الى الوراء ، فرأيت اربعة رجال يرفعون ذلك الحمل ، ليضعوه في عربة تنتظر هناك ٠ لا ريب ان الرجل قد استخدم هذا الاسلوب ليتخلص مني ٠

* * *

كانت العاقبة أسوأ بكثير على بوريس منهـــا علي ، فالمشي الطويل والنوم على الارض ، جعلا ساقه وظهره في ألم دائم ، ثم انه ، بشـــهيته الهائلة ، يقاسي آلاما مبرحة من الجوع ٠ بيد انه ، على العموم ، لامجال لليأس في نفسه ، وان كان ينهار في بعض الايام فيستلقي على فراشه كمن يريد البكاء ، وهو يلعن صاحبه اليهودي بعد ان بدأ هذا يتلكأفي دفع ما عليه والاسوأ من ذلك ، في نظر بوريس ، أنه أخذ ينتحل هيئة المحسن ويلبس لباس من له الحق في الرعاية ، قال لي يوما :

« انك انكليزي الجنسية ، فلا تستطيع ان تتصور عذاب الروسي (ولاسيما ان كان من اسرة طيبة) حين يقع تحت رحمة أحد من اليهود ٠ يهودي ، أيها الصديق ، يهودي بكل معنى الكلمة ! تصور حالتي ـ أنا

الرئيس في الجيش الروسي .. تصور حالتي وأنا أعيش الآن على خبز هذا اليهودي ..

« سأحدثك ايها الصديق عن هؤلاء اليهود . فذات يوم ، في الاشهر الاولى من الحرب ــ وكنا قد توقفنا لنقضي الليلة في قرية قريبة ــ جاءني متلصصا الى مقري الخاص ، يهودي عجوز قبيح المنظر ، له لحية حمراء كلحية يهوذا . فسألته عما يريد فأجاب : « يا صاحب السعادة ، لقد جئتك بفتاة جميلة في مقتبل العمر ــ ولن اسألك اكثر من خمسين فرنكا . » فأجبته : « شكرا على هذا الكرم ، ولكنني لا أحب أن أصاب بمرض . » فصاح اليهودي : « مرض ! لا تخش ايها السيد من هذه الناحية ، فالفتاة ابنتي ! » هذه هي أخلاق اليهود . »

* * *

وبعد أيام عدنا نجرر أقدامنا المتعبة من جديد ، بحثا عن عمل ، ثم نعود في المساء الى غرفتي لنأخذ وجبة (تتضاءل يوما بعد يوم) من الخبز والحساء .

وكان أمامنا الآن طريقان : اولهما ان بوريس قد سمع بوجود عمل في فندق (س) ، قرب « بلاس دي لاكونكورد » ، وثانيهما ، ان صاحب المطعم الجديد ، في « ري دي كومرس » ، قد عاد من سفرته . فنزلنا عند العصر نريد مقابلة هذا الاخير .

وفي الطريق ، كان بوريس يتحدث عن حظنا الرائع ، وعن الثروة التي سنجمعها بعد ان نحصل على الوظيفة ، ويؤكد اهمية الانطباع الحسن: « ليس من شيء كالمظهر ، يا صديقي . هات بدلة جديدة وسوف اقترض لك الف فرانك قبل موعد العشاء . ما أشد أسفي الان لانني لم اشتر « ياقة » حين كان معنا بعض المال ! لقد قلبت « ياقتي » هذا الصباح ،ولكن ما الفائدة ؟ فالجانبان على درجة واحدة من القذارة . هل تظهر على وجهي علامات الجوع ايها الصديق ؟ »

ــ « تبدو شاحبا » .

ــ « تبا ! ماذا نستطيع ان نفعل بخبز وحساء ؟ لابد ان يبدو علينا الجوع ، مما يجعل الناس يشمئزون منك ويودون لو يرفسونك ليتخلصوا منك ».

قال ذلك وهو يتوقف عند احد حوانيت الحلي ، فيلطم خديه بشدة ليدفع اليهما شيئا من الدم . ثم اسرعنا ، بعد ذلك ، الى المطعم ، قبل ان يبهت وجهه ، لنقابل المدير .

كان رجلا بدينا قصير القامة أجعد الشعر اشيبه ، يرتدي بدلة انيقة ويفوح منه عبير طيب . وعلمت من بوريس انه كان ، هو الاخر ، ضابطا في الجيش الروسي .

وحيا المدير بوريس ببشاشه • ثم أخذا يتحدثان بالروسية بعض الوقت • أما أنا ، فكنت أقف في احد الاركان البعيدة ، اردد في نفسي ما ساقوله من أكاذيب عن خبرتي في غسل الصحون •

ورأيت المدير يقبل علي ، فارتبكت ، وحاولت ان اظهر الخضوع والمذلة ، فقد سمعت بوريس يردد مرارا ان من يغسل الصحون لايعدو أن يكون عبدا لعبد ، فكنت أتوقع من هذا المدير ان يعاملني كما تعامل التفايه • ولذلك كانت دهشتي شديدة حين شد على كفي بحرارة وقال : « واذن ، فأنت انكليزي ! ما أجمل ذلك ! لاشك في انك تجيد لعبة الصولجان « الكولف » ؟ » فأجبت : « بالطبع ، بالطبع ! » حين رأيت انه يتوقع مني ذلك •

ـــ « لقد طالما اردت أن أتعلم هذه اللعبة ! فهل تكون كريما معي وتعلمني الضربات المهمة ؟» • قلت في نفسي : انه ولا ريب الاسلوب الروسي في العمل •

وبدأت أشرح له وهو يصغي باهتمام • واذا به يقاطعني فجأة ليقول ان الاتفاق قد حصل ـــ فسيكون بوريس « المشرف » حين يبدأ المطعم ، وأعمل أنا في غسل الصحون ، ولي امل الترقيه الى « ناطور مراحيض » اذا ما نجح العمل • وسألت : متى يبدأ المطعم ؟

فأجاب بأسلوب رفيع (كانت له طريقته في تحريك يده ونفض الرماد من « سيكارته » في ذات الوقت ، مما يضفي عليه مظهرا رفيعا) : « بعد اسبوعين بالضبط • »

وشعرت شعورا قويا بأننا لن نصيب خيرا من هذا المطعم ، فقد بدا لي هذا المدير محتالا هو الآخر • ثم انني رأيت اثنين من الدائنين (لا يخطيء المرء معرفتهما) يلازمان باب المطعم الخلفي ولا يبرحانه • على ان بوريس وقد رأى نفسه « مشرفا » فجأة ، لم يكن ليسمع شيئا من هذا القبيل ، وراح يقول : « لقد جاءنا الفرج اخيرا ، وما علينا الا ان نصمد اسبوعين اخرين!»

واعقب ذلك يوما سيئان آخران • ولم يبق لدينا من مال سوى ستين « سانتيما » انفقناها على شيء من الخبز مسحناه بقطعة من الثوم ، ليوهمنا طعمه المتبقي في الفم ، أننا قد أكلنا منذ وقت قريب •

كنا نقضي معظم وقتنا في حديقة النبات ، وكان بوريس يصوب بالحجاره نحو الحمام الاليف هناك دون ان يصيب منه ابدا • وأحيانا نعمد الى تسجيل وجبة العشاء الوهمية على أغلفة الرسائل ، فلم نكن نستطيع التفكير في شيء آخر • ولا زلت أذكر الوجبة التي أعدها بوريس لنفسه ـــ قائمة طويلة اشتملت على كل الانواع الفاخرة من اللحم والخضار والجبن والحلوى والفاكهة والشراب ••

ولما نفد ما عندنا من مال ، كففت عن الحركة ، ولم اعد ابحث عن عمل • ومر يوم آخر دون أن اصيب شيئا من الطعام • لم اكن قد صدقت

قصة المطعم الروسي ، ولم يكن هناك من بصيص امامنا • ثم انني كنت متعبا جدا ، على نحو لا استطيع معه غير الاستلقاء في الفراش •

ولكن الحظ تغير فجأة • فذات مساء ، حوالى العاشرة ، سمعت من يناديني بلهفة في الشارع • فأسرعت الى النافذة ، واذا ببوريس يقف تحتها مهللا ، يلوح بعصاه • وما ان رآني حتى أخرج من جيبه رغيفا قذفه الي وهو يقول : « ابشر أيها الصديق فقد جاءنا الفرج ! هل تستطيع ان تخمن ؟ »

— « لا أظن انك قد حصلت على عمل ؟ »

— « في فندق (س) •• خمسمائة فرانك في الشهر ، مع الطعام • لقد بدأت العمل هذا الصباح ، وليتك شهدت ما اكلته من أصناف هناك ! »

لقد جاء يزف الي النبأ السعيد ، فقطع ثلاثة كيلومترات بعد ان اشتغل عشر ساعات أو اكثر ، وبساقه الكسيحة هذه !



تعريف نهر دجيل

موسى الموسوي

دجيل ، بضم الدال وفتح الجيم وسكون الياء ، تصغير دجلة تصغير ترخيم : يطلق هذا الاسم على ثلاثة أنهار في ثلاثة مواضع ذكرها المؤرخون وارباب المعاجيم وهي :ـ

١ ـ دجيل الاهواز

قال ياقوت : « نهر بالاهواز ، حفره اردشير بن بابك احد ملوك الفرس . وقال حمزة : كان اسمه في أيام الفرس (ديقذا كودك) ومعناه دجلة الصغيرة فعرب على دجيل ، ومخرجه من أرض أصبهان ومصبه في بحر فارس قرب عبادان وكانت عند دجيل هذا وقائع للخــوارج وفيه غرق شبيب الخارجي »(١)

وقال صفي الدين في مراصد الاطلاع « كان اسمه أيام الفرس (ديله كودك) يعني دجلة الصغيرة فعرب على دجيل ، وكان يعرف بدجيــل المسرقان » .

وقال ابن خلكان عنه انه « نهر عظيم بنواحي الاهواز وتلك البــلاد عليه قرى ومدن ، ومخرجه من جهة اصبهان ، وحفره اردشير بن بابــك أول ملوك بني ساسان ، ملوك الفرس بالمدائن » .

وقد ورد ذكر هذا النهر عند فتح المسلمين لتستر بقيادة ابي موسى الأشعري فقد قيل ان الرجل من الاعاجم كان يقتل أهله وولده ويلقيهــم في «دجيل» خوفا من أن تظفر بهم العرب . وفي هذه الواقعة اقتيد الهرمزان قائد جيش الفرس الى الخليفة عمر بن الخطاب (رض) فاستحياه والقصة مشهورة .

والظاهر ان نهر (دجيل) هذا هو نهر (كارون) الحالي ، وقد تغير مصبه في الأزمنة الاخيرة .

٢ ـ دجيل الفرات

ورد في التاريخ القديم ذكر لنهر سماه (الماديون) ســكان العراق

القدماء باسم (دجل) ومعناه السهم لسرعة جريه . وكان العبرانيون يسمونه (الداجل) أي السريع . وهو النهر الذي سمي في العهد القديم (التوراة) باسم (حداقل) وعد من الأنهر الأربعة التي تسقي الفردوس . وكان هذا النهر العظيم - كما حققه الباحثون - يأخذ من ضفة الفرات اليسرى ، وينحدر في مجراه حتى يصب في دجلة . وقد وصفه السير ويليم ويلكوكس (١٨٥٢ - ١٩٣٢) بقوله « ويبلغ هذا النهر حوالى (٢٥٠) قدما في العرض و (٢٥) قدما في العمق . وهو يشبه في جريه وضع القناة التي تدير الطاحونة . أما اتجاه جريه فينحدر أولا نحو منخفض عقرقوف . ثم يمر هناك فيصب في دجلة قرب بغداد . ويستطيع هذا النهر لو ترك لطبيعته أن يحمل الى دجلة كمية من المياه تزيد على نصف ما يستوعب نهر الفرات . ومما لا شك فيه ان الاقدمين كانوا يعتبرون هذا النهر المنبع القديم لدجلة . » . ولو صح هذا الوصف لهذا النهر لكان شديد الانطباق على التسميات القديمة له كتسميته بالسهم مرة ، وبالسريع مرة أخرى .

الا أن الدكتور أحمد سوسة الذي نقل مقالة ويلكوكس يذهب الى أن مجرى هذا النهر هو مجرى نهر الصقلاوية « وكان قد عرفه الاقدمون كجزء من نهر دجلة بل صدره الرئيس فاطلقوا عليه اسم (دقل - دجلة) » .

وفي ايرادات الدكتور مصطفى جواد على تلك الاقوال أشار الى أن (حداقل) هذا هو (دجيل) العتيق . يعني النهر الذي انفرد بوصفه وتحديد مأخذه ومجراه ومصبه المؤرخ ابن سرابيون(٢) فقد قال أثناء استقصائه لذكر الانهار التي تأخذ من ضفة الفرات الشرقية : « ويحمل منه - أيضا - أي من الفرات - نهر يقال له (دجيل) أوله فوق قرية (الرب) بفرسخ أو أكثر ثم يمر في (العراض)(٣) ويتفرع منه انهار كثيرة تسقي ضياع مسكن وقطر بل وما يليها من الرساتيق ، ويصب في دجلة بين عكبراء وبغداد .) وحجة الدكتور مصطفى جواد (ان لفظ دجيل قريب من حداقل . وان هناك نصوصا تؤكد أن دجيلا كان من الانهار التي تستمد من الفرات كاخبار (البثق) الذي كان يسمى (قبين)(٤) فانه من البثوق التي أثرت في مجرى الفرات . وكان ماؤها يصل هور عقرقوف . قال ابن عبد الحق في مراصد الاطلاع : « قبين : لا يعرف بهذا الاسم غير موضع فوق الانبار به سكور تتعاهد في كل سنة . ترد الماء عند زيادة الفرات عن نواحي دجيل ونهر عيسى ، انفتح بعضها في آخر ولاية المستعصم فغرقت نواحي دجيل ونهر عيسى حتى دخل الماء الى محال الجانب الغربي من بغداد » . وقد أشار الى ذلك مؤلف الحوادث الجامعة في ذكره غرق بغداد سنة ٦٥٤ في خلافة المستعصم قال : « وانفتح قبين فغرق دجيل ونهر عيسى ونهر الملك وأتلف زروعا كثيرة » ..)

وكان للدكتور جواد رأي في اندراس هذا النهر أورده فيما تفضل به علي في رسالة منه الي فقد قال « والظاهر انه - أي دجيل الفرات -

كان آئلا الى الاندراس في أول دولة بني العباس . وفي أيام المعتضد أعني أواخر القرن الثالث ، تضاءل دجيل حتى لقد قال الطبري ونقل عنه المؤرخون في حوادث سنة ٢٨٣ هـ « وفي رجب منها أمر المعتضد بكري دجيل والاستقصاء عليه وقلع صخر كان في فوهته ، كان يمنع الماء فجبي لذلك من أرباب الضياع والاقطاعات أربعة آلاف دينار وكسر فيما ذكر .. وانفق عليه وولي ذلك كاتب زيرك وخادم من خدم المعتضد » ومعنى هذا ان صدره ارتفع منذ أواخر القرن الثالث حتى احتاج الى الكري والقلع .. »

وقد اهتم بعض الباحثين في تعيين صدر هذا النهر على ضوء ما كتبه عنه ابن سرابيون وتحديد موقع قرية الرب التي أشار اليها فقد قال الدكتور سوسه : « ويؤخذ مما كتبه المقدسي ان مدينة الرب كانت تقع على بعد مرحلة واحدة من جنوب هيت . وهذه تقدر بحوالي (٢٥) كيلومترا أما الادريسي فيقدر المسافة بحوالي (٣٠) ميلا . وقد أشار السير ويليم ويلكوكس في الخارطة التي نظمها لمقاطع نهر الفرات بين هيت والشامية الى أن هناك آثارا لنهر قديم يأخذ من الضفة اليسرى من نهر الفرات من نقطة تقع على مسافة حوالى (٣٨) كيلومترا من جنوب مدينة هيت . ولعل تلك الآثار تعود لنهر الدجيل حين كان يأخذ الماء من نهر الفرات ، حيث ان الموقع الذي يشير اليه السير ويليم ويلكوكس يكاد يتفق مع ما ذكره المؤرخان المشار اليهما .)

ولكن الدكتور سوسة عاد في مؤلفاته الاخيرة فاتهم مقالة ابن سرابيون بالوهم والخطل مستندا الى ان وضع مستويات الاراضي لا يساعد على فتح نهر من الفرات من الموضع الذي ذكره ابن سرابيون وتوجيهه نحو قرى مسكن ، وان النهر الذي يعنيه ابن سرابيون هو نهر عيسى (كذا) حيث لم يستطع التمييز بين فروعهما المنتهية في غربي مدينة بغداد . وانه كان المؤرخ الوحيد الذي ذكر ذلك مع ان جمهرة من المؤرخين المتقدمين عليه نصوا على أن دجيلا يستمد مياهه من دجلة ويصب فيها .

كما ان الدكتور الجواد لم يعد يأخذ برأيه السابق في وجود نهر باسم (دجيل) يستمد من الفرات . وقبلهما كان المستر (لاين) صاحب كتاب (المشاكل البابلية) قد ذهب هو الآخر الى ان من اخطاء الجغرافيين القدماء في وصفهم للجداول القديمة ما ذكره ابن سرابيون من أن نهر دجيل كان يتفرع من نهر الفرات .

ومع اني شديد اليقين من أن نهر دجيل كان منذ أزمان بعيدة من أنهار دجلة التي تأخذ منها وتصب فيها . الا ان ذلك لا يمنع من وجود نهر آخر بهذا الاسم يأخذ من الفرات ويصب في دجلة بعد ان تشتبك فروعه بفروع دجيل دجلة قرب بغداد . وان الدقة التي كتب بها ابن سرابيون كتابه عن أنهار العراق وتثبته في استقصائها وتتبعه العجيب لفروعها .

كل ذلك يدفع عنه احتمال الخطأ في تعيين موقع صدر (دجيل*) وانه من الفرات • لا سيما حين ذكر نهر سعيد وهو أعلى منه • ثم ذكر نهر عيسى ونهر صرصر ونهر الملك ونهر كوثى وهي أدنى منه • ولئن ورد ذكر دجيل دجلة منصوصا عليه قبل عصر ابن سرابيون ، فلا يقتضينا ذلك حمل كل الاخبار التي ذكرت (دجيلا) بصورة مطلقة عليه • كما لا يمكن حملها على أنها اخبار دجيل الفرات • أما نهر ـ حداقل ـ القديم الذي ورد ذكره في التوراة فانه لم يكن (دجيلا) فهو نهر دجلة بعينه ، ولا ضرورة للاشتطاط في الحدس والتخمين •

٣ ـ دجيل بغداد

وهو نهر كثير النفع جليل الفائدة حسن الموقع • كان يستمد مياهه من الضفة اليمنى لنهر دجلة جنوبي سامراء قبالة القادسية بالقرب من (الاصطبلات) ويجري موازيا لنهر دجلة في مجراه القديم من جهة الغرب • وكانت تتشعب من ضفتيه فروع كثيرة • فتمتد الفروع الغربية الى جهة سهل الجزيرة الواقعة ما بين دجلة والفرات لارواء الاراضي الزراعية هناك • أما الفروع الشرقية فتمتد الى جهة مجرى دجلة فتروى الاراضي الزراعية الواقعة ما بين نهر دجيل ومجرى دجلة •

وكان هذا النهر يسقي بلادا كثيرة وأرضا واسعة • ويصب فضلته عند مغيض ماء (مستنقع) يدعى (الطاهرية) أو (خندق طاهر) فوق بغداد • ويعتبر نهر دجيل هذا من مشاريع الارواء القديمة المهمة • وقد ازدادت أهميته بعد تحول مجرى دجلة الى الشرق وانقطاع المياه عن القرى والمدن والضياع التي كانت تستقي من دجلة • فقد قام المستنصر العباسي بتحويل صدر دجيل الى الشمال وتوسيع مجراه ، وفتح عدة فروع له من ضفته اليسرى ، فاصبح يروي معظم المنطقة الواقعة بين سامراء وبغداد ، حتى صارت هذه البقعة في زمن ما قطعة خضراء • وكان من فروع هذا النهر ما يدخل الى بغداد من شمالها وشمالها الغربي •

ذكره الحموي في معجم البلدان فقال : مخرجه من أعلى بغداد بين تكريت وبينها ، مقابل القادسية ، دون سامراء • فيسقي كورة واسعة وبلادا كثيرة ، منها (أوانا) و (عكبرا) و (الحظيرة) و (صريفين) وغير ذلك • ثم تصب فضلته في دجلة أيضا ••• الخ ••(٥) ومثل ذلك ما قاله ابن عبد الحق في مراصده وأضاف ان فضلته كانت تصب (في الطاهرية المعروفة بخندق طاهر ، ومما عليه من الكور (مسكن) وهي النواحي التي منها (أوانا) وما حولها • وفيها كانت الوقعة بين مصعب بن الزبير وأهل الشام فقتل هناك ، وقبره ظاهر عليه مشهد يزار) •

وذكره عماد الدين في كتابه تقويم البلدان فقال : ويحمل من دجلة

الدجيل • قال في المشترك •• وهو نهر في أعلى بغداد ومخرجه دون سر من رأى وعليه كورة كبيرة مشتملة على مدن وقرى (ص ٥٦ طبعة باريس) • ونقل عن ابن حوقل قوله : وقرب تكريت يشتق نهر الدجيل الذي يسقي سواد سامراء الى قرب بغداد (ص ٢٨٩) •

أما ابن خلكان فقد قال عنه بعد ان وصف مخرجه (عليه كورة واسعة) وقد جاء وصف هذا النهر في كتاب دليل خارطة بغداد ص (٩٩) فقال مؤلفاه الفاضلان « ونهر دجيل هذا كان يتفرع من الضفة اليمنى لنهر دجلة في جوار أطلال الاصطبلات وبعد أن يسير مسافة قليلة يتشعب الى فرعين رئيسين يسير أحدهما في الوجهة الجنوبية الشرقية نحو قرية (السميكة) دجيل الحالية مخترقا ناحية مسكن القديمة حتى يصل الى غربي بغداد ، ويسير الآخر في الوجهة الغربية الجنوبية وسط الجزيرة الواقعة بين النهرين دجلة والفرات ، حتى يصل الى قرب الفرات • وكان يعرف الفرع الذي يصل الى بغداد باسم نهر (بطاطيا) وكان يتشعب من نهر بطاطيا ثلاثة أنهر تسير شرقا فتعبر فوق الخندق الطاهري ثم تنتهي الى محلة الحربية • وأول هذه الفروع كان يعبر على عبارة فوق خندق طاهر عند باب حرب ، وبعد ان يخترق المحلة يصب في أسفل نهر باب الشام الذي يتفرع من نهر رزين • ويعبر الآخر الخندق الطاهري بين باب حرب وباب الحديد فوق عبارة كانت تعرف باسم (عبارة الكرخ) ويصب كسابقه في نهر باب الشام أيضا بعد ان يخرج منه فرعان صغيران من ضفتيه اليمنى واليسرى ، وكان هذا الفرع يسير بموازاة شارع دجيل شمالا ، وبعد ان يعبر الخندق على عبارة الكرخ يقطعه شارع دجيل(٦) ، قرب باب الشام على قنطرة كانت تعرف باسم (قنطرة أبي الجون) نسبة الى دهقان فارسي كانت له قرية تسمى الشرفانية في هذا الموضع قبل تأسيس بغداد ، وصارت فيها دار سعيد الخطيب في العهد العباسي وقد وصفها ياقوت بقوله انها قرية بقرب قنطرة أبي الجون • أما الفرع الثالث وكان يسمى نهر بطاطيا فكان يعبر الخندق في جوار باب الانبار وتجف مياهه بعد مسافة قصيرة ، ويقال ان هذه المجاري التي كانت تمر من محلة الحربية كانت كلها قنوات تجري تحت الارض ، داخل عقود من البناء •• الخ ••) • والظاهر من هذا الوصف ان المؤلفين الكريمين اعتمدا فيه وصف ابن سرابيون لفروع (دجيل) الذي كان يستقي من الفرات ويصب في دجلة على زعمه •(٧)

* * *

وقد اختلف المؤرخون ومن كتب حول مشاريع الارواء في العراق من المتاخرين حول تحديد العهد الذي يرجع اليه انشاء هذا النهر • وكل ماقيل بهذا الشأن مبني على الحدس لا اليقين • اذ لم يرد فيما بين أيدينا من

المصادر التاريخية والجغرافية نص صريح على ذلك • فمن قائل ان المستنصر العباسي هو الذي أمر بحفره ، ومد منه فروعا لسقي المنطقة الواقعة شرقيه الى دجلة بعد تحوله ـ الذي تم في زمن المستنصر كما يذهب اليه القائلون بهذا الرأي ـ ومنهم مديرية الآثار القديمة العراقية التي أوردت ذلك في نشرتها عن جسر حربي وليس الامر كذلك طبعا • فان نهر دجيل قد ذكر في عدة حوادث سابقة لعصر المستنصر المتوفى سنة ٦٤٠ هـ ـ ١٢٤٢م • من ذلك المعركة التاريخية المشهورة بين مصعب بن الزبير وعبد الملك بن مروان التي سميت بعض وقائعها بوقعة (دجيل) وكانت في سنة (٧٢)هـ •

ومن قائل ان انشاء هذا النهر تم في العصور التي تمتد الى ما قبل (٣٥٠٠) سنة كالسير ويليم ويلكوكس الذي كان يعتقد بان انشاء سد نمرود القديم على دجلة كان لكي يجري الماء فيه بمنسوب عال لغرض تموين صدور النهروان من ضفته اليسرى ودجيل من ضفته اليمنى فقد قال في كتابه (بين عدن والاردن) الترجمة العربية ص ٤٦ و ٨٣ ه هناك على بعد بضعة كيلومترات فوق النقطة التي يدخل فيها نهر دجلة دلتاه • أقيم في الوادي سد ترابي جسيم يحول النهر فوق الارض الصلبة لكيما يجري بمنسوب عال فيروي الاراضي الواقعة على ضفتيه • وقد أخذت من طرف السد الامامي الصدور الثلاثة لجدول النهروان الكبير على الضفة اليسرى ، وجدول (دجيل) على الضفة اليمنى • ويعزى الى نمرود الفضل في انشاء السد وتحويل مجرى النهر • وقد بقي هذا السد قائما مدة تربو على (٣٠٠٠) سنة حين جرفته المياه في عهد آخر الخلفاء العباسيين الضعاف) •

وهناك من يرى ان (دجيلا) كان من أعمال الفرس في عهد كسرى أنو شروان ـ الذي أقام عددا من مشاريع الارواء المهمة في هذه المناطق مثل القاطول والقورج وغيرهما ـ فقد قيل أن حفره اقترن بانشاء سد العلث الذي أقيم ليتسنى حجز مياه دجلة الصيفية ورفع مناسيبها لتحويلها الى صدر القورج[٨] ودجيل • قال الدكتور أحمد سوسة (والارجح ان نهر دجيل انشيء بعد اقامة (سد العلث) على نهر دجلة وانشاء نهر القورج أمامه على عهد كسرى انو شروان • ففتح صدره من الضفة اليمنى لنهر دجلة مقابل صدر القورج ، وبذلك صار يستفيد من وجود سد العلث الذي كان يرفع مناسيب مياه دجلة هناك اسوة بصدر القورج الواقع في الجهة الشرقية من دجلة والذي كان يستفيد من السد أيضا • وبعد ان تم انشاء نهر دجيل فتحت فروع من جهتيه لارواء الاراضي الواقعة على الضفة الغربية من دجلة ••(٩)

---

(٦) شبيب هذا الذي يعنيه ياقوت هو ابو الضحاك شبيب بن يزيد الشيباني ، كان قد ادعى الخلافة وخرج في الموصل في زمن عبدالملك بن مروان ، وكان الحجاج بن يوسف الثقفي بالعراق يومئذ • فبعث اليه بخمسة قواد قتلهم واحدا بعد واحد • ثم سار من الموصل يريد الكوفة ، وخرج الحجاج من البصرة يريدها أيضا • وطمع شبيب ان يصل اليها قبله ،

فاقتحم الحجاج خيله ، فدخلها قبل شبيب وذلك في سنة سبع وسبعين للهجرة • وتحصن الحجاج في قصر الامارة • ودخل اليها شبيب مع أمه (جهيزة) وزوجته (غزالة) عند الصباح• وكانت غزالة قد نذرت ان تدخل مسجد الكوفة فتصلي فيه ركعتين وتقرأ فيهما سورة البقرة وآل عمران ، فأتوا الجامع في سبعين رجلا ، فصلت فيه الغداة وخرجت من نذرها • وكانت معروفة بالشجاعة والفروسية • وتقاتل في الحروب بنفسها • وقد كان الحجاج هرب في بعض وقائعه مع شبيب من غزالة فعيره بعض الناس بقوله :

أسـد علـي وفي الحـروب نعـامة   فتخـاء تنفر من صفـير الصـافر
هـلا بـرزت الى غزالـة في الوغـى   بـل كـان قلبـك في جنـاحي طائـر

وكانت أمه جهيزة أيضا شجاعة تشهد الحروب • ولما عجز الحجاج عن شبيب بعث عبدالملك اليه بعساكر كثيرة من الشام ، عليها سفيان بن الابرد الكلبي ، فوصل الكوفة وخرج الحجاج أيضا فتكاثروا على شبيب ، فانهزم وقتلت زوجته غزالة وامه جهيزة • ونجا هو في فوارس من أصحابه ، واتبعه سفيان في أهل الشام ، فلحقه بالاهواز فولى شبيب ، فلما حصل على جسر (دجيل) نفر به فرسه ، وعليه الحديد الثقيل من درع ومغفر وغيرهما فالقاه في الماء • فقال بعض أصحابه : أغرقا يا أمير المؤمنين ؟ فقال : ذلك تقدير العزيز العليم فالقاه (دجيل) ميتا في ساحله فحمل على البريد الى الحجاج • روى ابن خلكان عن بعضهم قال : رأيت شبيبا وقد دخل المسجد وعليه جبة طيالسية عليها نقط من أثر المطر ، وهو طويل اشمط جعد آدم فجعل المسجد يرتج له • وكان مولده يوم عيد النحر سنة ست وعشرين للهجرة وغرق بدجيل كما تقدم سنة سبع وسبعين •

(٢) انهار العراق لابن سرابيون المعروف باسم (سهراب (٩٠٣ م — ٢٩٠ هـ) نشره في لندن لاول مرة لاسترانج الانكليزي ١٨٩٥ ، ثم نشره مثريك النمساوي في فينا سنة ١٩٣٠ ضمن كتاب عجائب الاقاليم السبعة •

(٣) وردت اللفظة هكذا في كل النسخ واظن انها محرفة عن (الفراض) التي جاء ذكرها في أخبار فتح المسلمين للعراق • والفراض جمع الفرضة وهي مرسى السفن في الانهار ، وهي ما يشبه الميناء اليوم في البحار ، وقد ذكرها الحموي (وفي كتاب الفتوح : لما قصد خالد بن الوليد رضي الله عنه بغتة بني تغلب الى الفراض ، والفراض تخوم الشام والعراق والجزيرة في شرقي الفرات • واجتمعت عليه الروم والعرب والفرس ، فاوقع بهم وقعة عظيمة • قال سيف : قتل فيها مائة الف ، ثم رجع خالد الى الحيرة لعشر بقين من ذي الحجة سنة ١٢ • قال القعقاع :

لقينـا بالفـراض جمـوع روم   وفرس غمهـا طول السـلام
أبدنا جمعهم لمـا التقينـا   وبيتنـا بجمـع بني رزام
فما فتئت جنـود السلم حتى   رأينا القوم كالغنم السوام

(٤)قبين : بضم القاف وتشديد الباء المكسورة وياء ساكنة ونون في الآخرة •

(٥) يلاحظ ان الحموي هنا يشير الى المدن والقرى التي اخذت تستقي من دجيل بعد تحول مجرى دجلة فان قسما منها كان يقع على الضفة الشرقية من المجرى القديم •

(٦) كان علي بن الجهم الشاعر المعروف يسكن هذا الشارع ، وكان قدم الشام فلما قرب من حلب خرجت عليه اللصوص وجرحوه وأخذوا ما معه وتركوه على الطريق فقال :

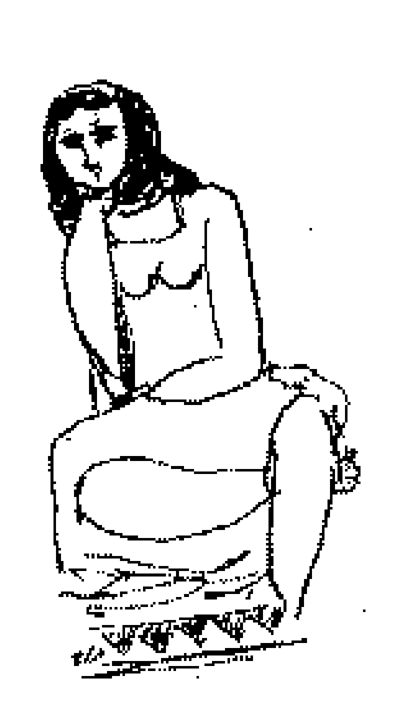
أسـال بالليـل سيـل   أم زيد في الليـل ليـل
يا أخـوتي بدجيـل   وأيـن منـي دجيـل

(٧) وكان الدكتور الفاضل أحمد سوسة قد عقد عدة فصول ضافية عن دجيل في كتبه الجليلة القدر وبالاخص (ري سامراء) ومنه استفدت كثيرا • وان أنسى لا أنسى لطف هذا المؤلف الكريم بطلب الاجتماع بي عدة مرات عند اعداده لكتابه المذكور قبل زهاء عشرين

سنة وذلك بواسطة سيدنا الحجة الشهرستاني وفي مكتبته العامرة في الكاظمية . للتثبت من مواقع مدن دجيل وقراه . وكنت آنذاك أنشر فصولا شتى عنها جعلتني عند حسن ظنه .

(٨) نهر القورج هذا من منشآت كسرى أيضا . قال ياقوت : ان كسرى لما حفر القاطول (القاطول الاعلى) أضر ذلك بأهل الاسافل وانقطع عنهم الماء حتى افتقروا وذهبت أموالهم . فخرج أهل تلك النواحي الى كسرى يتظلمون اليه مما حل بهم . فوافوه وقد خرج متنزها . فقالوا : أيها الملك انا جئنا نتظلم . فقال : ممن ؟ قالوا : منك . فثنى رجله ونزل عن دابته على الارض ، فأتاه بعض من معه بشيء يجلس عليه فأبى وقال : لا أجلس الا على الارض ، اذ أتاني قوم يتظلمون مني . ثم قال : ما مظلمتكم ؟ .. قالوا : حفرت قاطولك فخرب بلادنا وانقطع عنا الماء ففسدت مزارعنا ، وذهب معاشنا . فقال : اني آمر بسده ليعود اليكم ماؤكم . قالوا : لا نجشمك ايها الملك هذا فيفسد عليك اختيارك ، ولكن مر ان يعمل لنا مجرى من دون القاطول ، فعمل لهم مجرى بناحية القورج يجري فيه الماء . فعمرت بلادهم وحسنت حالهم .

(٩) ري سامراء (١ : ٢٢٢) .



حقائق عن العصاب والعصابيين

صلاح الدين حسن

كثر الحديث بين العامة والخاصة عن الحالة المرضيـــة المعروفـــة بالعصاب ، وكثرت الاشارة اليها عند تفسير سلوك فرد من الافراد مع اننا في الواقع قل أن نجد لديهم فكرة واضحة عن مفهوم العصاب أو تحديدا علميا صريحا لهذا النوع من المرض .. فما هو العصـــاب اذن ؟ وما هي الاسباب التي تعمل على ظهوره ؟

بدأت فكرة الامراض العصابية (النورستانيا والهستريا والقلــق المرضي) في الظهور عندما اكتشف العلامة « شاركو » في دراساته للامراض العصبية بمستشفى « سالبتريير » بباريس ، أن هناك اضطرابات نفســية لا ترجع في أساسها الى أصول تشريحية في الجهاز العصبي ، وأن سلامة الجهاز العصبي لم تحل دون قيام هذه الاضطرابات .. ومعنى هـــذا أن الامراض العصابية انما هي اضطرابات لا ترجع أصولها الى خلل في أحد أجهزة الجسم ، وانما الى اختلال « وظيفي » في الجهاز النفسي ، تظهر بوادره منذ الطفولة الاولى للفرد .

العصابي ليس مخلوقا شاذا !

لابد لنا ــ ونحن نتحدث عن العصاب والعصابيين ــ من أن ندرك الفارق بين الشخص السوى ، والشخص العصابي .. ولعل أفضل تعريف وضع للشخص السوي هو تعريف العـــلامة البريطاني « أدور كلوفر » ، الذي يقول فيه : (الشخص الســـوي يمكن أن يعرف بأنه متحرر من الاعراض المرضية ، وغـــير مثقل بالتصادم العقلي ، ولـــه قابلية مقبولة على العمـــل ، ويستطيع أن يحب انسانا آخر الى جانب حبه لنفسه) .. أما العصابي ، فيمكن أن يعـرف بأنه (الشـــخص الذي يشـــكو من مرض نفسي أو مجموعة أمراض نفسية تصاحبها احيانا مظاهر جســـمية شاذة ، ناشئة عن عوامل نفسية كالانفعالات المكبوتة والصـــدمات والصراع بين الدوافع المتناقضة) .

وفي ضوء التعريف الاخير ، يمكن القول أن الشخص العصابي يكون شاعرا بسوء حالته النفسية ، محتفظا بقواه العقلية وبمقدرته على الاستبصار والتحكيم الذهنيين فيما يعرض له من أمور ، بخلاف الشخص الذهاني (اي المصاب بمرض عقلي) الذي يفتقر الى هذه القدرات والقابليات .

ولعل القارىء يشعر أنني قد تعمدت المقارنة بين العصابي والذهاني، وهذا ما فعلته فعلا ، كي يدرك الكل أن هناك فارقا كبيرا بين العصاب والذهان .. فالواقع ان اغلب الافراد الذين أصيبوا بالعصاب ، كانوا يخشون أن يتحولوا الى مجانين بطريقة أو بأخرى .. وبعضهم كان يخشى التردد على عيادة الطبيب خوفا من أن يصدمه بهذه الحقيقة ! . وبهذه المناسبة نستطيع أن نذكر أن الخوف من الجنون عارض من أعراض المرض النفسي وليس من أعراض المرض العقلي ، فالذهاني (أي المجنون) لا يخاف من الجنون ولا يعرف للجنون مفهوما أو معنى .

ومهما يكن من أمر ، فان الشخص العصابي (اي المصاب بمرض نفسي) يفقد الكثير من طاقته في الانفعالات المتضاربة التي تصدر عنه . وكلما زادت حدة عصابيته ، ازداد تبدد طاقته وجهوده ، وهذا هو السر في أن من أبرز أعراض العصاب : ميل الانسان الى التعب بسهولة وسرعة، واستنفاذه طاقته من النشاط فيما لا يجدي من الافعال والتصرفات .

والحقيقة فان كون الانسان عصابيا ، لا يعني البتة انه غير ناضج من الناحية الانفعالية ، أو انه شاذ ومتخلف عن سواه من الناس ، وانما يعني انه يجد صعوبة كبيرة في التوفيق بين نواحي الحياة المعقدة ، نتيجة للانفعالات العنيفة التي تنتابه وتسيطر عليه .

النساء اكثر تعرضا للعصاب :

ان السؤال الذي قد يقوم الان : هل جميع الافراد سواء في التعرض للاصابة بالعصاب ؟ ..

من الواضح أن الافراد يختلفون في مدى تعرضهم للاصابة بالعصاب . فالنساء — كما تظهر الاحصائيات — اكثر تعرضا للاصابة بهذا المرض من الرجال ، وذلك لان امكان الاحتفاظ بالاتزان العاطفي والاستقرار النفسي ، أصعب على المرأة منه على الرجل ، مرد ذلك — في الغالب — أن المرأة أشد حساسية ، واكثر ميلا الى الاغراق في الخيال والتأمل الذاتي من الرجل . كذلك دلت الدراسات على ان الافراد غير المتزوجين — من الذكور والاناث على السواء — يتعرضون للاصابة بالعصاب اكثر من المتزوجين الذين يتمتعون بوجه عام — بحياة نفسية مستقرة أكثر من غيرهم .

أسباب الاصابة بالعصاب :

تدل الابحاث النفسية الحديثة على أن العصاب ينشأ في الاساس من الانفعالات المتضاربة داخل الشخصية ، كما ينشأ — أيضا — من الفشل في التوافق مع المواقف المختلفة التي تزخر بها الحياة الانسانية •

ويلعب الخوف بجميع ألوانه ، وبخاصة الخـــوف من الاتصـــال الجنسي أو من الحمل ، دورا كبيرا في الاصابة بالعصاب ، وذلك لما يسببه من قلق واضطرابات داخلية • وكذلك تساهم قلة النوم ونقص التغذيــة في الاصابة بالعصاب •

هل أنت عصابي ؟

لعل أكثر الدلائل وضوحا وخصوصا على اصابة الفرد بالعصاب ، هو الارهاق • فاذا كنت تشعر بالارهاق دائما ، دون أن تكون قد قمت بعمل مجهد ،أو اذا كثرت المناسبات التي تشعر فيها بالتعب عندما تستيقظ من نومك — مع أن الفحص الطبي يثبت أنك لا تعاني مرضا جسديا — فأنت عصابي ، لان العصاب يؤدي الى تشتيت الطاقة التي تتولد في الجسم أولا بأول •

ومن الدلائل الاخرى التي تشير الى الاصابة بالعصاب ، طريقـــة الانسان في الكلام ، فقد ثبت من الدراسات السيكولوجية أن العصـــابي يختلف عن الشخص السوي في طريقة كلامه ، اذ انه — اى العصابي — يميل الى الاسراف في الحديث عن نفسه ، فضلا عن ان كلامه يكون مبهما وغامضا في كثير من الاحيان •

طريقتك الى قهر العصاب :

ان الطب النفسي اليوم يهتم بعلاج العصاب (المرض النفسي) ، وأصحاب الميول العصابية • والواقع أن مشكلات عدم التوافق ، سواء كانت في العمل أو الزواج ، مع الاطفال أو مع من نحب ، في العلاقات الاجتماعية أو علاقات العمل •• هذه المشكلات جميعا ذات طبيعة عصابية مرضية •

ان السؤال الذي يفرض نفسه الآن : ماذا نفعل لقهر العصاب ؟ •• أو ، ما هي الوسائل الكفيلة بمعالجة هذا المرض معالجة تخفف من آثاره السيئة في النفس والبدن ؟ ••

الواقع أن الاخصائيين النفسيين يقدمون لنا ست قواعد أساسية ، يمكن أن تفيد في معالجة العصاب :

١ — لا تبحث عن دوافع الافعال وبواعثها لدى الناس •• وامتنع منذ الآن

عن التأمل في المعاني الخفية التي تكمن خلف ما يقوله النــــاس وما يفعلونه ٠

٢ ـ تجنب ـ قدر الامكان ـ التحليل الدائم لنفسك ولافكارك ، ولا تحاول أن تجسم الاسباب الكامنة وراء كل شيء تفعله ٠

٣ ـ لا تحدد لنفسك أهدافا لا تتناسب وقدراتك ، بل حاول أن تكــون اهدافك متفقة تماما مع قدراتك واستعداداتك الفطرية ٠

٤ ـ تجنب التحسر على ما فاتك من فرص ، كانت مواتية لتحسين ظرف أو اكثر من الظروف المحيطة بك ٠٠ وأفضل ما تفعله في هذا الشأن هو التمسك بالاستقامة ، والتحلي بطابع المرح والانشراح ، وعــدم أخذ النفس بالقسوة والشدة ٠

٥ ـ احذر النقص في الطعام ، سواء في الكمية أو النوع ، وخذ قســـطا كافيا من النوم ، اذ أن لهذه العوامل أهمية كبيرة في الاستقرار النفسي والعاطفي ٠

٦ ـ لا تكثر الشكوى من صعوبات الحياة ومتاعبها ٠٠ واعلم ان الحياة لا تسير وفق مطالبك دائما ، ويجب أن لا تتوقع منها ذلك ٠ ومــا دام الامر كذلك ، فالصعوبات من مستلزمات حياتك ، ولا مفر لك ـ ولغيرك من الناس ـ من مواجهتها والتغلب عليها ٠

• • •

« من مراجع البحث » :

١ ـ فرانك سي ٠ كابريو : تفسير السلوك ، ترجمة الدكتور احمد حسن الرحيم

٢ ـ الدكتور محمد خليفة بركات : عيادات العلاج النفسي

٣ ـ منير وهيبة الخازن : معجم مصطلحات علم النفس

٤ ـ برنهارت : علم النفس في الحياة العملية ، ترجمة الدكتور ابراهيــــم عبدالله محي

٥ ـ الدكتور محمد عثمان نجاتي : علم النفس في حياتنا اليومية

الى ابنة

غازي سعيد

يا زهرة نبتت بقلبي وازدهت — يرعاك فيض مشاعري وغرامي

يا بسمة قد أشرقت في مهجتي — فتلونت مـــن نورهـــا احـــلامي

انا برعم عبقات طيبك عطـره — فاذا دنـوت تفتحت اكمامـــي

قد عشت ايامي مضاعا هائمـا — احتـــار من أمــــل ومن الام

حتى التقى قلبي وقلبك صدفة — فبـــدت علـــي جديـدة أيـامي

أنا كلما خفق الفؤاد الى الهـوى — رقصت على جرح الهوى اسقامي

فيكون من جرحي لجرحي مرهما — حبي ، وانغام الاسى انغـامي

وأسير في درب المحبة ، والمنى — في أعيني ، والشوك في اقدامي

واصوغ من دمعي الضحوك اغانيا — ابدا يرددهـــا معي الوامـــي

فضعي يديك لكي نسير سوية — ويسير زورق حبنـــا بســلام

ونزيد من روحي وروحك قوة — فيهـــا نعـــزز خطونا لامــام

فعسى يعود الى حياتك طيبهـا — وعسى يعود الى الحياة حطامي

معالم الحضارة العربية الإسلامية

سليم طه التكريتي

من يغص في أعماق الحضارة العربية الاسلامية وما حققته للبشرية جمعاء من وسائل التقدم وعوامل الازدهار ، ويلم بما ابتدعه الفكر العربي الاسلامي من مفاهيم ونظريات تناولت أهم معضلات ذلك العصر ، يدهشه مدى عمق التفكير الذي بلغه العلماء العرب المسلمون ، ويتضاعف اعجابه بهذا الفيض الزاخر من الافكار العظيمة التي جاد بها الفكر العربي الاسلامي .

فلم يحدث في تاريخ الحضارات القديمة والحديثة ان تالق الفكر الحضاري ، وبلغ اوج عظمته في فترة قصيرة جدا من الزمن كالفترة التي ولد فيها الفكر العربي الاسلامي ونما وتطور وادرك معظم أسرار الحياة ، وسبر اغوار المجتمع وانظمته .

وتزداد دهشة الدارس ، ويتعاظم تمجيده لحركة التحول الكبرى الخطيرة التي اصابت المجتمع العربي في تلك الفترة القصيرة ، فيروح يتساءل حائرا : ترى أي سر هذا الذي حول عرب الصحراء الحفاة الجفاة الى اساطين للعلم ، ومشاعل للحضارة ، ومنارات للثقافة ؟ واية روح علوية هذه التي رفعت العرب من حالة البداوة التي كانوا عليها في جزيرتهم القاحلة الضنينة بكل أسباب العيش الى قادة وابطال مغاوير يفتتحون اعظم الممالك واوسعها ، ويحطمون أقوى امبراطوريتين يعرفهما العالم آنذاك، والى معلمين ومرشدين يهدون أنفسهم وغيرهم من الامم في مدارج الرقي والتقدم ، والى بناة ومنشئين عظام لحضارة انسانية سامية مجيدة هي ام الحضارة العالمية الراهنة باعتراف أعداء العرب وخصوم الاسلام قبل اصدقائهم والمعجبين بهم ؟

ليس من المعقول ان يطفر الفكر العربي الذي قيدته ظروف الحياة الآسنة اليبوس في اصقاع الجزيرة العربية الكالحة الى مثل هذه المرتبة الرفيعة من دون ان تكون له الركائز القوية التي اوصلته الى منزلته تلك ، ومن غير ان تتوفر له الينابيع التي يستقي منها أصول نمائه وتفتحه . فما هي يا ترى تلك المنابع التي استقى منها الفكر العربي الاسلامي مادة حيويته وتطوره ، وما هي الموارد التي نهل منها أسباب تكامله وتجليه ؟

يمكن تقسيم هذه المنابع أو المصادر الى ثلاثة أقسام أولها المصادر الاسلامية الاصيلة وهي التي سنقصر عليها الكلام في هذا البحث ، وثانيها ثقافات الشعوب التي دخلت في الدين الاسلامي وتغذت بلبانه ، وثالثها هو النقل عن اللغات الاخرى الى اللغة العربية .

تتمثل المنابع الاسلامية الاصيلة التي اعتمد الفكر العربي الاسلامي عليهـا في القرآن الكريم ، والاحاديث النبوية الشريفة ، وسـنة الرسول العربي العظيم .

لقد كان القرآن المجيد أول مورد استقى منه الفكر العربي أسباب تطوره ، وانفتاحه على آفاق جديدة لم يألفها الفكر ليس عند العرب وحدهم بل في جميع الامم الاخرى التي سبقتهم في التأريخ الحضاري . ذلك ان القرآن لم يكن كتاب دين يحث على العبادة والتوحيد لله ، والتقرب اليه بالصوم والصلاة حسب ، وانما كان القرآن الى جانب تأكيده على الانسان بأن يعترف بوجود اله واحد احد ابدع هذا الكون ، ووجوب عبادته وتقديم آيات الولاء له ، والالتزام بالاوامر والنواهي التي اصدرها اليـه ، كان القرآن دستورا من أعظم الدساتير الصالحة التي عرفتها البشرية في تأريخها الطويل بما تضمنه من قواعد رصينة لاقامة المجتمع الانساني الصالح ، وبما حض عليه من التأمل في الكون وما حواه من قوى وموارد ومؤثرات ، وبما حض عليه من التأمل في الكون وما حواه من قوى وموارد ومؤثرات ، الناس في دنياهم وآخرتهم .

ان اول اثر عظيم اوجده القرآن في التفكير العربي وتوسيع مداركه انه شجع على تعلم القراءة والكتابة بين العرب . فالمعروف انه عنـدما نزل الوحي بالقرآن على محمد (ص) لم يكن في قريش كلها من يعرفون القراءة والكتابة سوى سبعة عشر رجلا ، وان عدد الذين كانوا يكتبون بين الاوس والخزرج احد عشر رجلا ، وان بضع نساء من قريش كن يعرفن القراءة حسب . وقصة افتداء الاسرى الذين وقعوا في ايدي المسلمين في معركة بدر بتعليمهم عشرة أطفال القراءة والكتابة لكل واحد يريد ان يفتدى نفسه من الاسر ، هذه القصة تؤكد مدى الاهتمام الذي بذله الرسول الكريم منـذ الايام الاولى لنزول القرآن بنشر العلم والمعرفة عـن طريق تعليم الناس القراءة والكتابة .

ولقد كان أول اثر من آثار القرآن في الفكر العربي اهتمامه الواسع بالعلم ، مصدر رقي الامم ، وعنوان مجدها ، ومرآة نهضتها وحضارتها . فقد كانت عناية القرآن بالعلم تفـوق حد الوصف ، وكانت طريقتـه في الحث على العلم هي طريقـة الدعوة الى تحكيم العقـل والمنطق في مظاهر الخليقة وأحداث الماضي . قال تعـالى « ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولى الالباب » وقال أيضا « فلينظر الانسان

مم خلق خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب انه على رجعه لقادر » ٠

ووجه القرآن نظر الانسان وتفكيره الى الارض مصدر الحياة وما تنتجه من وسائل العيش فقال تعالى « فلينظر الانسان الى طعامه انا صببنا الماء صبا ثم شققنا الارض شقا فانبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة وابا متاعا لكم ولانعامكم » ٠

ويتجلى اهتمام القرآن بالعلم انه لا تكاد تخلو سورة واحدة من سوره العديدة من تكرار ذكر العلم والاشادة بفضله ودعوة الناس الى اغترافه والافادة منه ٠ فأول آية من القرآن الكريم نزلت على النبي محمد صلوات الله وسلامه عليه كانت تتحدث عن العلم وأهميته ٠ « اقرأ باسم ربك الذي خلق ٠ خلق الانسان من علق ٠ اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم ٠ علم الانسان ما لم يعلم » والحقيقة ان القرآن ردد كلمة العلم في سوره وآياته زهاء سبعمائة وخمس وستين مرة وهذا وحده يكفي لتقدير المنزلة التي رفع القرآن العلم اليها بين شؤون الحياة الدنيا ٠ والعلم الذي جاء بـه القرآن ، ودعا الى تحصيله ليس هو العلم بالشعر أو الادب أو الخطابة ، ممـا اشتهر بـه العرب قبل ظهـور الاسلام ، وانما هو العلم في مختلف قطاعاته ، وتعدد أغراضه ٠

لقد دعا القرآن المسلمين الى ان يمعنوا الفكر في هذا الكون الذي خلقه الله ليتدبروا ما فيـه من مخلوقات ، وليستغلوا ما احتـواه من موارد ، وليستكنهوا أسراره وأسباب الحياة فيه فقال تعالى « قل انظروا ماذا في السموات والارض » ، « قل سيروا في الارض فانظروا كيف بدأ الخلق » ، « فانتشروا في الارض وابتغوا من فضل الله » « سخر لكم ما في السموات والارض جميعا منه » ٠

وليس من باب التطرف أو المبالغـة ان يقـول أي مسلم اليوم ان القرآن لم يترك علما من العلوم السابقة الا احتواها ، وانه اشار في كثير من آياته الى حقـائق علمية عجيبة توصـل العلم الحديث الى بعضـها ولما يزل عاجزا عن بلوغ البعض الآخر ٠

ففي ميدان الفلك يقـرر القـرآن حقيقة علمية أكدتها الاكتشافات الحديثة مؤخرا هي حركة الشمس حول نفسها ، وحركة القمر حول الارض حيث تقول الآية الكريمة « والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ، والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ٠ لا الشمس ينبغي لها ان تدرك القمر ٠ ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون »٠

وسبق القرآن العلم في نظرية خلق الارض والكواكب قبل ان يضع العالم الفرنسي «لابلاس» «نظريته في ذلك بأكثر من أربعة عشر قرنا٠ فقال تعالى « أولم ير الذين كفروا ان السموات والارض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي » ٠ والنظرية الحديثة تقرر ان الشمس اصل الكون

وان الارض قد انفصلت عنها مثل بقيـــة الكواكب الاخرى . كذلك أكـد القرآن حقيقة تكون الجسم البشري وكل جسم حي غيره من الماء في هـذه الآية وفي آية أخرى يقول فيها « والله خلق كل دابة من ماء » حيث برهنت التجـارب العلمية الحاضـرة على ان جسم الـكائن الحي يتألف من مـادة « البروتبلازما » وهي مادة سائلة .

وفي موضوع تكوين الجنين في رحم امه سبق القرآن العلم الحديث بحوالي أربعة عشر قرنا أيضا . فالنظرية الحديثة لذلك تقول ان الجنين حين يتكون في بطن امه يكون محاطا بثلاثة أغشية صماء لا ينفذ منها الماء ولا الضوء ولا الحرارة والى هذا اشار القرآن في الآية الكريمة فقال « يخلقكم في بطون امهاتكم خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث » .

ويؤكد العلـم الحديث ان نطفـة الحيوان ، وهي الحـوين المنـوي والبويضة ، لا تختلف في بنائها الجوهري عن نطفة الانسان وفي هذا تقول الآية « وهو الذي يصوركم في الارحام كيف يشاء » و « في أي صورة ما شاء صورك » وهناك آية أخرى توضح كيفية تكون الجنين فتقول « ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما » .

وحتى احدث العلوم العصرية ومنها علم الذرة مثلا نرى في القرآن اشارات الى بعض حالات تثور في الطبيعة تشبه ذات الحالات التي يسببها الانفجار الذري والاشعاع الناجم عنـه . فقـد أكدت التجارب النووية ان الانفجار الذري يحيل البحار الى شعلة متقدة من نار . وعن هـذا قال القرآن « واذا البحار سجرت » أي اتقدت واشتعلت وعن الاشعاع الذري قال القرآن « فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين يغشى الناس . هـذا عذاب أليم » ومما يؤكد ان هذه الحالة ستقع في الدنيا وليس يوم القيامة قوله تعالى في الآية ذاتها « انا كاشفو العذاب قليلا انكم عائدون » .

ومن الحقائق التي يقررها القرآن أيضا والتي لم يستطع العلم حتى الآن اثباتها وان كان هو في طريقه اليها بفضل تقدم ابحاث الفضاء ، هي ان في الكواكب حياة اذ تقول الآية العظيمة « تسبح له السموات السبع والارض ومن فيهـن وان من شيء الا يسبح بحمـده ولـكن لا تفقهـون تسبيحهم » .

ومثل هذا شيء كثير عن حياة البشر والنبات والمطر ، فالعلم الحديث يقرر ان المطر يتكون من البخار الذي يرتفع في الجو من البحار والانهار فاذا ما صادف طبقة هواء بارد تكاثف واستحال مطرا وان السحب اذ تجتمع في الجو تكون مشحونة بشحنات كهربية ثم تبدأ عملية الالفة الـكهربية بينها اذ تأتلف السحابة التي تحمل شحنة كهربية سالبة مع أخرى ذات شحنة موجبة حيث ينجم عن ذلك اتحاد الاوكسجين بالهيدروجين اللذين يتكون منهما الماء أما البرق أو الودق الذي ينجم عن هذه الالفـة الكهربية

بين السحب فيمثل الشرارة الكهربية التي توحد الاوكسجين بالهيدروجين ويفصل القرآن هذه العملية تفصيلا بيانيا بليغا فيقول « الم تر ان الله يزجي سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله » وتقول آية أخرى « وارسلنا الرياح لواقح فانزلنا من السماء ماء فاسقيناكموه وما انتم له بخازنين » .

فالقرآن قد وجه العرب المسلمين وجهة جديدة تختلف عما كانوا عليه قبل اسلامهم انها وجهة التفكير في الاسباب والمسببات التي تحيط بالحياة الدنيا وتطوراتها ، وتنبيه عقل الانسان الى البحث والتفكير في نفسه وفيما حوله من الاشياء ، والنظر في هذا الكون الذي يعيش فيه : في أرضه وما حوته من وسائل العيش وفي السماء وما ضمنه من كواكب ونجوم واجواء فقال تعالى « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق » واوضح القرآن للانسان المجالات الواسعة التي ينبغي له ان يستغلها لممارسة نشاطه في الارض والسماء ولاستخراج كنوزهما واستثمار مواردهما والافادة مما فيهما من منافع فقال « ان الله سخر لكم ما في السموات وما في الارض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » .

ولكي يغرس القرآن في المسلمين حب العلم ، ويعزز مكانته في اعينهم ، ويدفع بهم الى ورود مناهله الكثيرة ، جعل العلماء في منزلة واحدة مع الملائكة في التوحيد والعدل في الاحكام فقال « شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة قائما بالقسط » . كذلك أكد القرآن انه حوى علوم المتقدمين وسائر العلوم المعروفة في العصر الذي نزل فيه فقال تعالى « ما فرطنا في الكتاب من شيء » .

ولم يفرض القرآن تعاليمه بالقسر أو الاكراه على الناس وانما أباح لهم حرية التبصر والتحري عن حقائق الدين الجديد والايمان به عن عقيدة خالصة فخاطب رسوله الكريم قائلا « فذكر انما انت مذكر لست عليهم بمسيطر » ، « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » وفي هذا تكمن حيوية الاسلام كدستور يبيح للافراد حرية الرأي والمناقشة مما وسع على المسلمين مدارك عقولهم وطور آفاق تفكيرهم .

وعاد القرآن الى المجتمع البشري فوضع الدعائم الكبرى التي يقوم عليها وهي التوحيد لله ، وكفالة الحريات والاخذ بحكم الجماعة ، والتقليل من الفوارق الطبقية ، وحدد العلاقات فيما بينها .

لقد كانت المساواة والتكافل الاجتماعي وحرية الرأي وصيانة الاسرة من الركائز الاساسية التي وضعها القرآن للمجتمع . فقد اختار الشورى نظاما للحكم ، وهو حكم الجماعة الذي يعد من اصلح انظمة الحكم الجمهوري واقومها وفي هذه تتمثل الحرية الفكرية في مشاورة الجماعة لبعضها البعض في أمور الناس جميعا ، وتقبل الرأي الصائب بعد المناقشة والتمحيص فقال تعالى « وشاورهم في الامر » ، « وامرهم شورى بينهم » .

وفي ميدان الاقتصاد حرم القرآن الربا وحارب الاحتكار وجعل للمستضعفين حقا في أموال الاغنياء فقال تعالى « وفي أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » .

اما المساواة بين البشر فتمثلها الآية الكريمة التي تقول « يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم » .

وحض القرآن على تقويم السلوك الانساني والاهتمام بما ينفع الناس ويؤدي الى تعاونهم وترابطهم بحيث يصبحون جسما واحدا فالاقتصار على العبادة وحدها لا يحقق الاهداف السامية التي نادى بها القرآن . فلابد من الاهتمام أيضا بأمور الدنيا وطرائق الحياة فيها فقال تعالى « ليس البر ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين واتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » .

ورفع القرآن من شأن العقل ونوه بسلطانه ودعا الناس الى طلب الرقي والتعرف الى أحوال الامم وطبائعها فقال عن الذين لا يستخدمون حواسهم في النظر والتامل بأنهم اشبه بالانعام « لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالانعام بل هم أضل اولئك هم الغافلون » وقال أيضا « افلم يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » .

* * *

وتأتي الاحاديث النبوية بعد القرآن الكريم في اعتبارها من المنابع العربية الاصيلة للفكر العربي الاسلامي . وهذه الاحاديث جاءت مفسرة لكثير من الآيات القرآنية أو مؤكدة لها وهي — كالقرآن الكريم أيضا — قد تضمنت الكثير من الحقائق العلمية التي اثبتها العلم الحديث أخيرا . ومن هذه الحقائق التي أشار اليها الرسول في بعض أحاديثه عن كيفية تخلق الجنين في الرحم فقد قال (ص) « اذا مر بالنطفة اثنان واربعون ليلة بعث الله ملكا فصورها وخلق سمعها وبصرها ولحمها وعظامها » وفي هذا أكدت التجارب الطبية ان الجنين لا يتخلق قبل مرور اثنين واربعين يوما من امتزاج الحوين المنوي بالبويضة ففي الاسبوع السادس تكون معالم الجنين قد أخذت تتحدد ، وتبدأ المواد الغضروفية التي تتكون منها تتكلس وتتحول الى عظام .

ومن الحقائق الاخرى التي ذكرها الرسول حديثه عن الذباب فقد قال « اذا وقع الذباب في شراب أحدكم فليغمسه فيه لينزعه فان في أحد جناحيه داء وفي الآخر دواء » .

وقد دار جدل طويل حول هذا الحديث وعده البعض غير صحيح لكن الاكتشافات العلمية قد أثبتت ان الذباب وان كان ينقل بعض الجراثيم بملامسته لها الا انه في الوقت ذاته يأكل معظم تلك الجراثيم التي تتحول في فمه الى مادة بكتيرية مبيدة للجراثيم ذاتها يطلق عليها اسم « بكتريوفاج » فاذا ما دخلت مادة البكتريوفاج هذه جسم الانسان قضت على الجراثيم فيه ، وقد افردت المجلة الطبية البريطانية الشهيرة « المبضع Lancet » في احد اعدادها لسنة ١٩٢٧ فصلا مسهبا كما ذكرها الخبير البريطاني بشؤون الهيضة الدكتور دريل في تقرير له عن الكوليرا في الهند سنة ١٩٢٧ اوضح فيه ان مادة البكتريوفاج التي كانت ينفثها الذباب كان لها تاثيرها في تخفيف وطأة ذلك المرض .

وقد حثت أحاديث الرسول ـ كالقرآن ـ على طلب العلم والتبصر فيه والدعوة الى تقديس العقل فقال صلى الله عليه وسلم « أول ما خلق الله العقل ولم يخلق أفضل منه » وقال « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » وقال « اطلب العلم فطلب العلم في سبيل الله ، والحديث به ثناء على الله ، والسعي لتحصيله عبادة ، وتعليمه زكاة » وقال « تفكر ساعة في خلق الله وصنعه أفضل من الصلاة سبعين مرة » ، « من جلس ساعة ليسمع درسا في العلم والمعرفة أكرم ممن وقف الف ليلة مصليا » .

ومما يدل على اهتمام الرسول بالعلم والعلماء وتفضيلهم حتى على المصلين ما رواه عبدالله بن عمر (رض) حيث قال ان رسول الله دخل المسجد ذات مرة فاذا به يرى فيه مجلسين احدهما يذكر الحاضرون فيه الله والثاني كان من فيه يتفقهون فقال رسول الله « كلا المجلسين على خير وأحدهما أحب الي من صاحبه . اما هؤلاء فيذكرون الله تعالى ويسالونه فان شاء أعطاهم وان شاء منعهم . واما المجلس الآخر فيتعلمون الفقه ويعلمون الجاهل وانما بعثت معلما » ثم جلس صلوات الله عليه وسلامه الى اهل الفقه .

وكان الحديث ـ كالقرآن الكريم ـ يدعو الى العمل بالعلم والاستفادة منه في الحياة . روى معاذ بن جبل ان رسول الله قال « لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع خصال : عن عمره فيم افناه ، وعن شبابه فيم أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، وعن علمه ماذا عمل فيه » .

وروى أبو هريرة ان الرسول قال « اللهم اعوذ بك من الاربع : من علم لا ينفع ، ومن قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع ، ومن دعاء لا يسمع » .

وتتسم أحاديث الرسول أيضا بالحض على مكارم الاخلاق وضبط النفس ، والابتعاد عن المظالم ، وتجنب المفاسد ، وتحبيب الحياة الى الذين شغلتهم شواغل العيش وما يستتبعها من الهم والقلق فهو يقول في احد أحاديثه « ابن آدم ! عندك ما يكفيك وأنت تطلب ما يطغيك . لا بقليل

تقنع ، ولا من كثير تشبع • اذا أصبحت معافى في جسدك ، آمنا في سربك ، عندك قوت يومك ، فعلى الدنيا العفاء » وفي حديث قدسي « وعزتي وجلالي لانتقمن من الظالم في عاجله وآجله ، ولانتقمن ممن رأى مظلوما فقدر أن ينصره فلم يفعل » ••

وقال الرسول محببا الدنيا الى الناس ، والسعي لها قدر سعيهم في سبيل الآخرة « صم وأفطر ، ونم وقم ، فان لجسدك عليك حقا ، وان لعينيك عليك حقا ، وان لزوجك عليك حقا ، وان لولدك عليك حقا » •

وحث الرسول على حسن المعاملة حتى مع الاعداء • فقال في هذا « اوحى الله الى ابراهيم : يا خليلي حسن خلقك ولو مع الكفار تدخل مداخل الابرار ، فان كلمتي سبقت لمن حسن خلقه ان أظله في عرشي ، وان أسكنه حظيرة نفسي ، وان ادنيه من جواري » •

وكرر الرسول الاحاديث عن المساواة فقال « الناس سواسية كأسنان المشط » وقال أيضا منددا بسياسة التمييز « ايها الناس انما أهلك من كان قبلكم انهم كانوا اذا سرق فيهم الشريف تركوه ، واذا سرق الضعيف طبقوا عليه الحد • والله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطع محمد يدها » •

* * *

ومن المنابع العربية للفكر العربي الاسلامي أيضا الاجماع وهو اتفاق الفقهاء المجتهدين في وقت من الاوقات على اصدار حكم في قضية تستجد وليس لها حكم في القرآن أو في الاحاديث النبوية • والقرآن والاحاديث الشريفة تنص كلها على ضرورة الالتزام بأمر الجماعة ، وعدم الخروج عليها ومنها قوله (ص) « لا تجتمع أمتي على الضلالة » •

ومن الاحكام التي أقرها الاجماع توريث الجد سدس مال المتوفى مع وجود الابن عند عدم وجود الاب • والاجماع نوعان قولي وهو الذي يكون باتفاق صريح وتداول في الرأي بين العلماء ، وسكوتي وهو أن يفتي أحد العلماء بحكم فلا يعترض على حكمه بقية العلماء بعد اطلاعهم عليه •

* * *

ان الدين الاسلامي ، الذي عماده القرآن وأحاديث النبي وسننه واجماع الفقهاء فيه ، مدنية شاملة حافلة بكل معاني الحياة العقلية والثقافية والادبية •

ذلك ان القرآن لم يكن كتاب دين حسب بل كان مصدرا ومرجعا لنحو هو مدنية كاملة شاملة حافلة بكل معاني الحياة العقلية والثقافية والادبية
ذلك ان القرآن لم يكن كتاب دين حسب بل كان مصدرا ومرجعا لنحو
ثلاثمائة علم من علوم الشرع واللغة والادب والتأريخ والفلك والاقتصاد

والطبيعة والفلسفة والحياة وغيرها مما نشأ بعضه عن القرآن ذاته ومما استنبطه العلماء من نصوصه وآياته ٠

ومما يزيد من أهمية القرآن والحديث كموارد عربية صافية للفكر العربي الاسلامي ان الاسلام هو الدين الوحيد الذي جعل من المساجد والجوامع أماكن للعبادة ولنشر العلوم أيضا فقد كانت هذه المساجد والجوامع تستخدم لاجتماع العلماء والمناظرة فيما بينهم فيها ٠ كما اتخذها فقهاء التفسير والحديث مقرا لهم وكذلك اتخذت هذه المساجد مجالس للقضاة ومدارس لتعليم الناس القراءة والكتابة وأصول اللغة والدين فيها ٠

قال جورج برناردشو الكاتب والفيلسوف الانكليزي الشهير « الاسلام دين الدمقراطية ، وحرية الفكر ، ودين البيع والشراء وفوق ذلك فهو دين الجنتلمان » ٠

وقال العالم الفرنسي « ليون روش » لقد وجدت في الاسلام حل المسألتين اللتين تشغلان العالم طرا : الاولى قوله تعالى « انما المؤمنون اخوة » والثانية فرض الزكاة على كل ذي مال وتخويل الفقراء حق أخذها من الاغنياء ٠

وقال المؤرخ الانكليزي الشهير ادوارد جيبون « ان القرآن معترف به من حدود محيط الاطلسي الى نهر الكنج بأنه الدستور الاساسي الذي يشتمل على أصول الدين من جهة وعلى الاحكام الجنائية والمدنية والتشريعية والاجتماعية التي تقوم عليها حياة الانسان وترتيب شؤونه من جهة أخرى » ٠

وقال العالم الالماني الرياضي سخاو « ان القرآن كان عاملا مهما في رفع مستوى المسلمين وتوجيههم الى دراسة العلم وخدمة الفكر ٠ فالقرآن هو الحافز الذي دفع المسلمين الى اوربا ليكونوا فيها سادة وملوكا ، وليرفعوا منار الانسانية ٠٠٠ وبدافع من القرآن رفع المسلمون لواء الحكمة ، وخدموا العلم والمعرفة ، وأحيوا علوم السابقين ٠

●

المصادر

1. Islam Belief and Practices

By A.S. Tritton

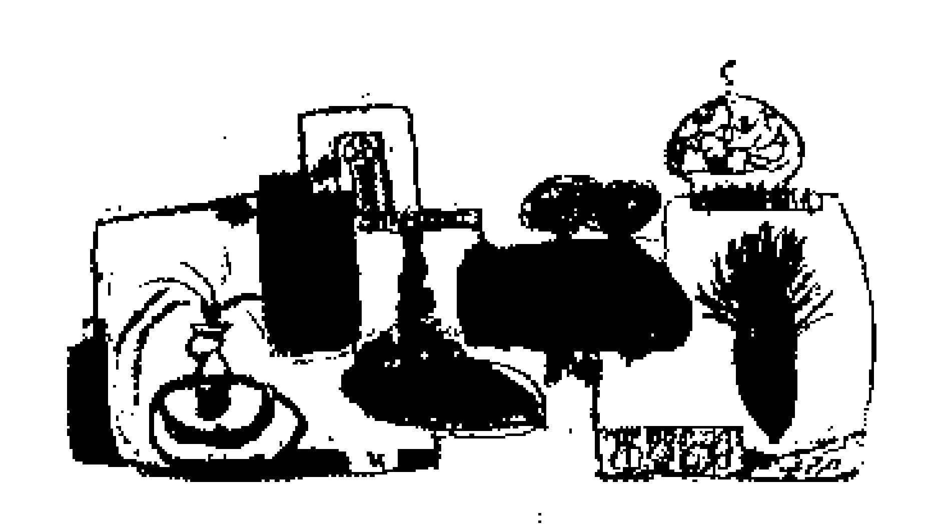
2. The Living thought of the Prophet Muhammad

By Muhammed Ali

3. The Economics of Islam

By Nasir A. Sheikh

٤ ـ تاريخ فلاسفة الاسلام — محمد لطفي جمعه
٥ ـ الفكر الاسلامي — تأليف م. م. شريف ترجمه الدكتور احمد شلبي
٦ ـ المسلمون والعلم الحديث — تأليف عبدالرزاق نوفل
٧ ـ بين العلم والدين — تأليف عبدالرزاق نوفل
٨ ـ القرآن والعلوم العصرية — تأليف عبدالحليم علي بدير الأزهري
٩ ـ حضارة العرب — مصطفى الرافعي
١٠ـ تاريخ العرب والاسلام — الدكتور عبداللطيف الطيباوي



كتب الشهر

المدارس الشرابية ببغداد وواسط ومكة

تاليف ـ ناجي معروف
٤٠٧ صفحات من القطع الكبير
مطبعة الارشاد ـ بغداد

• ان هذا الكتاب يبحث في حياة شخصية لامعة من شخصيات العراق في اواخر الدولة العباسية ، هي شخصية أبي الفضائل شرف الدولة اقبال الشرابي الذي كان له أثر فعال في تسيير شؤون الخلافة العباسية في عهد الخليفتين العباسيين الاخرين : المستنصر بالله وابنه المستعصم بالله •

لقد كان اقبال الشرابي مقدم الجيوش العباسية على عهدهما • وقد دافع التتار وحاربهم خلال ربع قرن من الزمن • ولم يتجرأ المغول على احتلال بغداد وتدميرها الا بعد وفاته بنحو ثلاث سنوات •

وكان هذا الشرابي في الوقت نفسه ، محبا للعلم وأهله مقربا للعلماء ، ولذلك انشأ في العراق مدرستين كبيرتين للشافعية • الاولى ببغداد والثانية بواسط • كما انشأ مدرسة ثالثة للشافعية في الحجاز بمكة المكرمة • وكان يحب الافعال الخيرية ولذلك انشأ بواسط جامعا وبمكة رباطا ، وبركا وحياض للماء • وعني بوجه خاص بعين عرفة لينتفع بها الحجاج •

وكانت له غير ذلك ، آثار حسنة ، ومبرات دارة ، وأعمال خيرية ، وهبات وخلع ورسوم يفرقها على الناس •

ويقول الاستاذ المؤلف في مقدمة الكتاب « وقد حاولت في هذا البحث ان استخلص صورة واضحة عن العصر الذي عاش فيه اقبال الشرابي • وان اشرح نفوذ كلمة المماليك ، والغرباء في الدولة العباسية ، لاستجلي الاسباب التي أودت بالخلافة العباسية وأدت الى سقوط بغداد ونكبتها الدامية المؤلمة وزوال حضارتها التي بلغت حد الاشباع في كل ناحية من نواحي الحياة » •

والكتاب في خمسة ابواب تناول الباب الاول مصادر تاريخ الشرابي ومدارسه وعصره وسيرته ونفوذ كلمته وحياته العسكرية واعماله الخيرية •

وخصص الكاتب البابين الثاني والثالث للبحث في شرابية بغداد والمدارس البغدادية الاخرى وافرد الباب الرابع للمدرسة الشرابية بواسط

والمدارس الواسطية والباب الخامس للبحث في المدرسة الشرابية بمكة المكرمة والمدارس المكية ٠

وقد زود الكتاب بالخرائط والتصاوير والمخططات والفهارس المفصلة وبمقدمة عن مصادر البحث في المدارس الاسلامية ٠

الوجيز في قانون العمل

(الجزء الاول)

للدكتور شاب توما منصور
٣٢٠ صفحة من القطع الكبير
مطبعة شركة الطبع والنشر الاهلية ــ بغداد

« لقد اصبح من المسلم به ان نجاح المؤسسة الصناعية او التجارية او الزراعية لا يتوقف على الحصول على المواد الخام ورأس المال والآلات الحديثة فحسب بل يتوقف ايضا على ما يسمى الان (بالعوامل الاخرى) ٠ ومن اهم هذه العوامل الاخرى العنصر البشري ، ولهذا اصبح للعلوم الانسانية دور مهم في استخدام القوى الانسانية لصالح صاحب العمل والعامل والمجتمع ، ولا ادل على ذلك من ان الآلات المتشابهة في المصانع المختلفة لا تنتج انتاجا متشابها من حيث الكم او من حيث الكيف وسبب ذلك يرجع الى تلك العوامل الاخرى « الانسانية » ٠

ومن العلوم الانسانية التي يركن اليها لتحقيق ما تقدم هو قانون العمل ذلك ان كل ظاهرة انسانية تعكس مظهرا قانونيا يستحق التأمل والبحث ٠ وقانون العمل يعكس ما طرأ من تحول في العالم نتيجة دخولنا العصر الآلي ٠ وكان من نتيجة هذا التحول ان سادت العالم فكرتان رئيستان ربما كانتا متعارضتين : زيادة في الانتاج ودفاع مضطرد عن الحقوق الفردية والجماعية للعمال ٠ ويهدف قانون العمل ، فيما يهدف اليه ، الى التوفيق بين هاتين الفكرتين ٠

والكتاب يقدم في القسم الاول منه مدخلا لدراسة قانون العمل ويتناول القسم الثاني التنظيم الاجتماعي للعمل ولكل قسم منه عدة ابواب كما ان لكل باب جملة فصول في استقصاء جوانب البحث ٠

تنظيم الادعاء العام وواجباته

بحث في الفرنسية للعلامة جان كرافن
تعريب الدكتور ـ حمودي الجاسم
٨٨ صفحة من القطع الكبير
مطبعة الارشاد ـ بغداد

« يوجد الادعاء العام في كل قطر لحماية الحق العام ومهما يكن الاسم الذي يطلق عليه ، نيابة عامة ، وكالة الهيئة الاجتماعية ، ممثل المجتمع ، فان الواجبات التي ينبغي القيام بها هي هي لا تتبدل في حقيقتها . وهذه الواجبات تتجه لتحقيق الغاية منها وهي « حماية الحق العام » .. واذا كنا نسلم بأن الحق مصلحة يحميها القانون ، وان هذه المصلحة هي عامة ، نستطيع ان ندرك بأن الادعاء العام عليه ان يقوم بوظائفه بالطريقة التي تؤمن حماية المصالح العائدة الى الحكام والمحكومين على حد سواء . وما من شك في ان سبل الحماية ووسائلها عديدة واهمها الاشراف على تطبيق احكام القوانين ، خاصة القوانين الجزائية والقوانين المدنية ذات العلاقة الوثيقة بالمصالح الداخلة في الحماية ، تطبيقا يستجيب تماما لفكرة العدالة ويؤدي الى الاطمئنان وتقدم البلاد وازدهار الحياة فيها » .

وفي هذا البحث الذى وضعه العلامة (جان كرافن) رئيس جامعة جنيف ورئيس محكمة التمييز فيها وترجمة الدكتور حمودى الجاسم نائب المدعي العام المعارة خدماته الى الكلية الجامعة ببغداد دراسة مركزة لجوانب موضوع الادعاء العام تناولت في عناوين رئيسة (فكرة عامة عن النظام والادعاء العام في دولة الاتحاد والادعاء العام في المقاطعات وحق الادعاء العام في الدعوى العامة وحق الادعاء العام بتقديم الطعون المختلفة) .

وقد الحق المترجم البحث بمقترحات حول الموضوع سبق ان قدمها الى لجنة لائحة قانون الادعاء العام عام ١٩٦١ والى المدعى العام عام ١٩٦٤ .

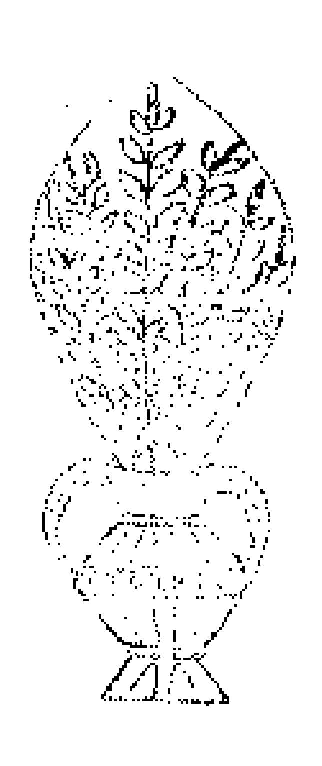
دراسات في علم النفس

تأليف ـ دحسام الكيالى
١٦٠ صفحة من القطع الكبير
مطبعة الارشاد ـ بغداد

مجموعة دراسات في علم النفس وفروعه المختلفة وصفها المؤلف

في ثمانية فصول تناولت (نمو لغة الطفل والفروق الجنسية واضواء نفسية على التربية الجسمية والقلق والتفكك العائلي وأثره على نفسية الطفـــل السوي والشاذ والشخصية وبكترف والفعل المنعكس) .

وقد رجا المؤلف لهذه الدراسات في مقدمة كتابه (ان تكون حافزا على اجراء دراسات علمية تجريبية مماثلة في بلادنا ، وعلى ابنائها في هذا الفرع الحيوي من فروع المعرفة لنكون على بينة من العوامل المؤثرة فينا ولنواكب سير الحضارة في العالم .



النتاج الجديد

عدي بن زيد العبادي وديوانه ...

نوري حمودي القيسي

قال العماد الاصفهاني : اني رأيت أنه لايكتب انسان كتابا في يومه الا قال في غده : لو غير هذا لكان أحسن ، ولو زيد كذا لكان يستحسن ، ولو قدم هذا لكان أفضل ، ولو ترك هذا لكان أجمل ، وهذا من أعظم العبر ، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر .

تشرف وزارة الثقافة والارشاد في الجمهورية العراقية على عملية جليلة في ميدان الثقافة ، تكشف فيها عن آثارنا الادبية العريقة ، وتحيي كنوزا دفينة من تراثنا الاصيل ، وذلك عن طريق نشر هذه الآثار والكنوز ضمن سلسلة كتب التراث ، متحملة من أجل ذلك جهودا مادية ومعنوية مضنية ، لاخراج هذا التراث ، وجعله في متناول أيدي الدارسين والمهتمين بشؤون الادب ، وهي عملية تستحق عليها التقدير والشكر ، وتستاهل الثناء والاعتزاز .

وديوان عدي بن زيد العبادي ، الذي اضطلعت بنشره وزارة الثقافة، هو الكتاب الثاني الذي ينشر في هذه السلسلة ، وقد قام بجمعه وتحقيقه الاستاذ محمد جبار المعيبد ، وللمحقق مقدمة عرف فيها بالشاعر ، ولخص حياته واسرته وثقافته وشعره ، ثم عرض لخبر الديوان ، وتتبع اخباره ، مبتدأ من ابن النديم (٣٨٥) ، ومنتهيا بالبغدادي (١٠٩٣) ، وبعدها اشار الى نسخ الديوان ، والطريقة التي اتبعها في التحقيق ، مختتما ذلك كله بكلمة أخيرة ، بسط فيها جهده وطاقته واقدامه واقتناعه بنشر هذا الديوان على الرغم من وجود نسخة واحدة لاتصلح للنشر(١) .

ويضم الديوان الى جانب هذه المقدمة التي استغرقت خمسا وعشرين صفحة ، النصوص الشعرية (٣١-١١٠) ثم الذيل (١١١-١٩٠) فالشعر

(١) مقدمة الديوان/٢٥ .

المنسوب لعدي ولغيره من الشعراء (١٩١ـ٢٠٥) فتخريج قصائد الديوان (٢٠٧ـ٢٢٣) ، وأخيرا مراجع التحقيق (٢٢٥ـ٢٢٩) .

أما الفهارس فقد استنفدت ستا وسبعين صفحة ، وزعت هذه الصفحات بين فهارس القوافي والاعلام والبلدان والمواضع والقبائل والحيوان والكلمات الاعجمية ، ثم فهرس اللغة ، ثم المستدرك الذي استدرك به على تخريج أبيات الديوان ، ولا تفوتني ، وأنا أعرض للديوان ، الاشارة الى الاهداء الذي افتتح به المحقق الديوان ، فقدم هذه الجهود والثمرات الى أساتذته في كلية الآداب ، وهذا يدل على اعتراف السيد المحقق بجميل هذه الكلية عليه ، ونبله في رد ذلك الجميل بهذا العمل الذي يستحق التقدير ؛ فالديوان بهذا الشكل يدل على جهود كبيرة ، وتتبع عميق ، واستقصاء شامل ، يحمل كل قارىء على اكبار العمل والثناء عليه ، وهو صورة طيبة في عالم التحقيق ، الذي يتصدى له الشباب الواعي في هذه الفترة التي غلب فيها طابع السرعة والتجارة والاعلان .

تأتي أهمية نشر هذا الديوان من أهمية الشاعر نفسه ، وخاصة في الدراسة الادبية القديمة ، لانه ـ الى جانب الدواوين الجاهلية الاخرى ـ يوضح بعض الجوانب التي لا زالت مفتقرة الى الكشف ، ويلقي كثيرا من الاضواء على الاحداث التي أثيرت في تلك الفترة ، لعلاقة هذا الشاعر بولاة الامور الذين يسيرون الاحداث في تلك المنطقة ، وفق ما تقتضيه أهواؤهم ، وتمليه ر رغباتهم ، وترتضيه مصالحهم ، ويعتبر ديوان عدي من الدواوين التي تمخضت عنها الحركة الشعرية القديمة بما احتواه من أفكار ، أظهر فيها هذا الشاعر رغبته في فهم كثير من الحقائق التي كانت تسود أذهان الناس خلال الفترة التي عاش فيها ، فآمن واعتقد ببعضها ، وسلم تسليما كليا بالبعض الآخر . باعتبارها حقائق ثابتة لا تتغير ، الى جانب هذا فشعر عدي نموذج بارز ومثال حي من الامثلة الشعرية التي تتجلى فيها آثار الحضارة المتمثلة في امتزاج العقلية البدوية بالتفكير الحضري ، لان اتصاله بأمم مختلفة ، وامتزاجه بحضارات متعددة ، دفعه الى وصف كل مظهر مرموق . وتعظيم كل بادرة بارزة ، بما تهيأ له من الوسائل ، وتمكن عليه من الاساليب وهو بالتالي يمثل ـ في موضوع الخمريات ـ السياق المطرد من التقدم الفني لهذا الغرض ، ويعتبر الرائد الاصلي الذي مهد له بما قدمه من صور ونماذج أصبحت مثالا يحتذى ، وتقليدا يسلك ، ونماذج يسار عليها . أما قصائده التي نظمها في السجن ـ والتي تشكل مجموعة كبيرة ـ والتي يستعطف فيها ، فكانت صورا طيبة للمشاعر التي تخالجه ، والآلام الناجمة عن طول هذا الليل الذي أطبق عليه فعاش فيه .

واذا كانت هناك بعض الملاحظات التي وقفت عندها وأنا اقرأ الديوان ، لعلاقته بعملي ، واتصاله بالبحث الذي أعده عنه وعن (عدي بن

زيد بن الرقاع العاملي) ـ الذي جمعت شعره وأنا في سبيل الانتهاء منه ، فان ذلك لا يقلل من قيمةالكتاب ، اذ لم يكن الغرض منها الا تشويق القارئ لمطالعة هذا العمل المنظم وتوجيهه للاستفادة منه ، وسوف اقصرها على الامور الآتية :

١ ـ المقـــدمة :

تتمثل أهمية عدي بن زيد في جوانب كثيرة ، ولم تقتصر أهميته على ناحية واحدة ، فهو شاعر يستشهد له النحويون بنماذج يؤيدون فيها وجهة نظرهم ، ويتمثل بابياته اللغويون لتفضيل رأي على آخر ويعتمد عليه أصحاب المعاجم لتفسير بعض الكلمات ، ويتخذ من أبياته المؤرخون أدلة للبرهنة على الوقائع ويذكره الجغرافيون وأصحاب كتب البلدان في مجالات أحاديثهم المتعددة ، ونظرة واحدة الى مراجع التحقيق التي أعتمد عليها المحقق الفاضل تدلنا على الثقة التي يتمتع بها هذا الشاعر والمنزلة الرفيعة التي حاز عليها عند هؤلاء ، فلا بد اذن ـ بعد كل هذا ـ من أن تكون لهذه الثقة من دلالة تعكس لنا تقييم هؤلاء لشعره واظهار سمات ذلك والدواعي التي حملت هذه الطوائف على الاستشهاد بهذا الشعر .

وعدي بن زيد يمثل اتجاها واضحا في الشعر الجاهلي يختلف فيه عن بقية الشعراء ، لتأثره ببيئة الحيرة الواضح . وفي الالفاظ الفارسية التي (اغتنى) بها هذا الشعر ، الا ان هذه الرقة والسهولة ، وان كنا نلمح فيها رقة الحضارة ـ كما يذكر المحقق[٢] لا نراها تبتعد كل البعد عن صور البادية ، وعن الروح العربية التي امتاز بها شعراء العرب الجاهليون واظن في هذا شيئا من المغالاة اذا ما رجعنا الى الديوان . لان المحقق نفسه ذكر في الصفحة وقبل أسطر « ان الدكتور طه حسين يحاول أن يبين ان السهولة التي أمتاز بها شعر عدي ثغرة يستطيع فيها المؤرخ ان يحكم على أنتحال شعر عدي ، وذلك لان هذه السهولة لا تلائم العصر الجاهلي ، وبذلك يحاول الدكتور ان ينفي اثر بيئة الحيرة وديوان كسرى الذي عاش فيه عدي ، وجولاته في بلاد الروم واتقانه اللغة الفارسية ، كل هذا يحاول الدكتور نسيانه ويضع عديا موضع أي شاعر جاهلي عاش وسط جزيرة العرب[٣] .

وعدي بن زيد بعد هذا يختلف عن بقية الشعراء في (الاغراض الشعرية) و (المعاني) و (الظـواهر العروضية) ، وهذا ما حمل النقاد القدامى ـ قبل طه حسين ـ على التعرض له ، والدعوة لعدم الاخذ بشعره ، والشك في كثير منه ، حتى أصبح العلماء لا يرون شعره حجة ، ولا يروونه

(٢) مقدمة الديوان / ١٧ .

(٣) مقدمة الديوان / ١٧ .

لان الفاظه ليست بنجدية . وكان يودي ان يتعرض المحقق الى ذلك في مقدمته التي كرسها لدراسة حياة الشاعر وثقافته ، ليدفع عن صاحب الديوان – ان وجد ما يدفع به – هذه المآخذ .

لقد وقف المحقق عند بعض احكام القدامى في شعر عدي ، ولكن وقوفه كان قليلا ، ومناقشته لهم كانت سريعة فلم يتعرض الى رأي ابن سلام الذي قال فيه ان لعدي أربع قصائد غرر روائع مبرزات ، وله بعدهن شعر حسن(٤) ثم يقول : سمعت يونس وقد تمثل بهذا البيت :

ايها الشامت المعير بالدهر أأنت المبرأ الموفور

فقال : لو تمنيت ان أقول شعراً ما تمنيت الا هذه ، أو مثل هذه(٥).

وللجاحظ في عدي بن زيد رأي يماثل رأي ابن سلام لم يتطرق اليه المحقق ، فهو في نظره أحد من حمل على شعره الحمل الكثير ، ولاهل الحيرة بشعره عناية ، ثم يذكر ان ابا زيد النحوي قال : لو تمنيت ان أقول الشعر ما قلت الا شعر عدي بن زيد(٦) .

وزعم ابو حاتم ان عديا لم يكن له بصر بالخيل ، وخطئ عدي في ذلك . وللاصمعي رأي يخطيء فيه عدي بن زيد ، ويتهمه بانه لم يكن له علم بالخيل(٧) ، وكان بالامكان مناقشة ذلك على ضوء القصائد التي قالها عدي بن زيد في أوصاف الخيل ، والتي لم يكن فيها أقل قدرة ممن عرف بنعتها ووصفها ، وقد ثبت له (ابو عبيدة) معمر بن المثنى مجموعة من الابيات في كتاب الخيل ، وهذا دليل واضح على تمكنه من خوض هذا المجال ، والقول فيه ، ومجاراة الشعراء الذين عرفوا بهذا الاتجاه .

وذكر ابو عبيدة عن ابي عمرو بن العلاء ان عدي بن زيد في الشعراء بمنزلةسهيل في النجوم ، يعارضها ولا يجري مجاريها(٨) . وفي شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد تعقيب على بعض قصائد عدي يقول فيه : « قد اتفق الناس على أن هذه الابيات احسن ما قيل من القريض في هذا المعنى ، وان الشعراء كلهم اخذوا منها ، واحتذوا في هذا المعنى حذوها(٩) .

ولغير هؤلاء من النقاد والرواة والمؤرخين اراء أخرى تطول وتتشعب ، وكنت آمل ان يقف عند بعضها ، المحقق الفاضل ، يناقشها ، ويحدد على ضوئها حقيقة عدي ، فينفي ما كان منها باطلا ، ويؤيد ما كان منها حقيقة ، لانه عاش مع عدي فترة طويلة لم تتهيء لغيره ، فادرك الجوانب الفنية التي

---

(٤) ابن سلام – طبقات فحول الشعراء /١١٧ .
(٥) المصدر نفسه /١١٨ .
(٦) الجاحظ - الحيوان ١٤٩/٧ .
(٧) ابن قتيبة ، أدب الكاتب (ليدن)/١٣٨ .
(٨) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء (بيروت) ١٥٤/١ والموشح /٧٢ .
(٩) ابن أبي الحديد - شرح نهج البلاغة (بيروت)/٦٨٠ .

عرضت له في شعره ٠

وعلى ضوء هذه الدراسات النقدية المبسطة المعتمدة على التتبع والاستقصاء يمكن ان تتضح لنا جوانب لا زالت مبهمة في شعر هذا الشاعر ، وتنكشف أمور نحن أحوج ما نكون اليها في الدراسات الجاهلية التي لاتزال تحتاج الى كثير من التعمق في نواحي كثيرة ٠٠٠

ب ـ الضبط والشكل والاخطاء

سأحاول في هذا القسم ان اشير الى بعض الاخطاء التي وقعت في الديوان، واقف عند بعض العبارات التي لم تضبط ولم تشكل ، أو العبارات التي ضبطت أو شكلت فجاءت مخالفة لما هو واقع ، وسأقتصر في ذلك على بعض النماذج ٠

١ ــ صفحة ٣٦ س٣

وخطة ماجد كلفت نفسي   اذا ضاقوا رحبت بهم ذراعا

وصواب الشطر الثاني :   اذا ضاقوا رحبت بها ذراعا

لان الضمير يعود على الخطة وهي مفردة ولا يستقيم المعنى اذا جعلنا عودته على ضمير ضاقوا ٠

٢ ــ صفحة ٤٧ س ٤

بعد بني تبع نخاورة (بالجر) ٠ وصوابها :
بعد بني تبع نخاورة بنصب نخاورة على الحال من بني تبع ٠

٣ ــ صفحة ٤٧ هامش ١٧

ياقوت : صبت عليه داهية   من ثغرة شديدة ٠٠٠
وصوابها من ياقوت ٢/٢٨٤
صبت عليه داهية   شديدة ايد مناكبها

٤ ــ صفحة ٥٨ س٢

كيف ترجو رد المغيض واقدا   حرز قدحيك في بياض الشمال

وفي الهامش ٠٠٠ كذا في الاصل غير مستقيم الوزن ٠

وصواب البيت مذكور في اللسان مادة (شمل) ومع ذلك فقد أهمله المحقق وهو :

كيف ترجو رد المفيض وقد   أخر قدحيك في بياض الشمال

٥ ــ صفحة ٦١ هامش ١٥

مجاز القرآن :   فاسمع حملفي ٠٠٠ بابيل

وصوابها : فاسمع حلفي ... بابيل
كما مذكور في مجاز القرآن ولا يمكن اعتبار ذلك من خطأ الطبع لعدم وجود التصويب في الجدول الملحق .

٦ ـ صفحة ٦٣ (في التعليق) وقد نسبها البغدادي في خزانته الى ابنه سواده بن عدي .

والصواب ان البغدادي ١/١٨٣ لم ينسب القصيدة الى سوادة وانما قال : [وهذا البيت من قصيدة لعدي بن زيد ، وقيل لابنه سوادة بن عدي ، والصحيح الاول] وهذا تأكيد لنسبة البيت لعدي ، وليس لابنه سواده كما وهم المحقق .

٧ ـ صفحة ٧٥ س٣

خذلت منه العراقي (بضم الخاء) . وصوابها خذلت (بفتح الخاء) كما هو موجود في اصلاح المنطق واللسان مادة خذل .

٨ ـ صفحة ٧٥ هامش ١٩ :

اصلاح المنطق : خذلت . وصوابها في اصلاح المنطق فهي ... خذلت وفي الهامش نفسه اللسان : فهي ... والصواب : فهو .

٩ ـ صفحة ٧٩ شرح ١٤

الانوق : النسر . ولا أعلم المصدر الذي اعتمد عليه في ذلك ، لان الانوق ليس النسر ، وانما هو الرخمة ، والرخمة اعظم من الغراب واشد . (حيوان الجاحظ ٣/٥٠٤ ، ٥٢١) .

١٠ ـ صفحة ١٠٠ س ٢

تقضم الهندي (بكسر الضاد) والصواب تقضم بفتحها اللسان مادة قضم .

١١ ـ صفحة ١٢٧ س ٢

عن مبرقات بالبرين وتبدو بالاكف اللامعات سور والبيت كما موجود في اللسان :

عن مبرقات بالبرين تبدو وبالاكف .... بحذف الواو التي تسبق الفعل تبدو ، ولكن المحقق لم يشر الى هذا الاختلاف مع انه أثبت اللسان في مراجع تخريج هذا البيت .

١٢ ـ صفحة ١٢٨ قطعة[٤٩]

فاض مثل العهون من الروض ومماضن بالأخساذ غدر

وعليها تصحيح في جدول الخطأ والصواب ، وكلاهما مغاير لما هو

موجود في الفائق ١٧/١ واللسان مادة (أخذ) ، فالبيت في كليهما مروي على الوجه الآتي :

فاض فيه مثل العهون من الروض وما ضن بالأخاذ غدر

١٣ـ صفحة ١٣١ قطعة [٥٨]

ولقد عديت دو سرة كعلاة العين مذكارا

والبيت كما هو مذكور في اغلب المصادر التي أشار اليها في تخريج البيت :

ولقد عديت دوسرة كعلاة القين مذكارا

وهناك ملاحظات اخرى آثرت الاشارة اليها فقط(١٠) • اما الاخطاء التي وقعت في وفيات مؤلفي الكتب التي أثبتت في مراجع التحقيق ونسبة الكتب فاذكر منها • أبو علي القالي ٣٥٦ بدل ٣٥٠ البلاذري ٢٧٩ بدل ٣٧٩، الزمخشري في ذكر كتاب الفائق ٥٣٨ بدل ٥٨٣ ، ابن خرداذبه في حدود سنة ٣٠٠ بدل تثبيت ٢٨٠ ، المرزباني ٣٨٤ بدل ٣٧٨ ، وفي نسبة كتاب نهاية الارب يصبح النويري بدل القلقشندي الذي نسب اليه الكتاب خطأ •

ج ـ التخريج :

تعتبر عملية تخريج الابيات بالنسبة لتحقيق الدواوين من اشق العمليات التي تواجه المحقق ، لانها تقوم على الاستقصاء والتتبع والمراجعة لكثير من الكتب والدواوين والمظان ، وفي مختلف الفنون الادبية ، والذي يتطلع الى قائمة المراجع التي رجع اليها محقق الديوان ، والتي جاوزت المائتين عدا ، يدرك عظم المشقة وصعوبة الجهد المبذول في ذلك ، ولكن بعض الهنات التي سأعرض لها لا تقلل باي حال من الاحوال من عظم هذا العمل ، وهي هنات يقع فيهـا كل انسان يعمل ، لان الكمال في العمل لن يكتب الا لله وحده تبارك وتعالى ، وسأقف عند بعضها ، تاركا البعض الآخر لمن يقف عليها ، وسوف لا تخرج ملاحظاتي على اضافة بعض المراجع لتخريج بعض الابيات التي وردت في الديوان ، علما بان بعض هذه المراجع موجود ضمن قائمة مراجع الكتاب ، ولكنها لم تذكر في التخريج ، مع انها تودي النصوص مخالفة لما هو مثبت في النص أو مذكور في الهامش •

١ ـ صفحة ٤٥ القطعة [٥]

البيت الاول •• ذكر صاحب الخزانة ٢١/٢ (بولاق)

---

(١٠) انظر الديوان/١٣١س٢ ، ١٤٩س٢ ، ١٦٦س٣ ، س٦ ، ١٧٧ قطعة ١٢٨ ، ١٨٥ قطعة ١٤٠ ١٩٠/الشرح •

لم ار مثل الاقوام ٠٠٠٠   وذكر ٥٦١/٢ (بولاق)
لم ار مثل الفتيان ٠٠٠٠
وذكر البيت الرابع ٢١/٢ :
فما ترجى النفـوس ٠٠٠
وكل هذه الروايات مخالفة لرواية الديوان ولكن لم يشر اليهـا في الهامش ولا في تخريج الابيات ٠٠

٢ ــ صفحة ٤٧ هامش ١٣

يضاف اليه المعرب ٠ والبيت مروي فيه برواية مخالفة ٠٠٠
وصفحة ٤٧ هامش ١٧ يضاف اليه البدء والتاريخ ١٥٨/٣ لنفس السبب ٠
وصفحة ٤٧ هامش ١٨ يضاف اليه البدء والتاريخ ١٥٨/٣ ويـاقوت ٢٨٤/٢ للسبب نفسه ٠ وكذلك في صفحة ٤٨ هامش ٢٢ يضاف البدء والتاريخ ١٥٨/٣

٣ ــ صفحة ٥٠ هامش ٦

يضاف اليه اللسان مادة جنح ، والبيت فيه مروي برفع احور ٠

٤ ــ صفحة ٥٣ هامش ٢٣ يضاف الى التخريج اللسان مادة لسن ٠
وهامش ٢٥ يضاف اليه ياقوت ٨٦٦/١ ، وهامش ٢٦ يضاف ياقوت ٨٦٦/١ ٠

٥ ــ صفحة ٥٧ س ٢

البيت في اللسان مادة (مجل) مروي مع اختلاف ولم يشر الى ذلك ، والهامش ١٢ في اللسان مادة (تحم) مخالف لرواية الديوان ايضا

٦ ــ صفحة ٦١ هامش ١٥

البيت مروي في اللسان مادة (ابل) ، وفي الخزانة ٣١/١ ، ٢٤١/٣ بروايات مخالفة لرواية الديوان ٠٠ والهامش خلو منها ٠

٧ ــ صفحة ٦٢ هامش ٢٤

البيت مروي في اللسان مادة كون ولم يشر الى ذلك بالتخريج ٠

٨ ــ صفحة ٦٤ ــ هامش ١٠ ، ١١

البيتان مرويان في الخزانة ١٨٢/٣ برواية مخالفة ٠

٩ ــ صفحة ٦٦ س ٨

البيت في الخزانة ١٨٤/١ ، ولم يشر في التخريج الى هذا الخلاف ٠

١٠ـ صفحة ٦٩ هامش ٤

رواية البيت في اضداد الانباري ٢٦٢ تشابه رواية الغفران واللسان ولم يشر اليها ، مع ان الكتاب مذكور في مراجع التحقيق .

١١ـ صفحة ٧٣ هامش ٤

يضاف الى الهامش : وفي التشبيهات : بين مجناهن توشيم الحمم .

١٢ـ صفحة ٧٦ هامش ١

اللسان : في فلق الصبح . ولم يشر الى ذلك .
وفي اللسان مادة (وهق) .. اما تستفيق ولم يذكر هذا الخلاف في الهامش
ويضاف الى الهامش نفسه الخزانة ٤/١٣٠ .
ويضاف الى الهامش (٢) (٣) الحماسة البصرية ٢/١٩٢
وتضاف الخزانة ٤/١٣٠ الى الهامش (٣)

١٣ـ صفحة ٧٧ هامش ٦ يضاف اليه الخزانة ٤/١٣٠
وهامش ٧ يضاف اليه الحماسة البصرية ٢/١٩٦
والخزانة ٤/١٣٠

١٤ـ صفحة ٧٨ هامش (١٣) يضاف اليه الخزانة ٤/١٣٠
وكذلك تضاف الخزانة الى الهامش (١٤) و(١٥)

١٥ـ صفحة ٧٩ هامش (١٩) يضاف اليه الخزانة ٤/١٣٠

وبالنسبة لتخريج أبيات القطعة فان صاحب الحماسة البصرية ذكر الابيات (١) (٢) (٣) (٦) (٧) (١٣) (١٤) (١٥) (١٦) (١٩) في الجزء الثاني ١٩٦ والابيات (١) (٢) (٣) (٦) (٧) (١٣) (١٤) (١٩) مع الخبر في الخزانة ٤/١٣٠ وانظر الابيات في العقد ٣/١٨٤ والمرتضى ١/٩٠ ولبعضها انظر درة الغواص ١١١ .

١٦ـ صفحة ٨٢ هامش (٣) يضاف اليه الخزانة ٤/٤٣
١٧ـ صفحة ٨٤ هامش (١) يضاف اليه اللسان مادة (من) .
١٨ـ صفحة ٨٧ هامش (٢٢) يضاف اليه البدء والتاريخ ٣/٢٠١
١٩ـ صفحة ٨٨ هامش (٢٦) يضاف اليه البدء والتاريخ ٣/٢٠١
٢٠ـ صفحة ٨٩ هامش (٢٧) يضاف اليه شرح نهج البلاغة ٣/٦٨١

اما بقية صفحات الديوان فسوف اترك الحديث عنها ، مكتفيا بهذا القدر من الاشارات لان ادراجها في مثل هذه القائمة يستنفذ عددا طويلا من السطور ، مما يحمل القارىء على الملل والضجر .

ولابد لي وانا اتحدث عن تخريج الابيات من الاشارة الى بعض الامور التي وجدتها في طريقة الاعتماد على المصادر وترتيب ذلك والترجيح بين الاراء

المتضاربة · فقد وجدت الخلط واضحا بين اسماء الكتب واسماء المؤلفين في كثير من هوامش التخريج ، ففي صفحة (٣٤) مثلا نجد في الهوامش : اليعقوبي،ثم محاضرات الادباء ثم الزينة فاليعقوبي وبعد النقائض واخيرا اليعقوبي · وفي صفحة (٣٧) نجد المجمل ثم الاغاني فياقوت وبعدها شيخو وبالتالي الاساس والابدال · وفي صفحة(٦٧) نجد البخلاء ثم ياقوت واللسان والتاج وبعد ذلك ياقوت واخيرا البكري · ويكاد هذا المسلك يكون الخط العام الذي اتبع ، وكنت أرى – أو ان البحث يقتضي – ان يسلك في مثل هذه الاحوال مسلك واحد ، يعتمد فيها اما على الكتاب أو المؤلف ، او الكتاب والمؤلف معا ، ليأخذ المنهج المعتمد عليه طريقا واحدا ·

اما الملاحظة الثانية ، فهي تخص ترتيب المصادر المعتمد عليها ترتيبا زمنيا ، واظن ذلك قد أصبح من بديهيات البحث العلمي · وفي هذه الحالة لا يجوز تقديم المصدر المتأخر على المتقدم ، لان في ذلك مخالفة للمنهج المتعارف عليه · ففي صفحة (١٣١) القطعة (٥٨) نجد تخريجها على الوجه الآتي :

اللسان والتاج م/دس · المجمل ٣/ذكر · عيار الشعر ٩٧ ، الموشح، مقاييس ٣٥٨/٢ ، ٣٥٢/٤ ·

ونحن نعلم ان مؤلف اللسان توفي سنة ٧١١ ومؤلف التاج ١٢٠٥ وصاحب المجمل ، والمقاييس ٣٩٥ ، ومؤلف عيار الشعر ٣٢٢ ، وصاحب الموشح ٣٨٤ ·

وفي مثل هذه الحالة نجد الطفرات الزمنية التي تعلق في ذهن القارىء وهو ينظر الى هذه المراجع متباعدة · فمن القرن الثامن الى القرن الثالث عشر وبعدها الى الربع الاخير من القرن الرابع ثم الربع الاول منه واخيرا الربع الاخير ايضا · وتكاد تصبح هذه المفارقات سمة تميز مراجع التخرج في كثير من قطع الديوان (١١) ·

وكان الاولى ان ترتب هذه المراجع ترتيبا زمنيا يكفل للقارىء سلسلة التتبع والتدرج لها ، سيما وان المحقق قد ثبت في مراجع التحقيق معظم سنوات الوفاة لاصحاب هذه المراجع ·

اما الترجيح بين الآراء ، فانني اظن ان للمحقق رأيا في تثبيت النصوص التي يراها صائبة ويعتبر التفضيل بين هذه الاراء من واجبات المحقق الاساسية ، ولا سيما اذا كان الصواب واضحا والترجيح بينا · والذي وجدته في الديوان انه يكاد يكون خلوا من ذلك في كثير من المواضع التي تحتاج الى مثل هذه المهمة · ففي صفحة (٨٣) **وعلى سبيل المثال نجد** البيت السادس مرويا على الوجه الآتي :

ثم اضحـــــوا اخنع الدهـــــر بهـــم وكـــذاك الدهر يودي بالجبال

---

(١١) انظر الديوان صفحة/١٣٦ قطعة (٦٩) و ١٤٠ قطعة (٧٤) و ١٤٢ قطعة (٧٥) وصفحة ١٤٣ قطعة (٧٦و ١٤٥ قطعة (٨٠) و١٤٧ قطعة (٨٦) و ١٤٨ قطعة (٨٧) و ١٤٩ قطعة (٩٠) و١٥٠ قطعة (٩٢) وهكذا ····

وفي الهامش يشير المحقق الى ان البيت في أمالي المرتضى والمجازات النبوية ونهج البلاغة يودي بالرجال ، علما بان البيت الثاني في القصيدة يتضمن عبارة (صم الجبال) وهذا يعني ان الشاعر لحقه (الايطاء) في ذكر القافية . وان الدهر لايودي بالجبال وانما يودي بالرجال وهذا اقرب الى الصواب . وفي مثل هذه الحالة كان يجب ان يرجح (الرجال) ويشار في الهامش الى ذكر النص ويشار اليه بالعبارة التي تبرر الترجيح .

وفي صفحة (٨٩) نجد البيت مرويا في الوجه الاتي :

سره ماله وكثرة ما يملك والبحر معرضا والسدير

علما بان المحقق اثبت في الهامش اثنتي عشرة رواية روت البيت (سره حاله) وهو اقرب الى المعنى ، لان الرواية الاولى فيها تكرار يخل بالمعنى (١٢) .

د ـ ابيات لعدي لم تذكر في الديوان :

من الصعوبات التي تواجه الدواوين التي لم ترو ، الالمام بجميع ماتناثر في الكتب من ابيات الشاعر المراد جمع ديوانه ، وتلك من أشق المهام التي يصادفها المحقق في عمله ، ومن النوادر الفريدة ان يجمع ديوان ، يلم بكل ما قاله الشاعر . ولكن الذي حملني على ذكر هذه الابيات هو ان المحقق كان قد استقصى (اللسان) و (التاج) واشار اليهما في كثير من تخريج ابيات الديوان ، ولابد أن تكون هذه الابيات قد فلتت منه ، وهو ينوء بتقليب هذه الصفحات العديدة من هذه المعاجم الثمينة ، المحشوة بالنفائس والدرر والذخائر ، فوددت ادراجها ، ليضع يده عليها ، ويضيفها الى الديوان ـ اذا رغب في ذلك ـ في طبعاته القادمة ، ولابد ان تقع بين يديه ابيات أخرى ، لان هذا كما اسلفت كفيل بالتتبع والالمام والمراجعة ..

البيت الاول مذكور في اللسان والتاج مادة/فيج .

١ ـ أم كيف جزت فيوجا حولهم حرس
ومربضا بابه بالشك صرار

البيت الثاني مذكور في اللسان والتاج مادة/عنف .

٢ ـ أنشأت تطلب الذي ضيعته   في عنفوان شبابك المترجرج

البيت الثالث مذكور في اللسان والتاج مادة/وسق .

٣ ـ وندامى لا يبخلون بمانسا   لوا ولا يعسرون عبدالوساق

(١٢) انظر على سبيل المثال الديوان/٦٥ البيت الخامس عشر (صوله والزئيرا) والمرجح صوته .. والسديوان /٦٩ .. البيت الرابع . (يصطادك الطير) . والمرجح (تصطادك) وصفحة/٨٢ البيت الاول (قرن زوال) والمرجح (قرب زوال) وصفحة/٨٨ البيت الخامس والعشرون (وخلله) والمرجح (جلله) .

البيت الرابع منسوب في اللسان الى عدي مادة/مها وفي التاج مادة/مها منسوب الى عدي بن الرقاع .

٤ ـ هـم يستجيبـون للـداعي ويكـرههم
حـد الخميـس ويسـتمهون في البهـم

البيت الخامس منسوب في اساس البلاغة/٨٦ .

٥ ـ واذا اسـتقبل اتـلاب منيفـة
وهـل الصـدر مفرغـة تيـسارا

وبعد ، فقد يكون هناك من الهنات ما نظلم المحقق ان آخذناه عليها ، الى جانب مابذله من جهد في هذه العملية ، ولم يكن رائدي من هذه الملاحظات ـ كما اسلفت ـ الا تشويق القارىء لمطالعة هذا العمل المنظم ، وانها لم تقف حائلا دون اعتبار هذه المحاولة من المحاولات الرائدة في تطبيق المنهج العلمي الـدقيق في تحقيق الشعر ، وهي محاولة صعبة حتى على من يتمرس بها .

الاشجار تموت واقفة

بقلم : عبدالامير جعفر

منذ أكثر من سبعة عشر عاما مرت على وقوع النكبة وما تلاها من تشريد واغتصاب الوطن السليب ، وما تخللها من موجات الجراد المهاجرة لتحل في فلسطين ، منذ تلك السنة والقرب تتطلع الى الحلم الكبير الذي يتوخى استعادة الحقوق المهضومة ، وارجاع هذه الاكداس من قوافل اللاجئين ، ولا نريد أن نعود الى ماقام به أبناء النكبة قبل هذا العام من المحاولات التي باءت جميعها بالفشل في الثورات والاضطرابات ... شعب يخوض غمار الحـرب بضراوة وبسالة دفاعا عن أرضه ووطنه ، وايقاف التسلل اليهودي ، وشذاذ استماتوا في القتال لنيل مآربهم بالأمل الذي داعبهم أولا ، والتخلص من حروب الابادة التي شنتها المعسكرات الالمانية النازية آنذاك ثانيا .

ثم تدخل الجيش العربي وتدخلت ضده وضد آمال العروبة في استعادة الوطن السليب كل قوى الاستعمار واسفرت المعركة عن المجازر الوحشية في دير ياسين وبئر السبع وغيرها .

وهكذا فقد اللاجئون أغلى ما يفتدى بالدماء .. الوطن .

انتهت الحرب وخسر الشعب وطنه وربح الخيبة والضيـاع ، ولم

يبق لديهم الا الامل وراء الوعود المقطوعة ، ولم يبق الا وضع بداية لنهاية أليمة وفي انتظار معركة التراب من جديد ، وأخذ القلق يتسرب الى نفوس المشردين في العراء .

وبدت للشعب الفلسطيني خاصة والشعب العربي مجموعه النتيجة بأنها خدعة استعمارية وأحبولة سياسية مشتركة ، أورثتهم مورد الفشل ازاء القضية الفلسطينية ، وكان رد الفعل شاهدا على الاستعمار والرجعية المحلية ، بقيام الثورات والانتصارات الوطنية في مصر وسوريا والعراق والجزائر واليمن وخروج القواعد الاستعمارية من البلاد العربية وما أعقبها من أعمال تمخضت عن مؤتمرات القمة العربي وقرارها بشأن القضية الفلسطينية بارجاعها من أيدي المغتصبين اليهود من قبل الفلسطينيين أنفسهم مع مساعدة الحكومات العربية ومعاضدتها لها . وهكذا أصبح الوهم حقيقة واقعة ، والحلم الذي ظل في قرارة الاوهام ، ولاكته خيالات اللاجئين طوال السنين التي مرت بعد النكبة ، شيئا لابد من تحقيقه بمجرد النهوض بالاعباء المترتبة عليهم أولا ، باعتبارهم ابناء النكبة واصحاب الحقوق المشروعة بالمطالبة والثأر ، وكانت اللبنة الاولى التي وضعت في طريق العودة هي المنظمات الوطنية لجيش التحرير الفلسطيني ...

ان كل هذه الظروف المأساوية التي عاشها العربي اللاجىء ، وهي تسير من سيء الى أسوأ ، ومن فقدان البيت الكبير الذي احتضنه وعاش في كنفه ، الى الاوضاع الرهيبة التي مرت على عوائل النكبة والى افتقاد الأخ لاخيه الذي مات بلا قبر ، والاب الحاني لابنته العذراء التي قتلت بايدي الفجار ... كل هذه الظروف تركت ظلالا كثيفة على الأدب ، لا لأنه المعبر الوحيد عن جيل القلق والضياع فحسب ، بل لان الادب انعكاس لحياة ما بعد النكبة عاشها العربي الفلسطيني في معسكرات التسول ومخيمات اللجوء ، كما أنه التأسي لما فات ولم يمت ، والامل المرجى في اليوم الآتي .. وقد بدأت المرحلة الادبية لابناء فلسطين خاصة في الاعوام التي تلت وقوع النكبة .. وكانت مجرد حوادث تسرد وحكايات تكتب ممزوجة بالالم مع اقتفاء منحى القدماء في التعبير عن مأساتهم الفردية ، ثم أخذت بالتطور في الشكل والتعبير على أيدي شعراء وكتاب عالجوا القضية ويكفي أن نذكر الشعراء فدوى طوقان وكمال ناصر وأبا سلمى ويوسف الخطيب من الشعراء ، وحليم بركات وسميرة عزام من الكتاب ، لنرى مدى تاثير النكبة على أبناء النكبة ، غير أنها بقيت كما بدأته أولا بالندب والصراخ والحزن لأنه ابتعد عن أرضه ومهوى ذكرياته ، كما انها محض ذكريات لحدائق الزيتون ، وبيادر النجوم في يافا ، وانفعالات عن الواقع الفاسد الذي تعيشه العوائل المشردة في الخيام وانتظار البطل الجبار الذي سيثار من أعدائه لاكداس المشردين الجياع .

* * *

في غمرة الانعزالية والقلق وما اتسم به أدب النكبة من جلجلة وانفعالات فردية دونما فلسفة القضية ، ودون هذه النكبة ذاتها . يطلع علينا الشاعر الفلسطيني معين توفيق بسيسو بمجموعته الشعرية الثانية « الاشجار تموت واقفة » وهي وان لم تختلف تماما عن الاسلوب التعبيري الذي طالعنا به في « فلسطين في القلب » فانها تختلف عن اسلوب الشعراء الذين عالجوا القضية دون الوصول الى مستوى النكبة أمثال صلاح عبد الصبور ونزار قباني في (قصة راشيل) ورشيد سليم الخوري ، على ان الاسلوب الجديد لمعالجة هذه القضية يسيطر على كافة قصائد المجموعة الجديدة ، وهذا يذكرنا بالسياب والبياتي وخليل حاوي في الاسلوب الحديث للقصيدة الحديثة ..

وقد قدم مجموعته الشعرية هذه بثلاث كراسات ، وأول ما يطالعنا في كراسته الاولى ، الوجه الجديد للشجرة ، والحفاة الذين راحوا يطالبون برأس القيصر ، والاله الـذي أبى أن يسلك دربين ويطرق الابواب مستجديا :

كالـه من غير يدين
تتبعنـي يا وطنـي وغراب البين(٢)

الوطن الذي ظل منذ اللحظة الاولى للنكبة كالسيف الذي لا يضاجع غمدين ، وهذا يذكرنا بالصرخة المأساوية التي أطلقها ، وهو يرى الرايات تعود منتصرة في البلدان الاخرى :

كـل السرايات المنفية عـادت
يا وطنـي
الا رايتـك المنفيـة من أفـق
ترتحل الى أفـق
في سـوق لصـوص السرايات
ترتحل بـلا ثمن(٣)

واذا ما نظر الشاعر ورأى بالعين التي تبصر ، ان لكل ما في الوجود ، من انسان وحيوان مأوى يحميه من الغوائل والطواريء ، ولكل الناس في الارض وطن ، يصرخ ملء جوارحه الممزقة وقد أعياه الألم والامل الخابي :

ايـه يا قـافلة السبي لقـد طال السـفر
سقط الظـل على الظـل ، وضيعت الأثـر
ودليلي قتلته الريح ، القته على البئر حجر(٤)

ولنعد الى الواقع الممزق الذي عاشه أبناء النكبـة حتى مطلع العام الثامن عشر على ضياع الارض المقدسة لنجـد كل المقاييس قد تغيرت :

الفرسان تحتجب خلف الدروع ، والذئاب نجوم تنسور الطريق في ليل دامس ويستجير بها الضعفاء الأذلاء ، وحيث أصبح درع الفارس المقتول جحرا للثعالب .. والمطالبة بالحقوق جريمة والسكوت عنها جريمة ، ولايجد الشاعر وسيلة لارضاء شهوة القيصر المسلط على الرقاب الا التلهات باوزانه من قصر الى قصر .. وحيث سكت العود واحترق العنقود وشدت على الكلاب السروج وحيث :

كل من قد شده النخـــاس من وحل الضـــفائر
كـــل من لطـــخ بالحبر الاظـــافر
كل من لم يعرف الخيل ولا الليل وبيداء المخاطر
جاءنا يركب صـــهوات القصـــائد(٥)

وفي الوجه السادس للقمر الذي كان يبيع وجهه في كل ليلة بخنجر وشمعة يقول :

كتبت عـن طيـــورنا المهـــاجره
وقلت ليس للسرياح ذاكـــره
كتبت عن اشـــجارنا التي تمـــوت
وهـــي واقفـــه
هــذا الشـــتاء دقت الاجـراس
لــم تمر عاصـــفه(٦)

وحينما تتعرى الحقيقة وتطير الاقنعة عن الوجوه الكالحة ، تصـــهل الكلاب حول هودج ملك الرماد بعد عودته من غزواته في أرض واق واق ، ينبعث صوت من اعماق الذات المتطلعة الى الامل ، الذي ظل طوال سبعة عشر عاما وهما سرابيا خادعا ، وحيث لا حر فينسلخ ولا برد يقض المضاجع فيمنعنا من اقتحام حرب تعيد الحق وتردع الغي الذي عاث في الارض فسادا ودمارا :

الثلــج ذاب
لم هذه الابواق تستلقي ..
على الاسوار يملأها الذباب
شدوا السروج على الكلاب(٧)

فلينتصر الرشد من أجل البؤساء والمعذبين ، ولتحترق العنقاء ألف مرة من أجل الحياة ، ولتنتحر الدروب في بطاقة المرور المزيفة عبر الحدود ولتثمر هذه السيوف للشعب اللاجيء لا للخليفة القعيد والولاة .
ولكن من سيطمع في الاياب وقميص عثمان ما زال الحجـــة المبررة لولاية آخـــر وما زال في كل سارية قميص خافـــق وفم مهرج على بوق

معاد .. وحينما يستيقظ أهل الكهف ليجدوا رمما من خشب وبسوقا من حجر ، والفرسان في هاوية الشرك الذي نصب في دروب الضباع ، وحين لا دليل في زحمة الريح ولا حشرجة صوت يغني في السبي نرى يافا في بطن الحوت :

من ذا يعلق في رقـــاب
هذي الذئـــاب السود ..
أجراسا ويطمع في الايـــاب(٨)

وهل يطمع اللاجيء في العودة مع من سلبه الدار والوطن ؟ وهل يعود مع من يمثلهم معين بقوله :

رأيته في كربلاء تحت راية الحســـين
صهيل سيفه مـــع الحسين
وفوق سيفه قصيدة منقوشة
في مدح قاتل الحسين(٩)

ولكن ما زال في العنقود حبه ، وفي العارض قطرة من المطر ، وسترى السماء بين العمائم واللحى عند القطاف :

ما زال في المصبـــاح
شـــهقة من الزبـــد
من قـــال طير الرخ عاقر ؟
وهذه الامواج لن تلد ؟» (١٠)

وهكذا يظل الصوت المأساوي الحزين الى جانب الرفض والتعبير عن الوضع الرهيب الذي يعيشه جيل القلق والضياع ، باسلوب جديد في معالجة قضية النكبة مستعينا بالاسطورة العربية حينا « العراق ، طير الرخ ، صخرة العذاب ، العنقاء ، شهريار وشهرزاد » الى جانب الاحداث التاريخية أحيانا .. « بلاط دبشليم ومقتل ابن المقفع ، الحجاج والفيلسوف الاخرس ، يونس في بطن الحوت ، سر سليمان والخاتم ، أهل الكهف .. الخ .. » حتى تكاد لا تجد قصيدة من قصائد المجموعة خالية من الاسطورة أو الحكاية أو الحدث التاريخي رمزا أو استشهادا على ان الغلو في مثل هذه الرموز لا تضفي على القصيدة العربية شيئا أفضل من الولوج الى موضوع القصيدة والافصاح بموضوعية موضوع القصيدة ، وهذا لا يعني لومي للشاعر على استعمال الرمز أو الحكاية ، فالاصل في الشعر أن يخلق في الانسان اسطورة(١١) ولكني أرثي للشاعر اسفافه في هذه الهالة من الغموض في الرمز .

ولفت انتباهي لتغيير بعض فقرات وعناوين من قصـائده المنشورة سابقا في الصحف والمجلات العربية ..

ففي قصيدة « الهودج والكلاب » المنشورة سابقا بعنوان « مسيلمة الكذاب » ورد ما يلي :

صرخوا وقد سـرقوا القطـوف لـــه
وغشوا الخمر ... وابتلعوا السيوف
صقر المنابر .. ناطح الكلمـــات
أبرع من مشى فوق الدفوق(١٢)

وقد نشرت هكذا ... وابتلعوا الدفوف ... أبرع من مشـــى فوق السيوف ولا أدري اذ كان ابتلاع السيف أو الدفوف أمرا سيان عند الشاعر كما حذف هذا الشطر في المجموعة :

وشدوا على كفيه طير الرخ
مفرود الجناح(١٣)

وأخيرا فالشاعر معين توفيق بسيسو هو الشاعر القادر على أن يحيل العقم في ماديات الحياة خصوبة وثراء ، حينما أعاد النظر في موقف الشاعر الحديث بشجاعة مستلهما التاريخ الذي روي ، ومقـررا أن الشعر كلـــه أعجب مأساة في هذا العصر .(١٤)

(*) المقال بحث وتعليق تقدى حول المجموعة الشعرية « الاشجار تموت واقفة » للشاعر الفلسطيني معين بسيسو منشورات دار الآداب ١٠٨ صفحة من القطع الصغير .

(١) أعلن رؤساء الحكومات العربية اثناء دخول الجيش العربي في فلسطين « بانها نزهة قصيرة للجيش تؤدب فيها العصابات الصهيونية وتمسحها من الوجود » .

(٢) الوجه الآخر للشجرة ص ٧ .

(٣) ديوان « فلسطين في القلب » للشاعر نفسه .

(٤) العنادليب في البئر ص ١٥ .

(٥) الشعر وخصيان السلاطين ص ٨٢ .

(٦) القمر ذو الوجوه السبعة ص٩٣ .

(٧) الهودج والكلاب ص ٦٨ .

(٨) يافا في بطن الحوت ص ١٩ .

(٩) القمر ذو الوجوه السبعة ص ٩٣ .

(١٠) مصباح علاء الدين ص ٣٩ .

(١١) ما الادب ـ جان بول سارتر .

(١٢) الآداب ، حزيران ١٩٦٥ .

(١٣) الحجاج والفيلسوف الاخرس ص ٥٩ .

(١٤) أحمد كمال زكي ، الآداب ، تموز ١٩٦٥ .

آراء وتعقيبات

ايضاح

بقلم : يونس احمد السامرائي

جاء في باب النتاج الجديد من مجلة الاقلام ، نقد للسيد خليل ابراهيم العطية لديوان الصاحب بن عباد ، تحقيق الشيخ محمد حسين آل ياسين ، أشار فيه الى عدة ملاحظات ومآخذ على الديوان المذكور ، ومن تلك الملاحظات قوله : « تلك ملاحظة ، واخرى انني الفيت الخوانساري صاحب (روضات الجنات) أورد في ترجمة ابي اسحق ابراهيم بن محمد الثقفي الاصبهاني استطرادا بعد الكلام على (أصبهان) الابيات التالية :

قصور كالكواكب لامعـــات يكدن (يضئن) للساري الظلاما
وبر مثـــل بـرد الوشي فيــه جنى الحوذان ينشــر والخزامى
غرائب من فنون (النبت) فيهـا جنـى الزهـر الفرادى والتؤامـا
(تضاحكها) الضحى طورا ، وطورا عليها الغيث ينسـجم انسجامـا

موردا اياها (لابن عباد) دون تقييد ، الامر الذي يدفع الذهن الى شاعرين او اكثر : أولهما الصاحب والثاني : المعتمد بن عباد – ولا أدري ان كان الشيخ حقق في نسبتها اليه بخاصة وان روضات الجنات من مراجـع التحقيق – وربما كانت الابيات السابقة للصاحب فكان الاولى ادراجهـا في المستدرك والاشارة في الهامش الى الشك في نسبتها – ان كانت اليه ، علما ان لدى الصاحب مقطوعـة وردت في المستدرك يتشـوق فيها الى اصبهان »(١) .

والذي نحب ان نشير اليه ، ان هذه الابيات ليست للصاحب بن عباد أو المعتمد بن عباد ، كما انها ليست في اصبهان أو غيرها من المدن الفارسية ، وانما هي لابي عبادة البحتري من قصيدة يمدح بها المتوكل ويصف مدينته المتوكلية التي بناها بالقرب من سامراء . وقبل هذه الابيات البيت الآتي :

ارى المتوكليـة قـد تعالت محاسـنها وادركت التماما(٢)

---

(١) مجلة الاقلام الجزء السابع السنة الثانية آذار ١٩٦٦ ص١٨١ .
(٢) انظر : ديوان البحتري ٣٩/١ طبعة بيروت .
ديوان البحتري تحقيق حسن كامل الصيرفي ص٢٠١١–٢٠١٢
وزهر الآداب للحصري ١٩٩ الطبعة الثالثة .

اضواء على السياسة العالمية

استشهاد البطـل

مع فجر الرابع عشر من نيسان صدر بيان عن الحكومة ينعي السيد رئيس الجمهورية المشير الركن عبدالسلام محمد عارف هذا نصه :

تنعي الحكومة العراقية مع مزيد الحزن والاسى للشعب العراقي وللامة العربية وللشعوب الاسلامية عامة السيد رئيس الجمهورية المشير الركن عبدالسلام محمد عارف فقد سقطت به وبمن معه من الوزراء والمرافقين مساء أمس الطائرة التي كانت تقله من القرنة الى البصرة بفعل عاصفة قوية ادت الى سقوط الطائرة وتحطيمها واستشهاد الرئيس ووزيري الداخليـة والصناعة وبعض المرافقين ٠

وفي الوقت الذي نعلن فيه هذا النبأ المفجع والحادث الجلل نضرع الى العلي القدير ان يسكن الشهداء فسيح جناته ويلهم الشعب الكريم الصبر والجلد على تحمل هذه المصيبة العظيمة ٠ كما نرجو ان يقابل الشعب العراقي هذه الصدمة المؤلمة بالصبر والايمان والثقة بالله والعمل الدائب من اجل المثل العليا التي لقي الرئيس الراحل ربه راضياً مرضياً من اجلها وتعلن الحكومة الى الشعب كافة بانها تقـدر مسؤولياتها في هذه الفترة العصيبة وقد انيطت مهام السيد رئيس الجمهورية بالسيد رئيس الوزراء حسب احكام المادة السادسة والستين من الدستور المؤقت الى حين انتخاب رئيس للجمهورية بمقتضى المـادة (٥٥) من الدستور التي تقضي بانتخاب رئيس جديد للجمهورية خلال اسبوع واحد من تاريخ خلو المنصب وذلك باغلبية ثلثي المجموع الكلي لاعضاء مجلس الوزراء ومجلس الدفاع الوطني ٠

ولم يكن مصرع البطل القائد بالامر الهين على شعب العراق ولم تكن الفاجعة فيه خسارة فحسب وانما قد انهد ركن من اركان القومية العربية كافح من أجلها وضحى بحياته في سبيلها ٠

ان اسم عبدالسلام محمد عارف يقترن بكل الثورات التحررية التي قامت في العراق فصوته المدوي صباح يوم الرابع عشر من تموز ما زال في اذن كل من عاش في تلك الفترة الحاسمة من تاريخ الوطن كان صوته ـ وهو يذيع البيان الاول للثورة ـ اشعارا بانتهاء عهد الفساد والرجعية والخيانة والاستعمار ، وكان بداية لعهد الثورة والتقدمية والانعتاق ، كان نهاية لحكم العمالة وايذانا بعهد الحرية التي طالب الشعب بها منذ ان عرف

حقه وناضل من أجله ، كان ذلك بداية للسير في ركب العروبة المتحررة ، التي قادتها القاهرة منذ ثورة الثالث والعشرين من تموز سنة ١٩٥٢ وكان حكم نوري السعيد في العراق يسعى للابتعاد عن ذلك الركب المتحرر ، حتى قامت ثورة الرابع عشر من تموز ثورة عبدالسلام محمد عارف ٠

ولما رأى القائد البطل انحراف عبدالكريم قاسم واستحواذ زمرته على الحكم على الحكم وابتعاده عن أهداف الثورة وقف من عبدالكريم قاسم موقف المناوىء فابعدته السلطة انذاك ولفقت له التهم المختلفة وادخلته السجن ثم حكمت عليه بالاعدام ولما خرج من السجن قاد ثورته الثانية مع الفئات القومية الاخرى ، وبذلك انتهى دور عبدالكريم قاسم ، وقامت ثورة الرابع عشر من رمضان واعلن عبدالسلام محمد عارف رئيسا لها وما لبثت الثورة ان استحوذت عليها بعض الميول والاتجاهات حتى حرفتها عن طريقها الصحيح فقامت ثورة الثامن عشر من تشرين التي اعادت للعراق وجهه العربي السليم وشرعت قوانين الاشتراكية التي تعتبر اكبر خطوة تقدمية في تاريخ العراق الحديث ٠

ثم التقت بغداد والقاهرة لقاءا اخويا كاملا اقض مضاجع الحاقدين والرجعيين والعملاء وبدأت اصابع المستعمرين في بث سموم التفرقة والبغضاء وبثت النعرات بين الطوائف وأريد السوء بالعراق وأهله ، الا أن عبدالسلام كان الذائد الصامد عن حياض هذا الوطن والحافظ لوجهه العربي الكريم ، فعمل جاهدا وما وسعه العمل من أجل عروبة العراق ووقف بوجه التيارات الشعوبية الحاقدة على العرب والمسلمين وكان بحق بطل المعارك التي خاضها بجرأة وشجاعة نادرة قل ان توفرت في قائد ورئيس ٠

فليس غريبا ان يذهل الناس لفقده وليس بكثير ان تنشق الجيوب حزنا عليه فقد عاش من أجل الشعب ومات من اجله ٠

كان رحمه الله يتفقد كل صغيرة وكبيرة في شؤون البلد مما يصل اليه وكان مفتوح القلب لكل قاصد وملبيا لكل نداء يشعر بأنه حق وواجب ٠

رحم الله عبدالسلام والهم الامة فيه الصبر والسداد وجعل من سيرته خير قدوة وخير دليل ومكن لاخوانه في الجهاد ان يقودوا البلاد بعده الى شاطىء السلامة وبر الامان ٠

انتخاب اللواء عبدالرحمن محمد عارف رئيسا للجمهورية

في ليلة السابع عشر من نيسان وبعد ان انتهت مراسيم تشييع الرئيس الراحل عبدالسلام محمد عارف ، عقد اجتماع تاريخي في المجلس الوطني ضم مجلس الوزراء ومجلس الدفاع الاعلى وهو السلطة المخولة بموجب الدستور المؤقت لانتخاب رئيس للجمهورية ، وبعد مناقشات تحدث فيها الحاضرون عن الظروف التي احاطت بالبلاد صدر بيان هذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم

انتخب بالاجماع في هذا اليوم المصادف ٢٧ ذي الحجة ١٣٨٥ هجرية الموافق ١٧ نيسان ١٩٦٦ اللواء عبدالرحمن محمد عارف في جلسة مشتركة عقدت حسب احكام المادة الخامسة والخمسين من الدستور المؤقت رئيسا للجمهورية خلال فترة الانتقال الى حين انتخاب رئيس للجمهورية حسبما سينص عليه الدستور الدائم على ان لا تتجاوز تلك المدة سنة واحدة من تاريخ هذا اليوم » .

وقد تسلم السيد الرئيس سلطاته فور انتخابه وتلقى برقيات التهاني واستقبل الوفود الشعبية التي حضرت الى القصر الجمهوري لهذه الغاية ، اذ كان انتخابه رئيسا للجمهورية بالاجماع امرا له دلالته عند ابناء الشعب الذي اخلص لسلفه الصالح وهو يؤكد الاخلاص والولاء لخلفه الصالح ، سدد الله خطاه وايده بنصر من عنده .

وقد خاطب الرئيس الشعب بكلمة القاها من اذاعة وتلفزيون بغداد رسم فيها الخطوط الرئيسية لسياسته وعاهد الشعب على المضي في السياسة التي رسمها الرئيس الراحل والتي قضى من أجل تحقيقها فقال :

بسم الله الرحمن الرحيم

ايها المواطنون الاعزاء ، اخوتي السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وبعد فهذه اول مرة اخاطبكم ولم ازل مكلوم القلب .. مفعما بالاسى .. لقد كان المصاب اليما والخسارة جسيمة وما عزاؤنا الا بقوله تعالى (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفان مت فهم الخالدون كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة والينا ترجعون) صدق الله العظيم .

فقد ودع الشعب بالامس القريب فقيدا عزيزا ورائدا عظيما بدموع سخية وبقلوب حزينة وعاطفة صادقة كانت مثالا حيا لوفاء الشعب الى القائد الذي وهب حياته من أجل حرية شعبه وسعادته وامنه واستقراره ... وتعبيرا عن الصلة القوية بينه وبين الفقيد .. فاليكم جميعا اتقدم بالشكر والتقدير .

أيها الاخوة :

ان احترام القانون وسيادته هدفي الذي سألتزم بتحقيقه واتشدد في تطبيقه اذ لن يكتب الفلاح لقوم لا يحترم القانون بينهم ولا يسودهم العدل فالامن والاستقرار لا يتوفران دون الالتزام بقواعد العدل والقانون والسعادة والرفاه لا يتوصل اليهما الا بالامن والاستقرار . ومن هذا المنطلق سنسير في رسم سياستنا وبناء مجتمعنا .

أيها الاخوة :

ان الوحدة الوطنية ورص صفوف الامة وجعلها كتلة واحدة من اقصى

طرف في الشمال الى اقصى طرف في الجنوب اهم ما سنعمل لتحقيقه في هذه الفترة المهمة من تاريخ جمهوريتنا العزيزة فبلم شمل الشعب وتحقيق وحدته الوطنية نحقق الوحدة القومية .

ان السياسة الحكيمة التي رسمها المغفور له هي السياسة التي سنسير عليها في جميع المجالات الداخلية والخارجية والاقتصادية والاجتماعية وان مؤازرتكم لي وتعاونكم مع حكومتكم الوطنية سيمهدان الطريق لتنفيذها وييسران العقبات التي قد تحول دون الاسراع في تنفيذها .

ان علينا واجبا وعليكم حقا فواجبنا رعاية مصالحكم وتهيئة الوسائل الكفيلة لضمانها وتطورها حسب ما يقتضيه التقدم الحضاري . وسنقوم مع رجال الدولة والمسؤولين بواجبنا على اتم ما يمكن القيام به . وعليكم ان تقوموا من جهتكم بما يفرضه الواجب والقانون . وفي هذا التجاوب بين الشعب والدولة تصل البلاد الى هدفها المنشود .

ايها الاخوة المواطنون

لن انسى مشاعركم الطيبة التي اعربتم عنها في فقد عزيزنا الراحل ولن انسى كذلك صدق الولاء الذي ابداه رئيس الوزراء واعضاء وزارته للراحل العظيم او بتحملهم المسؤولية واضطلاعهم بتسيير الامور أيام المحنة التي سبقت انتخابي رئيسا للجمهورية يشاركهم فيها السادة اعضاء مجلس الدفاع الوطني وكل ضابط وجندي في القوات المسلحة . واني اشكرهم وأشكر كل مواطن منكم على ذلك وعلى الثقة الغالية التي اعرب عنها باسمكم مجلسا الوزراء والدفاع الوطني في الجلسة المشتركة عندما اجتمعت كلمتها على انتخابي .. وقد اقسمت اليمين الدستورية وساكون أمينا وأبقى محافظا على مصالح الشعب ورعايتها وساضع جميع امكانياتي في سبيل رفع شأن الامة وازدهار البلاد .. فأعينوني على امركم وخذوا بيدي فأن يد الله مع الجماعة والله على ما أقول شهيد .

وختاما أرجو الله العلي القدير ان يكون العام الهجري الجديد مستهل أمن وسلام وسعادة للامة العربية والامم الاسلامية وان يعود على العالم اجمع باليمن والبركة .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وزارة الاستاذ عبدالرحمن البزاز الثانية

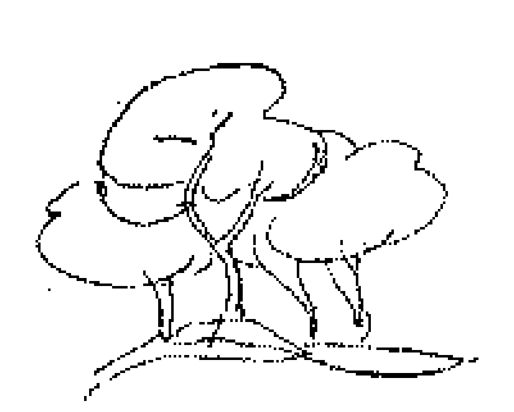
واثر انتخاب الرئيس عبدالرحمن محمد عارف رئيسا للجمهورية قدم السيد عبدالرحمن البزز كتاب استقالته من الوزارة اليه ، ثم عهد الرئيس الى الاستاذ البزاز بتشكيل الحكومة الجديدة فشكل الوزارة الثانية التي احتفظ اكثر الوزراء في وزارته الاولى بمناصبهم عدا تغيير

طفيف واعتذر وزيران عن المشاركة مرة ثانية ودخلها وزير واحد لوزارة العمل ، وهذا ما اشار اليه الاستاذ البزاز في مؤتمره الصحفي الذي شرح فيه ظروف تشكيل الوزارة .

وكان المؤتمر الصحفي الذي عقده السيد رئيس الوزراء في مبنى المجلس الوطني في اليوم الثالث والعشرين من نيسان شرح فيه تفصيلا موضوع انتخاب السيد رئيس الجمهورية وأشار الى قرار المجلس التحقيقي بالكارثة المفجعة التي أودت بحياة الرئيس الراحل .

وقد تطرق السيد رئيس الوزراء الى سياسة الحكومة الحاضرة واستعان بكتاب التكليف الذي وجهه الرئيس الراحل اليه في وزارته الاولى وحدد المبادىء السبعة التي اشار اليها كتاب التكليف واوضح التزام الحكومة بها وسعيها لتحقيقها . ثم اجاب على اسئلة الصحفيين .

وبالجملة فان موءتمر السيد رئيس الوزراء تميز بالوضوح والصراحة في شرح الاوضاع والاجابة على الاسئلة وكان موءتمرا احاط بكل قضايا الساعة وحدد موقف الحكومة منها واحدة فواحدة .





- **اصدرت وزارة الثقافة والارشاد ضمن سلسلة الكتب الحديثة كتاب [ابو تمام الطائي] من تاليف الاستاذ خضر الطائي ويقع الكتاب في (١٥٠) صفحة ٠**

- [الشيب في شعر العرب] عنوان المحاضرة التي القاها خلال الشهر الفائت الدكتور محمد مهدي علام عضو مجمع اللغة العربية والمستشار الثقافي بالجمهورية العربية المتحدة ، في نادي كلية الاداب بدعـوة منها ٠

- **اقامت جماعة بغدادللفن الحديث معرضها التاسع في بناية المتحف الوطني للفن الحديث ، وقد شارك في المعرض (١٦) فنانا ، كما عرضت فيه بعض اعمال المرحوم جواد سليم ٠**

- برعاية السيد وزير التربية افتتح معرض الرسم والنحت السنوي لقسم اعداد المدرسين في عمادة معهد الفنون الجميلة ٠

- **[الامام امير المؤمنين «ع»] عنوان الكتاب الذي صدر مؤخرا ضمن سلسلة منابع الثقافة الاسلامية ٠ والكتاب من تأليف الاستاذ علي محمد علي دخيل ٠ ويقع في أكثر من مائة صفحة ٠**

- اصدر الاستاذ محمد سلمان العطار كتابا جديدا بعنوان [الرعاية الاجتماعية ومعاملة المذنبين في ضوء المفاهيم الحديثة) ٠ ويقع الكتاب في اكثر من مائة صفحة من القطع الكبير ٠

- **[ثورتنا في شمال العراق] عنوان الكتاب الجديد الذي اصـــدره مؤخرا الاستاذ عبدالمنعم الغلامي ويقع الكتـاب في اكثر من (١٥٠) صفحة من القطع الكبير ٠ ويتناول الكتاب صفحات من كفاح المواطنين في شمال العراق ضد الاستعمار الانكليزي في عام ١٩١٩ ـ ١٩٢٠ ٠**

- صدر الى الاسواق الجزء الاول من كتاب [الوجيز في قانون العمل ـ دراسة مقارنة] من تاليف الدكتور شاب توما منصور ، ويقع الكتاب في اكثر من (٣٠٠) صفحة من القطع الكبير ٠

- **اصدر الاستاذ ناجي معروف كتابين جديدين الاول عنوانه : (نشأة**

المدارس المستقلة في الاسلام) ويقع في (٣٢) صفحة من القطع الكبير .
اما الثاني فعنوانه (المدارس الشرابية ببغداد وواسط ومكة) ويقع في اكثر من (٤٠٠) صفحة من القطع الكبير .

- ابدت جمعية الصداقة الالمانية ـ العربية في جمهورية المانيا الديمقراطية اعجابها بمجلة (الاقلام) وطلبت تزويدهما بها . جاء الطلب في رسالة بعث بها البروفسور الفريد كوريلا عضو مجلس الرئاسة في الجمعية المذكورة ونائب رئيس اكاديمية الفنون الالمانية الى هيئة تحرير المجلة .

- **أصدرت وزارة الثقافة والارشاد مؤخرا كتاب (المرشد الى مواطن الحضارة ـ الرحلة الثالثة) من وضع السيدين طه باقر وفؤاد سفر . وتشتمل هذه الرحلة وصف الطريق بين بغداد والموصل وما فيه من مناطق اثرية وتاريخية وسياحية .**
ومن المؤمل ان تصدر الى الاسواق قريبا الرحلة الرابعة التي تصف المنطقة بين كركوك والسليمانية .

- (محمد كرد علي) ـ تاليف الاستاذ جمال الدين الالوسي ، سيصدر قريبا ضمن سلسلة الكتب الحديثة التي تصدرها وزارة الثقافة والارشاد . وقد كتب المقدمة الاستاذ محمد بهجة الاثري .

- **انتهى الاستاذان لطفي الخوري وابراهيم الداقوقي من ترجمة كتاب (حضارة السلاجقة) تأليف تامارا تالبوت رايس .**

- (بيارق الآتين) ديوان شعري جديد للشاعرين عبدالامير الحصيري وخالد يوسف ، ويقع الديوان في أكثر من (٥٠) صفحة واشتمل على (١٨) قصيدة .

- **يصدر الى الاسواق قريبا (معجم المطبوعات النجفية) من تاليف الشيخ محمد هادي الاميني .**

- وستصدر قريبا الطبعة الثانية من كتاب (الديارات) للشابشتي والذي حققه الاستاذ كوركيس عواد . وستشتمل الطبعة الجديدة على زيادات كثيرة خلت منها الطبعة الاولى .

- **انتهى الاستاذ عبدالحميد العلوجي من وضع كتاب (تاريخ الطب العراقي) تناول فيه حركة الطب منذ العهد البابلي حتى الان مستوعبا اعلام الطب من العراقيين والمخطوطات الطبية والمستشفيات كما بحث فيه هجرة العلوم الطبية العربية الى الغرب عن طريق اللاتينية والعبرية . وملامح من الطب البيطري العراقي وتاريخ الصيدلة ، وحركة ترجمة الكتب الطبية الاغريقية الى اللغة العربية ، ومن المؤمل ان تقوم الجمعية الطبية العراقية بطبعه .**

- (المحروقون) — رواية من تأليف الاستاذ محمد الراشد ، تقع في أكثر من (٣٠٠) صفحة من القطع الكبير • وهي دراسة تحليلية لازمة الجيل العربي ازاء مشكلاته النفسية والحضارية •.

- **اصدرت مجلة (المعرفة) التي تصدرها وزارة الثقافة والارشاد القومي في سوريا عددا خاصا عن (القضية العربية في صراعها مع الصهيونية العالمية) ويقع هذا العدد في أكثر من (٤٠٠) صفحة • كما خصصت مجلة (الطليعة) التى تصدر في القاهرة اكثر صفحاتها للموضوع نفسه**

- (سفر الكلمات) ديوان جديد للشاعر جورج غانم سيصدر قريبا عن احدى المطابع البيروتية •

- **يعد الدكتور مصطفى بدوي كتابا باللغة الانكليزية عن الشعر العربي الحديث ، ومن الجدير بالذكر ان الدكتور مصطفى بدوي يشغل منصب استاذ الادب العربي الحديث في جامعة اوكسفورد •**

- بمناسبة مرور (٢٠) عاما على وفاة الاديب عمر فاخوري ستصدر في بيروت طبعات جديدة لكتابيه المشهورين (الباب الموصود) و (الفصول الاربعة) •

- **سيصدر قريبا ديوان (ابن هاني الاندلسي) وقد قام بشرحه وتحقيقه الاستاذ عارف تامر • ومن المؤمل ان يكون الديوان في اربعة اجزاء مع مقدمة ضافية عن الشاعر وعصره وشعره •**

- في سلسلة (الكتاب الذهبي) الذي يصدر عن نادي القصة في القاهرة ، ستصدر الى الاسواق مجموعة قصص قصيرة للاستاذ لطفي الخولي وهي بعنوان (ياقوت مطحون) •

- **قررت لجنة الفنون الشعبية في المجلس الاعلى للفنون والاداب تخصيص جائزة لتشجيع الشعر الشعبي والزجل اسوة بالفنون والاداب الاخرى التي تخصص لها جوائز سنوية •**

- طبعت وزارة المعارف في المملكة السعودية كتابا يتناول حركة التعليم فيها خلال السنوات الخمس الماضية •

- **افتتح في ٢٢-٤-٩٦٦ في الكويت معرض الكتاب العربي الذي اقامته جمعية المعلمين الكويتية برعاية السيد وزير التربية • وقد ساهمت في هذا المعرض كل من : الجمهورية العراقية والجمهورية العربية المتحدة ، والجمهورية العربية السورية ، والمملكة المغربية ، والمملكة العربية السعودية ، والكويت •**

- (البيت الصامت) رواية جديدة انتهى من كتابتها الاستاذ عبدالحليم عبدالله • ومن المؤمل صدورها الى الاسواق في وقت قريب •

تصويبات

وقعت ـ سهواً ـ في العدد الماضي بعض الأخطاء الطباعية نود ان نلفت اليها عناية القارىء الكريم :

أ ـ في المقال (ما بعد الحجاب الخامس) للاستاذ شاكر حسن آل سعيد جاء في الصفحة (١١٤) السطر (١٣) وما بعده :

... عليه حياته التي لم تكن لتكتسب امتدادها الشرعي عبر مايبوح ... الخ

والصواب هو :

... علمه أي (يتخلف عكسيا) عن تحجر المتحضر التقليدي ذي العقلية التي ... الخ

ب ـ في قصيدة (روضة الأرواح) صفحة ١٦٦ جاء في مطلع القصيدة :

آن ان يطفـــح العبير رواحي

والصواب :

آن ان يفغم العبـــير رواحي

كما جاءت نهاية البيت السابع :

بترتيلتي ونجـوى صبـاحي

والصواب :

بترتيلتي ونجـــوى صبـاحي

المحتويات